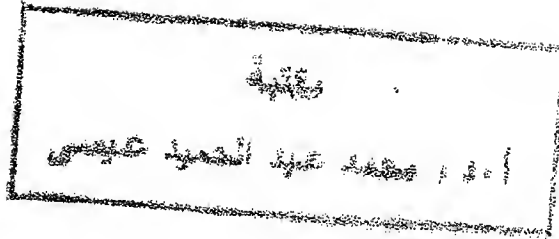


جامعة عين شمس
كلية التربية
قسم العلوم الاجتماعية



دراسات انسانية

د. محمد عبد الحميد عيسى

القاهرة ١٩٩١

المغرب الاسلامي

تمهيد

يمتد تعبير المغرب الاسلامي تاريخيا الى آفاق أكثر اتساعا لما هو عليه المغرب الاسلامي حاليا . ونقصد بهذا أن المغرب الاسلامي يشتمل على كل البلاد الاسلامية التي كانت تقع الى الغرب من الحدود المصرية ، وهي منطقة شاسعة تضم بين جوانبها بالإضافة الى كل البلاد الاسلامية الحالية ، ما رُفِرف عليه الاسلام من بلاد اسبانيا والبرتغال ، وجنوب فرنسا ، وجزيرة صقلية ، وجنوب إيطاليا ، وجزر سردينيا وكورسيكا وجزر البليار ، وإذا كان المغرب الاسلامي تقلص الان ليصبح ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا فقط ، فلعل ذلك يكون سببا كافيا لكي يحرك المسلمين للتعرف على تاريخ هذه المنطقة الاسلامي ، والاسباب التي أدت الى خروج أكثرها من نور الايمان ، والعودة الى ما كانت عليه قبل أن تحررها دماء المجاهدين المسلمين .

وينقسم المغرب الاسلامي حسب تقسيمات المؤرخين والجغرافيين المسلمين الى عدة أقسام رئيسية هي :

١ - برقة وطرابلس ، وهي أولى الاقاليم دخولا في الاسلام وتقعان الى الغرب مباشرة من الحدود المصرية ، ويعتبرها كثير من المؤرخين والجغرافيين جزءا من الاقليم المسمى بافريقية .

٢ - المغرب الادنى وقاعدة هذه المنطقة مدينة القيروان وتشتمل على بلاد تونس الحالية وجزء من شرقي الجزائر وتقع في عومها الى الشرق من بلاد المغرب .

٣ - المغرب الاوسط وهي المنطقة التي تشكل حاليا بلاد الجمهورية الجزائرية تقريبا ولم يكن لها قاعدة واحدة في العصور الاسلامية ، وان كانت تلمسان أشهر عواصم هذا الاقليم (١) .

(١) أحمد مختار العبادي (الدكتور) . تاريخ المغرب والاندلس

- القاهرة ١٩٧٨ م .

(م ٢ - الفتح الاسلامي للاندلس)

٤ - المغرب الأقصى : وهو الجزء الاخير المقابل للبر العدو
الأندلسية ، ويشكل حاليا بلاد المغرب .

وعلى الرغم من ذلك التفسير الذى وضعه المؤرخون والجغرافيون
المسلمون لهذه المساحات الشاسعة من البلاد ، الا أننا نستطيع أن
نلمح وجود وحدة طبيعية بين أقسامها عامة لا تقتصر على مظاهر
المطخ أو تشابه المناخ ، وانما هناك أيضا وحدة بين عناصر
سكانها الأصليين ، وتتمايز فى ذلك عن باقى أقسام القارة الافريقية
الكبرى (١) .

المغرب قبل الفتح الإسلامى :

ليس الهدف من كتابة هذه السطور التأريخ للمنطقة قبل
الإسلام بصورة تفصيلية وانما القاء نظرة سريعة لتذكر الملامح
العامة لهذا التاريخ حتى يمكن لنا أن نرى بوضوح عظمة الإسلام
والمسلمين فيما أدخلوه من تغيير أساسى وجذرى على حياة المنطقة
وكذلك التعرف على ما أضفاه الإسلام على هذه البلاد من نعمة
الاستقرار والرقى ، وهما شيئان لم يتاحا لها على مدى سبعة
قرون أو أكثر قبل الإسلام ، كما يتيح لنا ذلك أن نتبين كيف
أن المسلمين استطاعوا أن يخلصوا هذه المنطقة الى درجة كبيرة من
آثار مجموعة من القرون الطويلة عاشتها تحت سيطرة شعوب
أخرى وحضارة وديانة مختلفة سبقت المسلمين فى وصولها الى هذه
المنطقة ، وتركت فيها آثارها ، وطبعت عليها بصماتها .

وجدت الحياة الانسانية على ارض المغرب منذ عصور ما قبل
التاريخ ، لكن الفترة التاريخية تبدأ فى هذه المنطقة مع وجود
الفينيقيين بها ، واتصالهم بشواطئها وإقامة بعضهم هناك ويرجعها
المؤرخون الى الفترة الزمنية الممتدة من ١٢٠٠ - ١٤٦ ق . م .

(١) السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) المغرب الكبير - ج ٢

بيروت ١٩٨١ م .

٣

وفي القرن التاسع قبل الميلاد بدأ الفينيقيون تأسيس مستعمراتهم الدائمة هناك وفي القرن السادس قبل الميلاد أخذت هذه المستعمرات خطواتها الأولى نحو استقلالها عن المستعمرات الفينيقية في المشرق (١) .

عاشت المنطقة تحت سيادة قرطاجة عدة مئات من السنين كان للفينيقيين فيها السيطرة شبه الكاملة على حوض غرب البحر المتوسط ، ودخلوا من أجل ذلك في صراع مع اليونانيين أولا ، ثم مع الرومان بعد ذلك وهو الصراع الذي يعرف تاريخيا باسم الحروب البونية التي انتهت بتدمير قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م. وسيطرة الرومان على شمال افريقية ، وتحويل المنطقة كلها الى محافظة خاضعة للرومان (٢) .

العصر الروماني :

نشأت ولاية افريقية سنة ١٤٦ ق.م. بعد تهديم قرطاجة وكانت صغيرة جدا عرفت باسم افريقية القديمة (٣) ثم أخذت أراضي الرومان في الازدياد ، حتى استقر الامر ليوليوس قيصر الذي بدأ في تغيير النظام السياسي لافريقية بجعله من نوهـدية الشرقية ولاية جديدة أخذت اسم أفريكا الجديدة ، ثم أدمجت بعد ذلك في أفريكا القديمة في عام ٢٧ ق.م. - ضمت اليها بعد ذلك ولاية بريطانيا سنة ٤٠ وبذلك أصبحت افريقية ولاية خاضعة للحكم الروماني (٤) .

-
- (١) سيد الناضوري (الدكتور) المغرب الكبير ج ١ العصور القديمة ص ١٦٧ ، ص ١٧٤ .
- (٢) انظر في ذلك الدراسة القيمة للدكتور السيد الناضوري ضمن سلسلة المغرب الكبير ج ٢ ص ١٥٣ - ٢٨٨ .
- (٣) أحمد صقر ، مدنية المغرب العربي في التاريخ ، تونس ١٩٥٩ م ص ٢٩٥ وما بعدها .
- (٤) نفس المرجع ص ٣٠٤ - ٣٠٩ .

شهدت المنطقة ايام تلك الفترة ازدهارا اقتصاديا حيث اتجهت السياسة الرومانية الى استغلال اقاليم المغرب استغلالا شاملا في المجال الاقتصادي ، وكان المغرب الى جانب مصر بمثابة المخزن الطبيعي للغلال الذي تعتمد عليه روما ، ومن ثم اهتم الرومان بتطوير الحياة الزراعية ، وما يترتب عليها من مشروعات انمائية (*) .

وكان للتقدم الاقتصادي اثره أيضا في تطور الحياة الاجتماعية ، بدأت المراكز الحضرية في الانتشار وأخذت مدنها باشكل مختلف من أنماط الحياة لكنها جميعا تستلهم النظام الروماني حتى كسوت روما في الأفريقيين حركة ارتقاء وصعود نحو الحياة الرومانية وزرعت في نفوسهم روح المنافسة والمباراة ، وبذل الجهد للتدرج في سلم المعالي والرقى (٥) .

ولم يقتصر الرومان في فرض حضارتهم على المغرب على تلك الجوانب المادية حسب ، لكنهم حاولوا أيضا نشر ثقافتهم بكل الوسائل ضمن سكان المنطقة فحاولوا فرض اللغة اللاتينية ، كما أنهم سبغوا إلى نشر نظمهم الدينية المتعلقة بعبادة الامبراطور وإن لم يتقبل السكان هذه المسائل بصورة اقتناعية ، ولذلك فإننا نجد منهم اقبالا على المسيحية التي بدأت في الانتشار في المغرب منذ القرن الاول الميلادي ، حتى أن بعض المؤرخين يعزل سرعة انتشارها هناك ، وكذلك ظهور بعض الحركات الدينية والاجتماعية في المغرب على أنها رمز لعدم الخضوع للرومان أو رغبة في التعبير عن معارضتهم مما أدى الى ازدهار المسيحية هناك ، وظهور بعض الأدباء المسيحيين في المغرب مثل أغسطين (٦) .

بدأت الأمور في الاضطراب في المغرب نتيجة لعدة عوامل منها الاقتصادية والسياسية والدينية ، وكانت نتيجة هذه القلاقل

(*) د . سيد الناصوري ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٥) أحمد صقر - المرجع المذكور صفحة : ٣١٨ - ٣١٩ .

(٦) د . سيد الناصوري - المصدر المشار اليه صفحة : ٣٤٢ .

اختلال الامور في المستعمرات الرومانية ، وضعف نفوذ حكامهم ، حتى وصل الامر ببعض الولاة الى الاستنجاذ بالوندال المتغلبيين على اسبانيا في ذلك الحين . فقدموا ، وكان قدومهم الضربة القاضية على حضارة ودولة الرومان بافريقية ، حيث استولوا في عام ٤٣٩ م على قرطاجة ومن ثم انتهى الحكم الروماني في افريقية (٧) .

العصر الوندالي في افريقية :

الوندال قسم من القبائل التي عرفت في التاريخ بالقبائل الجرمانية والتي نزحت الى حدود الامبراطورية الرومانية منذ القرن الثالث الميلادي ثم توغلت الى داخلها على مدار القرن الرابع والخامس من الميلاد ، واستقر الوندال في اسبانيا في تلك الفترة ثم ما لبثوا أن نزحوا الى افريقيا نتيجة لضغط القوط الغربيين عليهم ، وسنوح الفرصة حين استنجد بهم أحد ولاة الرومان في المنطقة ، لكي يعبروا جبل طارق في حدود ثمانين الفا بقيادة ملكهم جنسريك في عام ٤٢٩ ، وتمكنوا من الاستيلاء على البلاد ، وتوجوا انتصاراتهم بالاستيلاء على قرطاجة في عام ٤٣٩ ، وبذلك ضاع على الرومان جزء هام من أجزاء امبراطوريتهم (٨) .

ويعتبر جنسريك قائد الوندال من أشهر زعماء هذه الفترة من التاريخ واستطاع أن يجبر روما على الاعتراف به ملكا مستقلا في سنة ٤٤٢ (٩) .

ويجمع المؤرخون على أن سياسة هذا الرجل مع سكان المنطقة كانت سيئة للغاية ، فلقد نهج في حكم مملكته الجديدة نهجا استبداديا .

(٧) أحمد صقر - المرجع المذكور صفحة : ٣٧٩ .

(٨) سعيد عاشور (دكتور) أوروبا العصور الوسطى ج ١ ج ٩١

القاهرة ١٩٨٣ ، صفحة : ٨٩ .

(٩) الباز العريني (الدكتور) تاريخ أوروبا العصور الوسطى - بيروت

١٩٦٨ ص ٩٦ .

عنيفا فصادر الضمياح ، وانتزع الارض من أصحابها وتعسف في جمع الاموال والضرائب من الاهالى ، وعاملهم في قسوة بالغة (١٠) .

أما عن علاقاتهم بالرومان فكانت سيئة الى أقصى حد ، وخاصة بعد أن أصبحوا قوة بحرية قوية ، فهاجموا صقلية وسبردينية ، وكورسيكا كما أنهم هاجموا رومانيا نفسها سنة ٤٥٥ م . وتفككت قوة الوندال بعد وفاة جنسريك سنة ٤٧٧ م . ، وتمكن البيزنطيون من القضاء على دولتهم والسيطرة على شمال افريقية ، واعادته الى حظيرة الامبراطورية البيزنطية (١١) .

العصر البيزنطى فى افريقية :

حينما تولى جستنيان عرش الامبراطورية البيزنطية عام ٥٢٧ م كان همه الاول اعادة توحيد الامبراطورية الرومانية القديمة ، واسترداد املكها من ايدي القبائل الجرمانية التى أسست لها دولا مستقلة بها . وبدأ بالوندال ، حيث أرسل قائده بليزاريوس على رأس جيش رومانى تمكن من تحطيم دولة الوندال وادخال المنطقة مرة أخرى فى دائرة الامبراطورية البيزنطية ، وعاد الرومان الى تملك الاراضى ، وازالة آثار الوندال ، الا أنهم لم يجدوا استجابة كافية من السكان الاصايب الذين نظروا اليهم نفس النظرة الى سابقينهم ، باعتبارهم مغتصبين لخيرات البلاد .

أصبحت بلاد المغرب أرضا بيزنطية يولى عليها قادة من قبل الامبراطور ، حتى بدأ الضعف يتفشى فى أنحاء الامبراطورية البيزنطية عامة ، وخاصة بعد وفاة جستنيان ، وتأثر المغرب بذلك فضعف النفوذ البيزنطى هناك ، ثم ازدادت المشاكل حدة بالخلافات المذهبية الدينية (المسيحية) التى بدأت تحطم جسم الامبراطورية سواء فى الشرق

(١٠) سعيد عاشور (الدكتور) أوروبا العصور الوسطى ج ١ صفحة :

(١١) سعيد عاشور : المرجع السابق صفحة : ٩٠ .

الباز العرونى ، المرجع المشار اليه صفحة : ٩٦ .

٧

أو الغرب مثل قضية « طبيعة السيد المسيح » على عصر جستنيان وخلفائه ، وقضية الايقونية واللايقونية في عصر الامبراطور ليو الثالث الأيسورى .

وفي سنة ٦٤١ م . أعلن جريجوريوس استقلاله ببلاد المغرب عن الامبراطورية البيزنطية واستقر في مدينة سبيطلة كعاصمة له بعيدا عن فوطاجنة ، ولكي يتحصن بها من غزو البيزنطيين ، أو هجمات المسلمين التي بدأت تدق أبواب افريقية في تلك السنوات (١٢) .

(١٢) السيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ٧٨ .

انفتح الاسلامى لبلاد المغرب

بدأ المسلمون نشر رسالة الاسلام خارج شبه الجزيرة العربية اعتبارا من نهاية عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما قام ، عليه السلام بارسال سرايا المسلمين الى اطراف الشام ولم يكـد ينقضى القرن الاول الهجرى حتى كانت رايـة الاسلام ترفرف على آفاق واسعة من العالم المعروف حينذاك ، ووصلت كلمة لاله الا الله من حدود الصين شرقا الى المحيط الاطلنطى غربا ومن منتصف اراضى فرنسا الحالية شمالا الى جنوب الصحراء الكبرى فى غرب العالم الاسلامى ، ومن اواسط البلاد الروسية حاليا شمالا الى المحيط الهندى جنوبا فى شرق هذا العالم الكبير .

وليس هذا مجال الحديث عن أسباب هذه الفتوحات الاسلامية ودوافعها الحقيقية ، كما أنه ليس مجال الرد على افتراءات المفتريين وأصحاب الأغراض والاهواء ممن يحاولون التقليل من عظمة هذه الفتوحات وروعيتها وانما قد تتاح هذه الفرصة أمام المؤرخين حين تأريخهم وكتابتهم عن بداية هذه الفتوحات الاسلامية ، وخاصة عند دراساتهم لعصر الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وقيام المسلمين بالجهاد بقيادتهم لنشر الاسلام خارج ربوع شبه الجزيرة العربية .

هناك ملاحظة أساسية يجب أن نشير اليها لصلتها الوطيدة بالفتوحات الاسلامية فى المغرب . وهى أن انتشار الاسلام وتوسع دولته قد ضرب مثلا فريدا فى السرعة والانجاز ، بحيث أن مناطق واسعة مثل بلاد الشام ومصر والعراق وفارس وبعض ماجاورها من اقاليـم قد دخلها المسلمون فى فترات زمنية وجيزة جدا .

أما المغرب فقد تميز بظاهرة أخرى عكسية ، وهى أن فترة

الفتح قد طالت الى درجة غريبة ، وامتدت هناك فترات النصر والهزيمة الى أكثر من ستين عاما بدأت من أوائل سنة ٢٢ هـ على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه بعد اتمامه فتح مصر ، ولم تنته الا في حدود عام ٨٥ هـ . على يد القائد المسلم حسان بن النعمان رضى الله عنه ، قائد الجيوش الاسلامية في افريقية والمغرب من قبل عبد الملك بن مروان واستقرت نهائيا على يد موسى بن نصير الذى عينه الخليفة الوليد بن عبد الملك .

وحتى نتفهم ذلك تفهما صحيحا ، فلا بد من أن تجسرى دراسة هذه الفترة من فترات الجهاد الاسلامى ضمن نظرة شاملة تتناول كثيرا من الابعاد ، وحتى يمكن دراستها دراسة واقعية فانها لا يمكن أن تقيم بمعزل عن دراسة البيئة السياسية فى باقى انحاء الدولة الاسلامية ومدى تأثير ما كان يجرى فى عاصمة المسلمين - وهى المدينة المنورة حينذاك - على مجريات الامور فى الفتوحات الاسلامية فى افريقية وخاصة استشهاد خليفة المسلمين ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه وما اعقب ذلك من فتنة بين المسلمين على عهد على كرم الله وجهه وما واجهه الامويون من مشكلات وثورات قام بها العلويون ، والموقف من خلافة عبد الله بن الزبير رضى الله عنه الى أن استقر الامر لعبد الملك بن مروان . وكذلك دراسة علاقات الدولة الاسلامية بالدولة البيزنطية . لان ميدان الصراع كان واحدا فى شرقه وغربه وكثيرا ما كان يتأثر جنود الاسلام فى افريقية والجند البيزنطى بمدى تطور هذه العلاقات سلبا أو ايجابا .

يضاف الى ذلك دراسة البيئة المصرية الاسلامية بعد الفتح الاسلامى لها ومدى ارتباط عمليات الفتح فى شمال افريقية بتفرغ ولايتها للجهاد أو قيامهم أنفسهم بقيادة هذه الفتوحات ، ومدى علاقاتهم بالخلفاء وتأثير ذلك على القيادة فى المغرب .

وكذلك لا يمكن أن تكون الدراسة منعزلة عن تتبع العلاقات بين البتر « والبرانس » - وبين هؤلاء والروم البيزنطيين مما كان له

أثره الواضح على المعارك بين العرب المسلمين من جهة والبربر المسيحيين من جهة ثانية ، وإلى أي حد نجح العرب المسلمون في اجتذاب بعض فئات البربر إلى الإسلام ، والاستفادة من العلاقات التي كانت تربط هاتين الفئتين من البربر لاستكمال حلقات الفتح الإسلامي لأفريقية الشمالية .

نتيجة لطول مدة الفتح الإسلامي لمنطقة افريقية والمغرب فإن المؤرخين يميلون إلى تقسيم هذه الفتوحات إلى عدة مراحل من أجل تسهيل دراستها واستيعابها .

فهناك من يقسمها إلى مراحل عدة بحسب القادة الذين تولوا الجهاد هناك (١٣) وهناك من يقسمها إلى مرحلتين أساسيتين أولاهما قبل تأسيس مدينة القيروان والآخرى تالية لها .

وليس هناك تعارض بين التقسيمين لأن أصحاب الرأي الثاني إنما يعودون أيضا إلى تقسيم كل مرحلة رئيسية إلى تقسيمات داخلية نسبة إلى أمراء الفتح فيها ، ومنشعب التقسيم الأول في عرضنا السريع لفتح المسلمين للمغرب (١٤) .

الرحلة الأولى : مرحلة عمرو بن العاص رضي الله عنه :

ما كاد عمرو بن العاص رضي الله عنه يستقر في الاسكندرية حتى بدأ يفكر في تأمين حدودها الغربية وذلك بفتح إقليم برقة وطرابلس اللتين كانتا تابعتين لصر من الناحية النظرية وإن تمتعتا بالاستقلال فعليا منذ أواخر الحكم البيزنطي للمنطقة . (١٥) ولم

(١٣) د . حسين مؤنس : فجر الاندلس صفحة : ٤٦ وما بعدها .
د . السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس صفحة ٢٥ وما بعدها . محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام في الاندلس ج ١ صفحة : ١٥ وما بعدها .

(٤) انظر الدراسة القيمة للدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتابه المغرب الكبير الجزء الثاني من سلسلة المغرب الكبير ، ابتداء من صفحة : ١٤١ وما بعدها .

(١٥) السيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ١٤١ .

يكن هدف عمرو بن العاص قاصرا على تأمين حدود مصر الغربية فحسب ،
وانهـا كانت تحته دوافع الجهاد الاسلامى من أجل مواصلة نشر
الاسلام . وانذا كان ابن عذارى يذكر أن عمرو بن العاص قد وجه
عقبة بن نافع الفهري الى لوبية وإفريقية فافتتحهما . ثم توجه
عمرو بنفسه الى برقة فصالح أهلها على الجزية ، دينار على كل حالم
وتوجه منها الى طرابلس ، ففتحها (١٦) فان ابن عبد الحكم يقول
« فسار عمرو بن العاص فى الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها على
ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها جزية » (١٧) .

وبعد أن انتهى من فتح برقة بدأ الاستعداد لفتح طرابلس ولكن
كان لابد وأن يؤمن خط الرجعة خشية أن يؤتى من قبل السكان
المقيمين فى الواحات الداخلية وخاصة فزان ، ومن هنا ادرك ضرورة
تقديم جيشه الى قرقتين أحدهما بقيادته فتجه الى طرابلس ، والثانية
بقيادة عقبة بن نافع الفهري لتتجه لاختضاع المناطق الداخلية ،
ويرى الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن مهمة عقبة فى هذا المجال
كانت فى المقام الاول الاستيثاق من طاعة أهل الواحات أو على
الاقل من وقفهم موقفا حياديا (١٨) .

ولا شك أن عقبة بن نافع فى هذه الفترة كان مازال حدثا لاننا
سنراه بعد أربعين عاما يقود الفتوحات الاسلامية فى المنطقة حتى
يستشهد فى عام ٦٤ هـ . ، ويميل الى ذلك الدكتور حسين مؤنس
حيث يقول بأن عقبة كان قائدا صغيرا فى جيش عمرو فأرسله الى
زويلة وفزان وودان ، وأن عقبة قد أقام فى هذه النواحي نحو عشرين
سنة يدعو للإسلام ، ويضرب لاهلها مثلا للمسلم الصحيح المتفانى فى
دينه (١٩) .

-
- (١٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٨ طبعة كولان
وليلى بروفنسـال .
(١٧) ابن عبد الحكم : فتوح إفريقية والاندلس صفحة : ٢٨ تحقيق
عبد الله أنيس الطباع .
(١٨) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير صفحة : ١٤٤ .
(١٩) حسين مؤنس : فجر الاندلس صفحة : ٣٧ .

ووصل عمرو بن العاص الى طرابلس في سنة اثنتين وعشرين فحاصرها لمدة شهر وصمدت المدينة بأسوارها المنيعة حتى تمكن المسلمون من دخولها والاستيلاء عليها ، وذلك بان جماعة منهم تسللوا الى داخل المدينة عبر الجهة التي تربطها بالبحر ، حيث استولوا على الكنيسة وفتحوا الابواب ليدخل جيش المسلمين المدينة ويضعها تحت حمايته ، ولم يضيق المسلمون وقتا فقام عمرو بن العاص بتجريد سرية من خيله على مدينة سبرت ، والتي كانت تساند طرابلس ، وفاجأ المسلمون أهل المدينة ، ودخلوها غفوة ، وأفاء الله عليهم ما بها من خيرات (٢٠) .

وفي أثناء حصار عمرو بن العاص لمدينة طرابلس ارسل قائده بسرين الرطاة الى ودان فافتحها سنة ٢٣ ، وقصد من ذلك القضاء على أية محاولات من جانب البربر لانجاد مدينة طرابلس ومساعدتها (٢١) .

يذكر ابن عبد الحكم ، أن عمرو بن العاص بعد أن افتتح طرابلس ، كتب بذلك الى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأنه طلب منه الاذن لمواصلة الجهاد في افريقية وكتب اليه يقول « ان الله قد فتح علينا أطرابلس ، وایس بينها وبين افريقيا الا تسعة أيام ، فان رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يده فعل « فكتب اليه عمر » لا ، انهما ليست بافريقيا ، ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت (٢٢) ، أما رواية ابن عذارى فانها أكثر اختصارا حيث يقول وفي سنة ٢٣ افتتح بلاد أطرابلس ، وكتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح ، وأن ليس أمامه الا بلاد افريقية وملوكها كثير وأهلها في عدد عظيم ، وأكثر ركوبهم الخيل ، فأمره

(٢٠) ابن عبد الحكم : فتوح افريقيا ٣١ ، ٣٢ .

(٢١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٨ - المغرب

الكبير ج ٢ صفحة : ١٤٩ .

(٢٢) ابن عبد الحكم صفحة ٣٢ .

بالانصراف عنها ، فأمر عمرو العسكر بالرحيل قافلا الى مصر (٢٣) .

ونتساءل عن موقف الخليفة عمر رضى الله عنه لعدم السماح بمواصلة الجهاد في هذه المنطقة ، وهو الذى دفع بالمسلمين الى الجهاد في ميادين شتى وتم على يديه انهيار قواعد أكبر امبراطوريتين هما فارس والروم .

يرى الدكتور ابراهيم بيضون أن القيادة العربية اكتفت بهذا القدر من الانتصارات التى حققتها في برقة وطرابلس ولذلك أمرت قائد الحملة عمرو بن المعاص بالعودة الى مصر حيث أصبح حاكما عليها (٢٤) .

أما الدكتور السيد عبد العزيز سالم فإنه يستشف من تصرف الخليفة رضوان الله عليه ، أنه كان على علم بمجريات الامور في افريقيا وكان محيطا بثورات أهلها ونكتهم بالعهود ، وغدرهم بأصحاب السلطان ، وأنه كان من الطبيعى أن يرفض طلب عمرو بن المعاص خشية التفرير بالمسلمين في مخاطر لا يعلمها الا الله (٢٥) ويميل الدكتور أحمد مختار العبادى الى نفس الراى ، ويقول أن صحت رواية رفض الخليفة رضى الله عنه فانما يدل ذلك على أن عمر كان يخشى على جيوش المسلمين من أن ينساب وتتبعثر في هذه المناطق الشاسعة وهى لم تزل بعد في حاجة الى توطيد نفوذها وسلطانها في البلاد التى فتحتها ، واستقرت فيها حديثا كالشام ومصر ، ويدل هذا الراى على سلامة تفكير الخليفة عمر بن الخطاب كقائد عربى ممتاز (٢٦) .

ويرى الاستاذ شكرى فيصل أن « عمر لم يأذن له ولعله رأى بعد هذا القهود العريض ، حاجة المسلمين الى فترة من الهدوء

(٢٣) ابن عذارى ج ١ صفحة ٩ .

(٢٤) ابراهيم بيضون (الدكتور) الدولة العربية في أسبانيا - بيروت ١٩٨٠ صفحة : ٢٤ .

(٢٥) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ١٥١

(٢٦) أحمد مختار العبادى : في تاريخ المغرب والاندلس صفحة :

يثبتون فيها أقدامهم فتستقر بهم الأرض ، وتدين لهم الاطراف
ويكونون على دلالة مما يستدبرون ، اذا أقدموا (٢٧) .

عاصم عمرو بن العاص الى القسطنطينية بمصر ، مقر ولايته ، تاركا
عتبة بن نافع في برقة التي أصبحت منذ ذلك الحين مقرا للجيش
الاسلامية على مشارف الحدود المصرية ، ونجح عتبة بن نافع
خلال فترة اقامته في الدعوة الى الاسلام ، حيث بذر البذرة الاولى
لتنشر الدعوة في هذه المنطقة .

وفي سنة ٢٤ استشهد الخليفة عمر بن الخطاب وتولى خلافة
المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فقام بعزل عمرو بن العاص
عن ولاية مصر ، وعين بدلا منه عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي
سيقوى أمر الجهاد مع المسلمين في منطقة افريقية (٢٧ ب) .

المرحلة الثانية : حملات عبد الله بن سعد بن أبي السرح .

لم يكن جريجوريوس وتسميه المصادر العربية « جرجير »
الحاكم البيزنطي على علاقة طيبة بالامبراطورية وجاءت الاحداث الجديدة
لقد رفح من درجة الخطر المحيط به ، حتى اضطر الى التقهقر الى
داخل البلاد ليتخذ من مدينة سبيطة عاصمة له ، كما أنه عمل
على تحصين قابس وسفاس وقفصة لكي تشكل حاجزا دفاعيا أمام
عاصمته التي ابتعد بها عن البحر وغارات البيزنطيين وليحمي نفسه
في ذات الوقت من هجمات المسلمين .

وفي نفس الوقت كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح والي مصر
الجديد ، قد أخذ في تجريد سرايا على افريقية واستأذن الخليفة
رضوان الله عليه فتردد في ذلك مسترشدا بموقف الخليفة عمر بن
الخطاب مع عمرو بن العاص وتطورت الامور في افريقية لغير صالح
المسلمين ، فخرجت طرابلس عن طاعتهم وكثرت كتابات عبد الله بن سعد
الى الخليفة عثمان يطلب منه السماح بغزو افريقية وامداداه

(٢٧) شكوى فيصل : حركة الفتح الاسلامي ، ط ٣ - بيروت

١٩٧٤ م . صفحة : ١٥٧ .

(٢٧ ب) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٣ صفحة : ٤٨ - ٤٩ .

بالمجاهدين من المسلمين حتى استجاب الى ذلك (٢٨) .

ويرى ابن عبد الحكم وكذلك ابن عذارى ، أن عثمان رضى الله عنه قد ندب الناس للجهاد في افريقية فخرج المسلمون في جيش عظيم ، عليهم الحرث بن الحكم وبه جلة من أعلام الصحابة وأعاز خليفة المسلمين رضى الله عنه الناس بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس ، وفتح بيوت السلاح التي كانت للمسلمين (٢٩) .

ولما وصل هذا الجيش الى مصر ، تولى قيادته عبد الله بن سعد بن أبي السرح وضم اليه المجاهدين من جنود مصر ومن معهم ممن يعاونهم حتى وصل عدد الجيش الى حوالي عشرين ألفا (٣٠) وبدأ في بث سراياهم لغزو آفاق افريقية دون أن يتوقف لحصار طرابلس أو قابس - على أساس أن هدفه الاساسى كان اللقاء مع البيزنطيين المتمثلين في جرجير وجيوشه والتقى عبد الله وجرجير في وضح النهار في موضع يعرف بسببيلة وكان عدد جيش العدو حوالي مائة وعشرين ألفا (٣١) .

حقق المسلمون انتصارا باهرا في هذه المعركة ، وقتل جرجير قائد الروم ، وغنم المسلمون غنائم جمّة ، وذلك في عام ٢٨ هجرية . وتنسب الرواية الاسلامية كبير فضل في هذه المعركة الى عبد الله ابن الزبير رضى الله عنهما ، ولقد أفرد الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم لذلك دراسة ممتعة ضمن كتابه القيم عن المغرب

(٢٨) انظر الطبرى ، المجلد الثالث ، ج ٥ صفحة : ٥٠ وابن كثير في البداية والنهاية ج ٧ صفحة : ١٦٦ وكذلك محمد على مغربى - عثمان بن عفان صفح : ٦٩ - ٧٠ الطبعة الاولى ١٩٨٤ م . والشيخ محمد الخضرى اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء صفحة ١٨٩ دار الفكر بيروت . أنهى من تأليفه عام ١٣١٦ هـ .

(٢٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر صفحة : ٣٥ . ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٩ .

(٣٠) ابن عذارى ج ١ صفحة : ٩ .

(٣١) اليعقوبى - تاريخ اليعقوبى ج ٢ صفحة : ١٦٥ ابن عذارى

ج ١ صفحة : ١٠

الكبير (٣٢) •

وعاد عبد الله بن الزبير الى المدينة مبشرا بانتصار المسلمين وحمل نصيب بيت مال المسلمين الى الخليفة عثمان رضى الله عنه •

وبعد هذا الانتصار الحاسم على البيزنطيين الذى يرى فيه الدكتور حسين مؤنس انه كسر سلطان البيزنطيين كسرة لن يعود بعدها الى ما كان عليه قبل الفتح الاسلامى • ثم يستطرد قائلا ولو أن عبد الله بن سعد بن أبى السرح أقام فى البلاد أو ترك فيها حامية لكان لانتصار سبيطة نتائج بعيدة حاسمة لكنه عجل بالعودة لاسباب غير ظاهرة - مكتفيا بمال عظيم جمعه من أهل البلاد ، فكان على من أتى بعده أن يبدأ من جديد (٣٣) •

أما الدكتور عبد العزيز سالم ، فانه يرى أن عبد الله بن سعد بعد أن استولى على سبيطة ، فانه أراد استغلال النصر فى الاستيلاء على قرطاجنة ، وأنه بث جيوشه فى البلاد ، فبلغت قفصة ، فسيبوا واغتنموا وسير عسكرا الى حصين الاجم وفتحوه ولما رأى رؤساء المبدن فى افريقية ذلك ، طلبوا من عبد الله بن سعد الصلح على أن يدفعوا له مبلغا كبيرا من المال ، ومن ناحية أخرى فان أنباء مزعجة عن تحركات الروم كانت قد بدأت تساوره ، وغيبته الطويلة عن مصر وفقده لعدد كبير من جنوده فى معركة سبيطه ، ذلك كله كان الدافع الذى جعله يعود الى مصر وأنه وإن لم يتخذ قرونا أو قاعدة فى هذه المنطقة الا أن غزواته هذه كانت تجربة مفيدة للمسلمين (٣٤) •

(٣٢) أورد ابن كثير وصفا مسهيا لحالة المسلمين فى المعركة ، وموقف عبد الله ابن الزبير فيها • انظر البداية والنهاية ج ٧ صفحة : ١٦٦ وكذلك المسيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير ج ٢ صفحة ١٥٢ - وانظر أيضا كتاب الشيخ محمد الخضرى ، لتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء صفحة : ١٨٩ - ١٩٠ •

(٣٣) حسين مؤنس - فجر الاندلس صفحة : ٢٧ •

(٣٤) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ١٧٣ - ١٧٤ • وانظر كذلك شكوى • فيصل : حركة الفتح الاسلامى صفحة :

وقبل أن تنتقل الى المرحلة القادمة من الدراسة فاننا نود أن نشير الى ملحمة خالدة قادها القائد المسلم عبد الله بن سعد وكان مجالها البحر هذه المرة مما يدل على عظمته وقدراته العسكرية سواء على البر أو في البحر ، وهذه الملحمة هي المعركة الخالدة « ذات الصواري » التي وقعت في حدود عام ٣٤ هـ . بين الأسطول الاسلامي وأسطول البيزنطيين وانتصر المسلمون فيها انتصارا باهرا حينما نجحوا في تحويلها الى شبه معركة برية عن طريق جذب سفن الاعداء بالخطاطيف ولصقتها بسفن المسلمين ثم الهجوم عليها ، وربط سفن المسلمين بعضها ببعض بالسلاسل مما منع البيزنطيين من اختراقها ويشير الدكتور احمد مختار العبادي الى أن هذه المعركة قد وقعت بالقرب من سواحل الاناضول الذي يزخر بغابات السرو والارز التي تستخدم في صناعة السفن مما يبين أهمية هذه الاماكن لكل من المسلمين والبيزنطيين (٣٥) . هذا وقد اورد ابن كثير وصفا دقيقا مؤثرا عن المعركة فيقول : قصد الروم المسلمين في جمع لهم ير مثله منذ كان الاسلام خرجوا في خمائة مركب وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبي السرح وأصحابه من المسلمين الذين ببلاد المغرب ، فلما تراءى الجمعان ذات يوم بات الروم يقسقسون ويصلبون (*) وبات المسلمون يقرأون ويصئون ، فلما أصبحوا ، صف عبد الله بن سعد أصحابه صفوفنا في المراكب وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن ، قال بعض من حضر ذلك : فاقبلوا اليها في أمر لم يرد مثله من كثرة المراكب وعقدوا صواريخها ، وكانت الريح لهم وعلينا ، فأرسينا ثم سكنت الريح علينا فقتلنا لهم : ان شئتم خرجنا نحن وأنتم الى البر ، فمات الاعجلون منا ومنكم ، قال : فنخروا نخرة رجل واحد وقالوا الماء الماء .

قال : فدنونا منهم . وربطنا سفننا بسفنهم ، ثم اجتلدنا واياهم بالسيوف ، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر وضربت

(٣٥) العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس صفحة : ٣٧ .

(*) أي أن البيزنطيين يتلون كلمات التساوسة ، ويشيرون

بالصليب طالبا للنصرة على المسلمين .

(م ٣ - الفتح الاسلامي للاندلس)

الامواج في عيون تلك السفن حتى ألجأتها الى الساحل وألقت الامواج جثث الرجال الى الساحل حتى صارت مثل الجبل العظيم وغلب الدم على لون الماء ، وصبر المسلمون يومئذ صبرا لم يعهد مثله قط ، وقتل منهم بشر كثير ، ومن الزوم اضعاف ذلك . ثم أنزل الله نصره على المسلمين فهرب قسطنطين وجيشه وقد قتلوا جداً - وبه حراشات شديدة مميّنة ، مكث حيناً يداوى منها بعد ذلك - وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري أياما ، ثم رجع منصرفا مظهرا . (٤٢) .

الرحلة الثالثة : حملة معاوية بن حديج .

انقضت سنوات طويلة قبل أن تبدأ هذه المرحلة شغل العالم الاسلامي خلالها بأحداث شديدة أدت الى استشهاده خليفته المسلمين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وقيام الحرب بين على بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان ، مما ترتب عليه توقف الفتوحات الاسلامية في افريقية ، بل وضياع مكاسب المسلمين هناك اللهم الا ما اكتسبوه من خبرة ومعرفة بهذه المناطق ، وما تركوه هناك من بذور طيبة للديانة الاسلامية .

وحينما استقرت الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ، وتنازل الحسن بن على عنها ، وعاد المسلمون الى الجماعة والوحدة ، أعاد عمرو بن العاص مرة ثانية لولاية مصر ، لكن الامور بالنسبة اليه كانت مغايرة لما كان عليه الحال في المرة الاولى ، فرغم أنه لم يهمل افريقية تماما ، الا أنه اكتفى بتجريد بعض الحملات والسرايا حيث يورد الدكتور عبد العزيز سالم ، نقلا عن المؤرخين المسلمين أن عمرو أرسل عقبة بن نافع لقتال لواتة ومزاقة ، كما أنه غزا بعض الاقاليم الجنوبية (٣٧) .

وحين توفي عمرو بن العاص ، قرر الخليفة معاوية بن أبى سفيان فصل ولاية افريقية عن ولاية مصر ، وجعلها تابعة للخلافة مباشرة

(٣٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ صفحة : ١٧٢ .

(٣٧) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ١٧٥ .

ففى سنة ٤٤ هجرية حدث ذلك التطور الخطير فى علاقة المغرب بالخلافة الإسلامية ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب ولاية مستقلة تابعة للخلافة رأسا ، وكان معاوية بن حديج أول وال إسلامى عين على أفريقية (٣٨) .

تجمع الروايات التاريخية على اهتمام الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه بأمر أفريقية ، وأنه طلب من ابن حديج مواصلة الجهاد فى أفريقية ، وأمدّه بعدد كبير من المقاتلة منهم الكثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبناء صحابته الميامين أمثال عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، وعبد الملك بن مروان ، وغيرهم .

خرج ابن حديج فى جيش كبير حتى وصل الى جنوب قرطاجة فى موضع يعرف بقونية ، وهو المكان الذى سوف تنشأ عليه قيروان المسلمون فيما بعد كما أنه المكان الذى سبق فيه قتال المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد للبيزنطيين بقيادة جرجير وهناك التقى مع الجيش البيزنطى بقيادة نفقور ، فانهزم البيزنطيون عنده أول اشتباك وانسحبوا الى مدينة سوسة وتحصنوا الى داخل أسوارها ، ويؤكد الدكتور حسين مؤنس أن الرعب قد وقع بالبيزنطيين ولذئك غانهم بعد مناوشات قليلة مع المسلمين ألقوا من سوسة الى صقلية ، واستولى المسلمون على سوسة (٣٩) . ويرى الدكتور عبد العزيز سالم أن ابن حديج سير جيشين : أحدهما بقيادة عبد الله بن الزبير ووجهته سوسة ، والثانى بقيادة عبد الملك بن مروان ، ووجهته حصن جلواء . وظل هو معسكر فى منطقة اثنى قرن مدة طويلة ، حتى يقال أنه قد بنى مساكن سماها قيروان ، واحتقر هناك الآبار المعروفة باسم آبار معاوية بن حديج (٤٠) .

(٣٨) حسين مؤنس : فجر الاندلس صفحة : ٣٨ . وعبد العزيز سالم ،

المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ١٧٦ .

(٣٩) حسين مؤنس : فجر الاندلس صفحة : ٣٩ .

(٤٠) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ١٨٣ .

تمكن المسلمون في هذه الغزوة من فتح سوسة وجلولاء وكذلك من الاستيلاء على بنزرت وجزيرة جربة ، وهناك اشارات الى قيام معاوية من حديج بارسال أسطوله في هذه الفترة لغزو جزيرة صقلية ، لكن معظم الدراسات الحديثة لا تميل الى تصديق هذه الرواية (٤١) .

لم تفتح الفرصة لمعاوية بن حديج لاستكمال فتح افريقية اذ عزله الخليفة معاوية بن أبي سفيان عن قيادة الجند في افريقيا عام ٤٨ هـ . وعين بدلا منه القائد المجاهد عقبة بن نافع الفهري الذي تعتبر ولايته تعبيرا عن نظرة الخلافة الاسلامية الجديدة الى الفتوحات في افريقية ، وأنه قد آن الاوان - لاستقرار المسلمين الدائم هناك ، مما يدل على أن عزل معاوية بن حديج لم يكن راجعا الى نقص أو تقصير ، وانما كان اختيار عقبة بن نافع مؤشرا لتطور جديد في استراتيجية الفتح في المغرب ، ونابعا من قناعة تامة بأن القائد الجديد وليس غيره رجل المستقبل في مرحلة انتهت بها حرب الاستنزاف والسرايا العادية ، لتبدأ مرحلة ذوى الكفاءات والأمنية العسكرية من فرسان هذه الجهة الموهوبين (٤٢) .

المرحلة الرابعة : عقبة بن نافع الفهري في ولايته الاولى (٥٠ - ٥٥ هـ) .

يجمع المؤرخون على أن بداية ولاية عقبة بن نافع الفهري تمثل مرحلة جديدة من مراحل الجهاد الاسلامي في منطقة المغرب ، وكان اختيار

(٤١) انظر في ذلك . حسين مؤنس ، فجر الاندلس صفحة ٣٩ وعبد العزيز سالم في المغرب الكبير صفحة : ١٨٥ - ١٨٦ . وابراهيم بيضون في الدولة العربية في اسبانيا صفحة : ٣١ - ٣٢ ومع ذلك فقد مال الى تصديقتها الدكتور احمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والاندلس صفحة : ٣٨ . وكتابه دراسات في تاريخ المغرب والاندلس صفحة ٦ - ٧ اعتمادا على كثير من المصادر التاريخية .

(٤٢) ابراهيم بيضون : الدولة العربية في اسبانيا الصفحات ٣٢ - ٣٣ اعتمادا على كثير من المصادر التاريخية .

معاوية لعقبة اختيارا موفقا جدا ، نظرا لتاريخه الطويل وخبرته العميقة في شئون هذه المنطقة ، فهو واحد من أوائل المجاهدين حيث كان من قادة عمرو بن العاص في حملته الأولى على برقة ، وكان عمره حينذاك في حدود الرابعة عشر عاما ، وأنه ظل مرابطا هناك بعد عودة عمرو بن العاص الى مصر ، وخلال ذلك شارك في كافة مراحل الكفاح في المنطقة ، ففي حملة عمرو بن العاص على طرابلس كان عقبة على رأس الجيش الذي أخضع قبيلة لواتة بتلك النواحي . كذلك انضم عقبة الى حملة عبد الله من سعد بن أبي السرح وتشير المصادر الى أنه في الوقت الذي كان فيه معاوية بن حديج يرسل الصرايا الى الاقاليم الشمالية الساحلية في سوسة وبنزرت وقابس ، كان عقبة بن نافع يخارب في الصحراء الجنوبية في فزان وودان وما وراءها من الواحات الجنوبية (٤٣) .

بالإضافة الى ذلك ، ركز المؤرخون على ما كان يتصف به عقبة ابن نافع من تقوى ووزع شديدين ، فهو عند الدكتور حسين مؤنس « وكان في نفسه رجلا شديدا الايمان تميل نفسه الى نشر الدين (٤٤) وعند العبادي » كان رجلا مرابطا مجاهدا في سبيل الله لدرجة أن بعض الروايات جعلت منه بطلا أسطوريا بل قطبا عارفا مستجاب الدعوة (٤٥) وعند الدكتور عبد العزيز سالم ، من أكابر التابعين وأفاضلهم (٤٦) .

هو عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري ، ولد قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعام واحد (٤٧) ويرى الدكتور سالم أنه قد ولد على عهد الرسول عليه السلام ، على أساس اشتراكه في فتح مصر وأقليم برقة وطرابلس ، وأن عمرو كان يقدر بلاءه ، ويرفع

(٤٣) مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس صفحة : ٣٨ - ٣٩

(٤٤) حسين مؤنس : فجر الاندلس صفحة : ٣٩ .

(٤٥) العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس صفحة : ٣٩ .

(٤٦) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ١٩١ .

(٤٧) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٩ .

منزلته ، ويثق في كفايته ، ويجعله قائداً وليس من المعقول أن يكون ذلك لشاب لم يجاوز العاشرة (٤٨) .

وتعتبر ولاية عقبة بن نافع على افريقية بداية استقرار لفتوحات المسلمين هناك . ولقد طال الزمن بعقبة بن نافع وهو يتربص الفرصة ليستأنف فتوحاته التي بدأها منذ حملة عمرو من العاص الاولى في فزان وودان وما يجاورها من جوف الصحراء . ولا نزاع في أن طول عهده بافريقية ، وكثرة اشتغاله بحروبها قد مكنه من تكوين فكرة واضحة عن هذه البلاد التي جال ربوعها ، وتعرف على الكثير من أخلاق وعادات أهلها ، وتأكد أن فتح افريقية والمغرب لا يثبت الا بأميرين أساسيين : أولهما انشاء مركز للمسلمين تعسكر فيه جيوشهم ، ويأمنون فيه على نساءهم وذرائعهم وأموالهم ومنه يخرجون للغزو بدلا من العودة في كل مرة الى فسطاط مصر . أما ثانى الامرين فهو غزو البربر أنفسهم ، والتوغل في قلب بلادهم ، وأدراكهم في منازلهم سواء في الهضاب أو في الجبال ، دون الانتصار على غزو مدن الساحل ، ثم العودة الى الفسطاط ، لانه - كما سبق القول - بعودة المسلمين الى مصر تعود الامور في افريقية الى ما كانت عليه لاتصال هذه المناطق عن طريق البحر بالبيزنطيين وتتلقى منهم الامدادات الدائمة ، وكانوا كما وصفهم المؤرخون المسلمون « اذا دخل عليهم أمير أطاعوا ، وأظهر بعضهم الاسلام ، فاذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم والى هذا المعنى أشار عقبة بن نافع (٤٩) .

تلك كانت الخطة التي وضعها عقبة بن نافع ، وأراد أن ينفذها على مرحلتين ، لكنه اذا كان قد نجح في أن ينفذ المرحلة الاولى ببناء القيروان ، فانه ما كاد يشرع في العمل في المرحلة الثانية حتى رأت الخلافة أن تعهد بقيادة جيوش المسلمين في افريقية الى أبي المهاجر دينار ، مولى مسلمة بن مخلد الانصاري ، والى مصر حينذاك من قبل الخليفة معاوية بن أبي سفيان .

(٤٨) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ صفحة ١٩١ .
(٤٩) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ صفحة : ١٩ ، ابن الاثير الكامل في التاريخ . ج ٣٧ صفحة : ٢٣٤ .

أكثر

خرج عقبة الى افريقية في سنة ٥٠ هجرية في جيش تراوح
تعداداه ما بين عشرة آلاف على ما يذكر ابن عذارى (٥٠) أو أكثر من ذلك
على ما يذكر الدكتور السيد عبد العزيز سالم (٥١) ، وتجنب السير
على الطريق الساحلى المعروف والذي كان عليه اتجاه الحملات من قبل
واتخذ طريقا داخليا لعله يتمكن من مفاجأة البربر والسكان ، ومضى
يفتح الحصون والقصور ، ويضرب بين القبائل ، ويترك فيها من يحرسها
حتى وصل الى الموضع الذى سبق أن عسكر فيه من قبل قائد جيوش
المسلمين في افريقية معاوية بن حديج والذي يرى بعض المؤرخين أنه هو
أول من فكر في اتخاذ قاعدة للمسلمين في افريقية وأنه سبق له ،
أن اخط مدينة عند القرن قبل تأسيس عقبة للقيروان وأقام بها
اقامته بافريقية . (٥٢) ولكن عقبة عدل عن هذا المكان الى مكان
آخر أكثر عمقا في داخل الصحراء خشية تعرض مدينته الجديدة
لغارات البيزنطيين وقسالة ، انى أخاف أن يطرقها صاحب
القسطنطينية بغتة فيملكها ، ولكن جعلوا بينها وبين البحر مالا يدركه
صاحب البحر الا وقد علم به (٥٣) كما أنه اختار مكانا صالحا
للرعى ، يقول ابن عبد الحكم أن عقبة ركب « والناس معه حتى أتى موضع
القيروان اليوم ، وكان واديا كثير الشجر ، كثير القطف » (٥٤) .

باختط

شرع عتبة في تأسيس مدينته في عام ٥٠ هـ أو ٥١ هـ . فاختط
دار الامارة والمسجد وأقام حوله دور عسكره ، واستغرق بناء
المدينة ٤ سنوات كاملة مما جعل المؤرخين يعجبون من طول فترة البناء
خاصة وأن المسلمين كانوا وبسط محيط كبير من الاعضاء وأرجع المؤرخون
ذلك ، الى الظروف الأولية في هذه الفترة ، وخاصة ما كانت تمر به

-
- (٥٠) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ صفحة ١٩ .
 - (٥١) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٧ صفحة : ١٩٧ .
 - (٥٢) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية صفحة : ٥٤ .
 - (٥٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة ١٩ .
 - (٥٤) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية صفحة : ٥٤ . ابن عذارى -
البيان صفحة (٢٠) .

الامبراطورية البيزنطية من مدافعة المسلمين عنها في الشرق وما انتابها من أزمات داخلية (٥٥) .

عمرت القيروان بمختلف الابنية ، وأمها الناس من جميع الجهات وقامت بها الاسواق ، وبيالغ ابن عذارى في وصفها وعدد دورها فيقول : ثم أخذ الناس في بناء المساجد والمساكن ، وعمرت ، وثشد الناس اليها المطايا من كل أفق ، وعظم قدرها ، وكان دورها ثلاثة عشر ألف ذراع ، وستمائة ذراع حتى اكتمل أمرها . (٥٦) .

وأصبحت المدينة هي قاعدة المسلمين الاساسية في كل ما هو غرب مصر وترتب على ذلك ظهور هذه المنطقة كولاية لها أهميتها ، مما أكد نظرة الخلافة الخاصة بضرورة فصلها عن مصر ، كما جعلت الجهاد فيها مطمحاً يمكن أن يسجل أسماء القائمين عليه في هذه المنطقة في سجل الخالدين .

ومن أجل ذلك سعى مسلمة بن مخلد الانصارى والى مصر لئلا تكون له السيطرة على هذه المنطقة بالإضافة الى مصر واستغل في ذلك صلته الوثيقة بالخليفة معاوية بن أبى سفيان الذى استجاب لآرائه وعزل عقبة بن نافع الفهري عن ولاية افريقية وضمها الى مسلمة بن مخلد الذى أصبح بذلك أول وال ضمت اليه ولاية مصر والمغرب (٥٧) ، وقام مسلمة بتعيين مولاة أبا المهاجر دينار على افريقية .

المرحلة الخامسة : أبو المهاجر دينار ٥٥ - ٦٢ هـ .

تولى أبو المهاجر ادارة شئون جند المسلمين في افريقية من سنة ٥٥ الى سنة ٦٢ هـ ، أى حوالى سبع سنوات الى أن عاد عقبة بن نافع

(٥٥) ابراهيم بيمون : الدولة العربية في اسبانيا صفحة : ٣٤

(٥٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٢١ .

(٥٧) ابن عبد الحكم : فتوح افريقيا والاندلس صفحة : ٥٥ . وابن

عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٢١ ويؤكد ذلك أيضا الدكتور

عبد الله أنديم الطباع نقلاً عن ابن الأبار في كتابه الحلة السيرة . انظر

فتوح افريقية صفحة ٢٢ التعليق رقم / ١ .

مرة ثانية الى افريقية . وربما كان ذلك سببا في اهمال بعض المؤرخين لهذه الفترة من جهاد المسلمين في المغرب وأنصارهم عنها ، وذلك لتتبعهم أعمال عقبة بن نافع مما جعلهم يعبرون فترة أبي المهاجر مسرعين .

لم يكن أبو المهاجر دينار أقل كفاءة من عقبة بن نافع فهما ينتميان الى مدرسة واحدة هي مدرسة الاسلام ، وتعلم فيهما الاثنان معنى الجهاد والتضحية في سبيل الله ورغم كل ما أثاره بعض المؤرخين من خلاف بين القائدين أو ما حدث بينهما من اساءة فانتسا نجاهما يشتركان في هدف واحد هو العمل ما أمكنهما على نشر كلمة الله سبحانه وتعالى في المغرب ، وإن اختلف أسلوب كل منهما في تأدية هذا الواجب .

لقد كان عقبة عسكريا صرفا تميل طبيعته الى حسم الأمور مستخدما سيفه وجنده ، بينما كان أبو المهاجر رجلا سياسيا محنكا ، استخدم السيف حين كان له ضرورة وأعمل فكره لكي يتمكن من قلوب بعض البربر ويضمهم الى الاسلام ويخرجهم من ساحة الاعداء الى ساحة المحايدين ان لم يكونوا معاهدين .

كان ابو المهاجر أول قائد مسلم يقدر له أن يخرج من سهل تونس ليتوغل في هضاب المغرب الاوسط ، ويهاجم القبائل البربرية في مواطنها الحصينة ، ويوجز ابن عبد الحكم حديثه عن أبي المهاجر فيقول فاما قدم افريقية كرهه أن ينزل في الموضع الذي اختطه عقبة بن نافع ومضى حتى خلفه بميلين فبنى ونزل ، وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون افريقية ثم يقفلون منها الى الفسطاط ، وأول من أقام بها حين غزاها ، أبو المهاجر مولى الانصار ، أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلا (٥٨) .

وتفسيرنا لتخطى أبي المهاجر دينار قيروان عقبة بن نافع واتخاذها مكانا يبعد عنه ميلين هو أن أبا المهاجر أراد الاقتراب

(٥٨) ابن عبد الحكم : فوج افريقية والاندلس صفحة : ٥٦ - ٥٧

أكثر من مواقع قتاله ، وليس كما يذهب بعض الباحثين كراهة لما بناه عقبة بن نافع ، والله أعلم (٥٩) .

خرج أبو المهاجر على رأس قواته يفتتح ما يمر به من بلاد حتى وصل الى مكان تكثر به العيون بالقرب من تلمسان وتعرف هذه هذه العيون باسم عيون أبي المهاجر ، ومن هناك زحف الى قبيلة أوربة أقوى قبائل بربر البرانس ، وكان زعيم هذه القبيلة هو كسيلة بن لزوم الأوربي ، فانتصر عليه أبو المهاجر وظفر به ، وعرض عليه الاسلام فأسلم ، وأحسن اليه أبو المهاجر واستبقاه (٦٠) . وأسلم معه كثير من قومه ، ونجح أبو المهاجر بفضل مؤازرة كسيلة له في الاستيلاء على تلمسان ، وبهذا يعتبر أول أمير مسلم وطئت خيله أرض المغرب الأوسط ، وتدل نتائج هذه الحملة على مقدرته السياسية وكياسته في كسب زعيم بربر أوربة الى جانب المسلمين (٦١) .

ويذكر المؤرخون لابي المهاجر دينار حملة أخرى ضد الروم في هذه المرة بعد أن كانت حملته الاولى ضد البربر ، حيث اتجه الى قتال قرطاجنة عاصمة الروم في افريقية وكان القتال شديدا بين الفريقين ، وكثر القتل بين الناس ، واستمرت المعركة يومين وبعدها صالح أبو المهاجر أهل قرطاجنة على أن يتنازلوا له عن جزيرة شريك ، وهي نتوء بارز في البحر يشرف على قرطاجنة وما وراءها من ولاية افريقية ، وفي هذا دليل واضح على بعد نظر أبي المهاجر فهو قد وضع الأرض كشرط للصالح بدلا من المال ، وفي هذا تمكين للمسلمين في هذه البلاد ، كما أن هذه المنطقة ذات أهمية حربية كبرى يستطيع أن يحمي ما وراءه من أقطار ، ويرد غارات الروم المفاجئة من البحر (٦٢) .

-
- (٥٩) انظر تحليل الدكتور عبد العزيز سالم لهذه الواقعة في كتاب المغرب الكبير صفحة : ٢١٣ - ٢١٥ .
- (٦٠) ابن عذاري البيان المغرب ج ١ صفحة : ٣٨ - ٣٩ .
- (٦١) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ صفحة ٢١٩ صفحة ٢١٩ حسين مؤنس . فجر الاندلس صفحة : ٤٠ .
- (٦٢) شكري غيصل : حركة الفتح الاسلامي . صفحة : ١٦٦ - ١٦٧

وعاد أبو المهاجر دينار الى معسكره ليقيم لقبه حوالى العام وفى هذه الاثناء كانت الظروف السياسية فى عاصمة الدولة الاسلامية قد تغيرت، فمات الخليفة معاوية سنة ٦٠ هـ . وتولى بدلا منه ابنه يزيد الذى استجاب الى شكايات عقبة بن نافع ورغبته فى العودة الى موطن جهاده فعزل الخليفة أبا المهاجر دينار وولى مكانه عقبة بن نافع وذلك فى حدود عام ٦٢ هـ .

الرحلة السادسة : عقبة بن نافع فى ولاية الثانية ٦٢ - ٦٤ هـ .

يمكن لنا أن نتصور مشاعر عقبة بن نافع مع عودته الى القيادة فى افريقية ، لقد كان أحد أسباب عزله عن افريقية اتهامه بالتقصير فى الجهاد والحرب واضاعة الوقت فى بناء القيروان ، ولعل ذلك الأقول ، وغيره مما لم يكن له أساس من الصحة قد بعث فى عقبة الكثير من الافكار التى قد لا تؤدى الى نتائج مرضية ، فهو قد عاد ونفسه محملة بفكرة خوض المعارك أيا كان موقعها ، وأن يثبت عكس ما تقول به عليه ، ونتبين خطته الجديدة حين وصوله الى القيروان مع من صحبه من صحاب رسول الله والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، فانه يعيد العمران الى مدينته ، ويدعو لها قائلا يارب املاءها علما وفقها ، واملاها بالمطيعين لك ، واجعلها عزا لدينك ، وذلا على من كفرك (٦٣) . ثم يعزم على الغزو فى سبيل الله ، فيترك حامية صغيرة فى المدينة برئاسة زهير بن قيس البلوى - الذى يماثله صلاحا وورعا ، ويجمع عقبة أولاده ليقول لهم « أنى قد بعث نفسى من الله عز وجل وعزمت على من كفر به ، حتى أقتل فيه والحق به ، ولست أدري أترونى بعد يومى هذا أم لا ؟ . لان أملى الموت فى سبيل الله » (٦٤) .

كانت هذه هى المشاعر التى تنتاب عقبة رضى الله عنه ، ومن هنا رفض سياسة أبى المهاجر القائمة على اصطناع البربر والتقرب

(٦٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٢٣ .

(٦٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٢٣ - ٢٤ .

منهم ، بل انه سجن أبا المهاجر وكسيلة وحملهما معه مقيدتين بالحديد في غزوته الكبرى التي قطع فيها كل المغرب الأوسط والأقصى حتى وصل طنجة ، ومنها الى السوس الأدنى ، حتى خاض بفرسه في مياه المحيط ، فأقحم فرسه فيه حتى بلغ الماء نحره ، ثم قال « اللهم انى أشهدك أن لا مجاز ولو وجدت مجازا لجزت » (٦٥) .

ويبين لنا ابن عذارى في تصوير واضح حالة عقبة بن نافع النفسية التي ملأت عليه نفسه ، وهى حبه للجهاد والقتال ، والتقدم الى أقصى ما يمكن الوصول ، دون توخى الحذر وأورد فقرات من هذا النص لاهميته ، وللنتائج الخطيرة التي تترتبت على تلك الغزوة فيصف لنا غزوات عقبة بعد أن أوصى أولاده بقوله « خرج رحمه الله غازيا للاروم والبربر وهم اذ ذاك مجوس ونصارى ، وذلك بمدينة باغاية وقرطاجنة وما والاها . فهزمهم ، وقتلهم تقتيلا وغزوته الى مدينة باغاية فلم ير المسلمون في مغازيهم أصلب منها ، . . . فحضر الى مدينة المنستير ، وكانت في ذلك الزمان من أعظم مدائن الروم وغزوته بالزاب وقتاله اياهم على وادى المسيلة . . . وغزوته بتيهت . . . وغزوته أيضا الى طنجة ، وذلك أنه لما توالى الهزائم على نصارى افريقية وبربرها وكثر القتل فيهم حتى كاد يستأصلهم لجأ من بقى منهم الى الحصون والمعقل ، فلم يبرجوها فكره المقام على محاصرتهم ، فيفوته الغزو وقتل غيرهم من الطوائف الكفار اذ كانت أمم المغرب من نصارى وبربر لا يحصون كثرة وانتشارا - ولا يكتاثرون بالرمل والحصى - فترك أهل افريقية متحصنين بحصونهم وأوغل في الغرب ، يقتل ويأسر أمة بعد أمة ، وطائفة بعد طائفة بائعا نفسه عن مولاه ، لا تروعه كثرة ولا تعقره هو ومن معه سامة ولا فترة حتى صار بأحواز طنجة (٦٦) .

وفي غمرة هذا الحماس ، والانغماس في محاولة تحقيق نصر حاسم على البربر والروم ، يهرب كسيلة زعيم البربر ، ويرتد عن الاسلام ،

(٦٥) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية صفحة : ٦٠ .

(٦٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٢٥ - ٢٦ .

ويتجمع حوله البربر من جديد ويعود التحالف القديم بين البربر والبيزنطيين وساعد على ذلك سياسة التسامح الديني التي اتبعتها الامبراطورية العتيقة في عهد قسطنطين الرابع ٦٦٨ - ٦٨٥ م . (٦٧) . وتربص الخطر بعقبة والمسلمين في طريق عودتهم دون أن يشعروا به ، فلقد كانت انتصاراتهم الكبيرة وغزواتهم الموفقة مما يوحى للنفس بالامان والاطمئنان ، ولم يكن الامر كذلك .

بدأ عقبة بن نافع رحلة العودة الى القيروان بعد أن أرضى نفسه ، وكان جيشه قد تناقص كثيرا في القتال ثم أنه صرف أعدادا كبرى منه لتسبقة الى القيروان ربما لان اخبارا مقلقة قد وصلتته على ما يرى الدكتور العبادي (٦٨) أو لانه قد اطمأن الى ما أنجزه في المغرب الاقصى كما يرى الدكتور بيضون (٦٩) .

ويرجع ابن عذاري تصرف عقبة الى ثقته الكاملة واطمئنانه لنتائج حروبه السابقة ، فيقول : لما وصل الى مدينة طنبسة أمر أصحابه ، فتقدموا ثقة منه بما دوح من البلاد وأنه لا يقوم له أحد ، لينفذ قدر الله ومراده ، ويتعجل لعبده من كرامته ميعاده . فينصرف أصحابه الى منازلهم عند قربهم منها وسبار هو الى مدينة تهودة لينظر فيمن يصلح لها من الفرسان ، فلما انتهى اليها بقيية من كانوا معه وكانوا قليلا (٧٠) .

عند وصول عقبة ومن معه ، وكانوا حوالي خمسة آلاف ، الى مدينة تهودة فاجأهم كسيلة البربري في جيش ينيف على خمسين ألفا أو يزيد ، ولم يكن بد من القتال في وقت غير ملائم وبموازين عسكرية

-
- (٦٧) شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي صفحة ١٦٧ .
 (٦٨) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والانطلس صفحة : ٤١
 ويوافقه على ذلك د . السيد عبد العزيز سالم . انظر كتابه المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ٢٢٧ اعتمادا على اقوال ابن عذاري ج ١ صفحة : ٢٨ .
 (٦٩) ابراهيم بيضون : الدولة العربية في أسبانيا .
 (٧٠) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٢٨ .

غير متكافئة ، وكان على المسلمين ، رغم شدة تعبهم ونصبهم أن يخوضوا حرباً ضد عدو يفوقهم عدداً وعدة ولم يكن من سييل إلا احدى الأحسنين أما النصر وأما الشهادة وقاتلوا قتال الأبطال ، وتساقط الشهداء ، ويرى القائد المسلم أن لا أمل في النصر ، فيأمر بفك قيود أبى المهاجر دينار ويطلب منه أن يلحق بالناس في القيروان ، لكن متى كان المسلم حقاً ينجو بنفسه ويترك أخاه في معصية انقتال ، ولقد كان أبو المهاجر مسلماً ، فظل الى جوار قائده الى أن استشهدا معا وأيديهما على سيفيهما الى جانب الآلاف من جنودهما الذين قتلوا الاستشهاد ورووا أرض تهودة بدمائهم الزكية .

وهناك رواية أخرى تدل على ما كان يتمتع به قائد المسلمين من روح تطو على كل حزازات شخصية ، وتقسامى الى تلك المكانة العالية التى خلقتها الاسلام في النفوس ، ومفاد هذه الرواية أن أبى المهاجر رضوان الله عليه كان مقيداً بالحديد حين المعركة وكم ألم ذلك نفسه ، فهتف قائلاً :

كفى حزناً ان ترتدى الخيل بالقننا

واترك مشدوداً على وثاقيه *

فلما سمع عقبه بذلك أمر بفك قيوده ، واشترك أبو المهاجر في القتال الى أن لقي ربه مع جنود المسلمين في هذه المعركة .

لقد انجأت معركة تهودة عن هزيمة قاسية للمسلمين ، وفقدانهم لاثنتين من كبار قادتهم ، كما كان لها نتائج سيئة جداً ، وبعداً خطيراً أضاع على المسلمين كفاح ما يقرب من أربعين عاماً .

لقد انتشى كسيلة بنصره ، وتقدم ليحتل القيروان المسلمين الذى سبق أن رحل عنه زهير بن قيس ، وانسحب بمن معه من القتاتلين

(*) روى القاضى أبو يوسف رحمه الله في كتابه « الخراج » أن أبى محجن كان سجيناً عند سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أثناء معركة القادسية وأنه أنشد هذا البيت لكى يطلق سراحه ، على أن يعود الى القيد بعد المعركة « انظر ص ٣١ من كتاب الخراج » .

الى برقة ، وعادت افريقية كما كانت ، الا من دخل في الاسلام من البربر ، ويرى الدكتور حسين مؤنس ، أن الهزيمة لم تكن قاضية على كل أثر للأدسلمين في البلاد إذ أن افريقية تضم اذ ذاك جماعات اسلامية قوية في القيروان وما حولها وفي بعض نواحي الاوراس ، وقد خضعت هذه الجماعات لكسيلة ، ولكنها ظلت تتربص عودة المسلمين (٧١) .

ويتأكد هذا الرأي حينما نرى كسيلة يحسن معاملته مسلمي القيروان لعلمه بأن المسلمين لن يتركوها وسيعودون اليها ثانية ، ثم نراه بعد ذلك يرحل عنها ويعود ادراجه الى بلده ممس خوفًا من وثوب المسلمين عليه في القيروان .

ويعلق الدكتور شكري فيصل على هذه المعركة بقوله : وكانت مأساة تهودة هي أقسى ما لقي المسلمون من هزيمة في فتوح المغرب وقد تكون أقسى ما لقيوا في الفتوح الاخرى ، فلم نشهد الا مرة واحدة في فتوح طبرستان حين هلك جيش مصقلة ، أن الجيش قد فنى كله ، ولم نشهد مرة أن حركة الارتداد شملت الاقطار المفتوحة بمثل هذه السعة الواسعة من طنجة الى القيروان أو برقة .

لقد خرجت افريقية من يد الجيش الاسلامي ، ولكنها لم تخرج من يد المسلمين فقد كانت أسلمت بعض قبائل البربر ، وكانت بقية في برقة تنتظر ساعة الثأر ، وكان لا بد من جولة جديدة (٧٢) .

ونختتم الإشارة الى أثر هذه المعركة بالتعليق الذي أورده الدكتور السيد عبد العزيز سالم : ودوي خبر مقتل عقبة في افريقية والمغرب دويًا هائلًا ، وكان له أثر عميق في نفوس المسلمين ، وكان كسيلة قد زحف بجيوش لا حصر لها من البربر والروم الى القيروان « فانقلبت - افريقية قارًا » وعظم البلاء على المسلمين » (٧٣) .

(٧١) حسين مؤنس : فجر الاندلس صفحة : ٤١ .

(٧٢) شكري فيصل : حركة المفتوح الاسلامي صفحة : ١٧٠ .

(٧٣) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ٢٢٩ .

الرحلة الثانية : زهير بن قيس البلوي ٦٩ - ٧٠ هـ .

انسحب زهير ببقياس المسلمين من القيروان ، وأقام في برقة أكثر من ٤ سنوات ينتظر ما تنجلي عنه الاحداث في عاصمة الخلافة الاسلامية وسيطر كسيطة على كل افريقية والمغرب .

في ذلك الوقت كانت الدولة الاسلامية في دمشق تشهد أياما عصيبة ، فلقى دعا عبد الله بن الزبير رضى الله عنه الى نفسه وأرسل يزيد جيوشه لمحاربته ، وتعرضت مدينة رسول الله لموقعة الحرة ، واتجهت جيوش يزيد لمحاصرة عبد الله بن الزبير في مكة . ومات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ . وتطورت الامور بعد وفاته تطورا خطيرا في خلافة ابنه معاوية الثاني التى لم تستمر لأكثر من ٤٠ يوما فلم يتمتع بالملك لرضه ولم يكن بد من انزوائه في داره حتى مات (٧٤) .

وعقد زعماء الاموية مؤتمرا بالجابية عام ٦٥ تناقشوا فيه أمرهم وبايعوا بالخلافة مروان بن الحكم الذى تمكن من الانتصار على جماعة عبد الله بن الزبير في معركة مرج راهط سنة ٦٥ هـ . واستطاع مروان بن الحكم ان يسترد مصر من عامل ابن الزبير ، ثم أرسل مروان جيشين أحدهما الى العراق والآخر الى الحجاز ، تمكن جيش الحجاز فيما بعد من هزيمة جيوش عبد الله بن الزبير . ومات مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ . بعد أن عهد بالخلافة من بعده لابنيه عبد الملك وعبد العزيز (٧٥) .

تمكن عبد الملك بن مروان من مواجهة كل الصعاب التى كانت تعترضه واستقر له أمر الخلافة ، وكان عليه ان لا ينسى ميدان جهاد المسلمين في أفريقية ، وهو ميدان شهد بعض جهاده تحت إمرة معاوية بن حديج ، واختار عبد الملك لذلك زهير بن قيس البلوي ، وذلك لتشابهه مع عقبة رحمه الله في الزهد والورع ، وصحابته اياه ، وأنه أقرب الناس اليه .

(٧٤) حسن إبراهيم : (الدكتور) تاريخ الاسلام ج ١ ص ٢٨٨ .

(٧٥) حسن إبراهيم : نفس المصدر ج ١ ص ٢٩٠ .

يروى ابن عذارى أنه لما ولي عبد الملك بن عبد سلطانه . اجتمع
أكابر المسلمين إليه ، وسألوه تخليص افريقية ، ومن بها من المسلمين
من يد كسيلة اللعين . فقال : « لا يصلح الاطاب بعدم عقبة من الروم
والبربر الا من هو مثله ديننا وعقلا ، » .

فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس اللبلى ، وقالوا : هذا
صاحب عقبة ، وأعلم الناس ، بسيرته ، وتديره ، ولولاهم بطلب
دمه ، (٧٦) .

كتب عبد الملك الى زهير بن قيس يأمره بجهاد البربر ، فرد عليه
زهير يعلمه بقله جنده وكثرة أعدائه ، فأمره عبد الملك بن مروان بالخيـل
والرجال والاموال ، وحشد اليه وجوه العرب ، وبعثهم اليه فوفدت
الجيوش على زهير ، وتسرع القناس معه الى افريقية (٧٧) . أما ابن
عبد الحكم فانه يروى أن عبد العزيز بن مروان والى مصر في تلك الفترة
هو الذى أمر زهيرا بالسير لقتال كسيلة (٧٨) .

كان زهير بن قيس قد صاحب عقبة بن نافع منذ عام ٤٣ هجرية
واشترك في فتوح افريقية منذ ذلك الحين ، وكان من كبار رجال عقبة
الذين يثق في كفايتهم فيوليه شأن القيروان أثناء قيامه بحملته الكبرى
على المغرب .

خرج زهير بالمعد الذى وصله من عبد الملك بن مروان ، وما أمكنه
تجنيد من عرب افريقية ، وتوجه في جيش كثيف للقضاء كسيلة عند
ممس ، وانتصر عليه انتصارا ساحقا ، وقتل كسيلة في المعركة ، ومعه
جموع كبيرة من البربر وتوغيل فرسان المسلمين في المغرب ، وينقل
لنا تعاليق السلاوى على هذه المعركة وهو « وفي هذه الواقعة ذل
البربر وفقدت فرسانهم ورجالهم ، وخضعت شوكتهم ، واضمحل أمر
الفرجة فلم يعد كما كان ، وخاف البربر من زهير والعرب خوفا

(٧٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٣١ .

(٧٧) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٣١ .

(٧٨) ابن عبد الحكم فتوح انريقية صفحة : ٦١ .

شديداً فلجئوا إلى القلاع والحصون وكسرت شوكة أوربة من بينهم ،
واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة وليلي ، (٧٩) .

عاد زهير بن قيس البلوى وجيشه إلى القيروان ، وترك من أراد
الإقامة وكان وجوده وجيشه في القيروان يثيران خوف البربر مما جعلهم
على حذر قول ابن عذارى يلجأون إلى الحصون والقلاع ولعل ذلك كان
سبباً في أن يعود زهير إلى برقة ، ومعه من أراد اصطحابه ، بعد
أن اطمأن إلى أنه قد أدى واجبه ، وانتقم لمصر عقبه ومن معه من
المسلمين ويقول عن ذلك ابن عذارى : ثم ان زهيراً رأى بافريقية
ملكاً عظيماً ، فأبى أن يقيم بها وقال : « إني ما قدمت إلا للجهاد
وأخاف أن تميل بي إلى الدنيا فأهلك » وكان من رؤساء العابدين
وكبراء الزهادين ، فترك القيروان آمنة ، وانصرف عنها وأقام بها
كثير من أصحابه » (٨٠) .

ولا شك أن الروم كانوا يراقبون الأحداث في أفريقية وقد أصابهم
ما وقع بكسيلة ، وأفزعهم انتصار المسلمين الحاسم بقيادة زهير ،
وعلموا أن جيش المسلمين كله يشترك في المعركة « وقد كان بلغهم
بالقبض على زهير من برقة إلى أفريقية لقتال كسيلة
فاغتنموا خلوها فخرجوا إليها في مراكب كثيرة ، وقوة عظيمة من جزيرة
صقلية ، وأغاروا على برقة ، فأصابوا منها سبياً وقتلوا ونهبوا
ووافق ذلك تدوم زهير من أفريقية إلى برقة ، فأخبر بالخبر فأمر
العساكر بالسرعة والجد في قتالهم (٨١) » .

اضطر زهير بن قيس البلوى ، ومن معه من قوات قليلة إلى الاشتباك
في معركة لم يكن مستعداً لها ، وفي ظروف غير مواتية ولم يكن النصر
فيها حليفاً أسلمين ، واستشهد زهير ومن معه من أشرف العرب ،

المسلمين

- (٧٩) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ٢٣٧ ،
نقلا عن السلاوى صفحة : ٩١ .
(٨٠) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٣٢ - ٣٣ .
(٨١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٤ صفحة : ٩٢ ، وانظر
أيضاً شكرى فيصل في حركة الفتح الإسلامي صفحة : ١٧٢ .

ويعصف لنا ابن عذارى المعركة في هذه السطور : ثم رحل زهير الى الشرق في خلق عظيم ، فبلغ الروم خروجه من افريقية الى برقة فأمكنهم ما يريدون ، فخرجوا اليها في مركب كثيرة وقوة عظيمة فأغاروا على برقة فأصابوا بها سبياً كثيراً ، وقتلوا ونهبوا ، ووافق ذلك قدوم عسكر زهير الى برقة من افريقية ، فأخبر زهير بخبرهم ، فأمر عسكره بالسير الى الساحل ، طمعا أن يدرك سبى المسلمين ، فيستنقذهم . فأشرف على الروم ، فإذا هم في خلق عظيم . فلم يقدر على الرجوع وقد استغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم في مراكزهم فنادى بأصحابه الأنزول ، وكانوا أشراف العابدين ، ورؤساء العرب المجاهدين أكثرهم من التابعين . فنزل الروم اليهم ، وتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتال ، وتكاثر عليهم الروم ، فقتل زهير رضى الله عنه - وأشراف من كان معه من العرب ، ومضى المسلمون الى دمشق ، فدخلوا على عبد الملك ابن مروان ، فأخبروه أن أميرهم وأشراف رجالهم قد استشهدوا « (٨٢) » .

وهكذا استشهد قائد المسلمين في افريقية زهير بن قيس البلوى بعد أن أعاد الى المسلمين ما ضاع بعد هزيمة عتبة وانتصر لشهداء تهودة لكن هزيمته أمام الروم أثارت المشاكل من جديد أمام استقرار المسلمين في افريقية ، وكان لابد من مواجهة حاسمة بعد أن طال الامر كثيرا .

الرحلة الثامنة : حسان بن النعمان ٧٤ - ٨٥ هـ .

تأثرت الخلافة الاموية بمصرع الامراء الثلاثة - عتبة وأبو المهاجر وزهير بن قيس - في الميدان الافريقى ، وصعب على الامويين أن تضيق الانتصارات التي اكتسبها المسلمون بدمائهم وجهادهم فوق رمال هذه المنطقة ، وإن تقاح الفرصة للروم البيزنطيين لكي يثأروا لما لحقهم من هزائم على يد المسلمين في الميدان الشرقى باكتساب انتصارات على المسلمين في الميدان الغربى ، ميدان افريقية والمغرب .

(٨٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة ٣٣ . وانظر ابن الاثير ج ٩ صفحة : ١٦ .

كانت معركة الامويين مع البيزنطيين معركة واحدة سواء في الشرق أو الغرب ، ولذلك أدرك المسلمون أن انتصارهم في أفريقية لن يكون نهائيا الا بالقضاء على سلطة الروم في المنطقة وربما كان هذا سببا في اختيارهم لحسان بن النعمان الغساني لقيادة معارك المسلمين في هذه المنطقة وللغساسنة خبرتهم الطويلة بالروم منذ ما قبل الاسلام ، لهذا حينما اجتمع أشراف العرب ، وسألوا عبد الملك أن ينظر لأفريقية من يسهل ثغرها ويصلح أمرها ؟ فقال لهم عبد الملك : « ما أرى أحدا كفوا لأفريقية كحسان بن النعمان » (٨٣) .

من ناحية ثانية كان عبد الملك بن مروان قد خلص له الامر في الخلافة ومات عبد الله بن الزبير ، ونجح في القضاء على ثورات الشيعة في العراق ، وأصبح خليفة للمسلمين بلا منازع ، وكان لابد له من عمل كبير يمحو به عن المسلمين ما خلفته تلك السنوات الطوال من الجهاد في ممال أفريقية والمغرب .

أدرك الخليفة أن لابد من قوة كبيرة ، وموارد ثابتة ينفق منها على الفتح ، فأمد حسان بن النعمان بجيش يقدر بأربعين ألفا وأطلق يده في خراج مصر ينفق منه على رجاله ، فيذكر ابن عذارى أنه في سنة ٧٨ هـ . قدم حسان بن النعمان أفريقية اختاره لها عبد الملك بن مروان ، وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفا أقامه أولا في مصر بالعسكر ، عدة لما يحدث . ثم كتب اليه يأمره بالنهوض الى أفريقية ، ويقول له « انى قد أطلقت يدك فى أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك ، وأعط الناس ، وأخرج الى بلاد أفريقية على بركة الله وعونه » (٨٤) .

سار حسان الى أفريقية في هذا الجيش ، وهو أكبر جيش من المسلمين وجه لفتح هذه البلاد ، وقد وضع خطة ثابتة لعملياته ركزها أولا للقضاء على الروم .

(٨٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٣٣ .

(٨٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحة : ٣٤ .

ولهذا اتجه بكل قواته الى قرطاجنة ، وهى عاصمة البيزنطيين فى افريقية ، ومصدر المقاومة الثابت ، وحاصر المدينة التى خرجت لقتاله ، وانتصر عليهم ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، واضطر من بقى منهم الى الفرار بما فيها من سفز اتجه بعضها الى صقلية ، والبعض الآخر الى الاندلس .

ويبدو أن حسان بعد انتصاره على هذه المدينة وقضائه على خطر الروم ، غادر قرطاجنة فعاد بعض أهلها وبواديها بعد علمهم بهروب قائدها ، فدخلوها واعتصموا بها ، مما اضطر حسان أن يعود الى حصارها حصارا شديدا حتى دخلها بالسيف فقتلهم قتلا ذريعا وسباهم ونهبهم ، وأرسل لمن حوالىها فاجتمعوا اليه مسارعين ، خوفا من عظيم سطوته ، وشدة بأسه فلما أتوه ، ولم يبق منهم أحد ، أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها . فخرّبوها حتى صارت كأمس الغابر ثم بلغه أن النصارى اجتمعوا ، وأمدهم البربر بعسكر عظيم فى صقفورة * فرحل اليهم حسان حتى لقيهم . وقتلهم حتى هزمهم وقتل الروم والبربر قتلا ذريعا ، وحمل عليهم أعنة خيله ، فما ترك من بلادهم موضعا الا وطئه . ولجأ الروم هاربين خائفين الى مدينة باجة ، فتحصنوا بها . وهرب البربر الى اقليم بونة . - وانصرف حسان الى القيروان (٨٥) .

وهكذا تمكن حسان بن النعمان من القضاء على النفوذ البيزنطى فى المنطقة باستيلائه على قرطاجنة ٦٩٧ م . وهكذا بدأت شمال افريقية الخطوات الحقيقية لكى تتحول « من الحضارة اللاتينية الى الحضارة العربية ومن الديانة المسيحية الى الديانة الاسلامية (٨٦) .

(*) عرفها الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، فقلا عن الادريسي بأنها تقع فى الاقليم المتصل بأرض قرطاجنة من ناحية المغرب (انظر المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ٢٤٣) .

(٨٥) ابن عذارى : نفس المصدر صفحة : ٣٥ .

(٨٦) سعيد عبد الفتاح عاشور تاريخ اوربا العصور الوسطى ج ١ صفحة : ١٤٣ .

لم يكن المغرب قد استقر نهائيا بالانتصار الحاسم على الروم والبيزنطيين بل كانت هناك شوكة أخرى قائمة تتمثل في مقاومة البربر ، وقد آلت زعامتهم الى امرأة كاهنة تطلق عليها المصادر اسم « داهيا بنت ماتيا » ، تقيم مع رجالها في منطقة جبال أوراس ترقب الاحداث بين البيزنطيين وحسان .

عباد حسان بن النعمان الى القيروان للراحة أياما ولكي تبرأ جراح أصحابه ، وسأل عن من بقى في إفريقية ممن يخشى خطره على المسلمين فأعلموه بأمر الكاهنة « فجميع من بإفريقية من الروم منها خائفون ، وجميع البربر لها مطيعون ، فان قتلتها دان لك الغرب كله ، ولم يبق مضاد ولا معاند (٨٧) » .

استعد حسان للزحف على الكاهنة وجيوشها ، وتقدم نحو بلادها وبلغها خبر مسيره اليها ، فتقدمت الى مدينة باغاية فأخرجت عنها من كان بها من الروم وهدمتها حتى لا يتحصن بها حسان ورجاله وعلم بذلك حسان فنزل في واد يسمى سكيانة ورحلت الكاهنة حتى نزلت على الوادي المذكور ، ويطلق ابن عبد الحكم على المكان اسم « نهر البلاء » حيث اقتتلوا قتالا شديدا فهزمته ، وقتلت من أصحابه ، وأسرت منهم ثمانين رجلا وأفلت حسان ، ونفذ من مكانه (٨٨) .

أما ابن عذارى فيقول بعد نزول الكاهنة على الوادي المذكور « فكان هو يشرب من أعلى الوادي وهي من أسفله فلما توافقت الخيل ، دنا بعضهم من بعض ، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار ، فبات الفريقان ليلتهم على سروجهم ولما أصبح الصباح ، التقى الجمعان ، فتقاتلوا قتالا لم يسمع بمثله وصبر الفريقان صبرا لم يفته أحد اليه ، الى أن انهزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين . وقتلت الكاهنة العرب قتلا ذريعا ، وأسرت ثمانين رجلا من أعيان أصحابه ، (٨٩) » .

(٨٧) ابن عذارى ٢٥/١ .

(٨٨) ابن عبد الحكم صفحة : ٦٣ .

(٨٩) ابن عذارى ٣٦/١ .

كانت الهزيمة شديدة على المسلمين ، عاد بعدها حسان بجيوشه الى برقة تاركا القيروان ، وبها قليل من المسلمين ، وكتب الى الخليفة عبد الملك بصعوبة الموقف وما حدث له ، وبرر ذلك قائلا « بأن أهم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية كلمنا بادت أمة ، خلفتها أمم ؟ وهى من الجهل والكثرة كسائمة الغنم . فجاءه جواب أمير المؤمنين يأمره أن يتيم حيثما وانما الجواب ، فورد عليه فى عمل برقة فأقام بها وبني هنالك قصورا تسمى الان بقصور حسان (٩٠) .

كان الموقف حرجا ، فالوالى وقائد الجند يقيم فى برقة وقلعة من المسلمين فى القيروان معرضة لخطر هجوم الكاهنة التى لوحظ أنها لم تحاول الهجوم على القيروان ، بل من العجيب أنها أحسنت معاملة أسراها من المسلمين ، ربما لقناعتها بأن ذلك النصر ليس آخر المطاف ، ولا بد من عودة المسلمين لنزالها والتصاص منها .

ولكن الخطر داهم القيروان من ناحية أخرى ، فقد شق على الروم أن تسقط قرطاجنة بين يدى حسان ، فأعدوا أسطولا كبيرا على رأسه البطريق يوحنا وظهر هذا الأسطول فى قرطاجنة سنة ٦٧ هـ / ٦٩٧ م ، وتمكن من الاستيلاء على المدينة فى يسر ، وقسا فى معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة حتى ليقال أن قائدهم كان يقتل المسلمين بيده (٩١) .

أصبحت الامور شديدة التعقيد ، وبدأ الامر وكأن المسلمين قد خسروا كفاح ما يزيد على نصف قرن من الزمان ، وتعاون البربر والبيزنطيون على استخلاص الاراضى التى سبق للمسلمين نزولها فالبربر يسيطرون على البلاد الداخلية ، والبيزنطيون على السواحل والمناطق الشمالية وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين ،

(٩٠) ابن عذارى ٣٦/١

(٩١) شكرى نيهل : حركة الفتوح الاسلامى صفحة ١٧٤ .

والمسلمون فى برقة ينتظرون أوامر الخليفة ، ويراقبون ما يحدث فى افريقية ، وبدأت تباشير نصر الله تترى .

انتظرت الكاهنة المسلمين مدة طويلة ، وأعماها الله سبحانه وتعالى فجال بخاطرها أن المسلمين انما قدموا طمعا فى خيرات هذه البلاد ، ومن ثم اذا خربت هذه الخيرات فان ذلك قد يقطع طريق العودة نهائيا أمام المسلمين وقالت لاعوانها ان العرب انما يطلبون من افريقية الدائن والذهب والفضة ونحن انما نريد منها المزارع والمراعى ، فلا نرى لكم الا خراب بلاد افريقية كلها ، حتى ييأس منها العرب ، فلا يكون لهم رجوع اليها الى آخر الدهر ، فوجهت قومها الى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون . « (٩٢) » .

أثار هذا العمل السكان الافارقة والبربر والروم ضد الكاهنة وهرب كثير منهم الى خارج افريقية ، بل ولجأ الكثير منهم الى حسان ابن النعمان ، وفى نفس الوقت تلقى حسان المدد من الخليفة ووجد الفرصة سانحة لكى يخرج لقتال الكاهنة ، وانضم الى جيشه كثير من البربر ، وأحسست الكاهنة بأن لاطاقة لها بقتال حسان ، فأرسلت اليه ولديها يستأذنان لنفسيهما مع بعض من سبق أن اسرتهم من المسلمين ، وتزايد جيش حسان فى طريقه بمن كان ينضم اليه من الناقهين على الكاهنة حتى أصبح فى خلق عظيم ، والتقى معها فى معركة فاصلة ، والتحم فيها القتال ، واشتدت الحرب والنزال ، حتى منح الله نصره للمؤمنين وقتلت الكاهنة ، وهزم جيشها هزيمة كبيرة .

وطالب البربر الامان من حسان ، فلم يقبل أمانهم الا أن يعطوه من قبائلهم اثنى عشر الفا يجاهدون مع العرب ، فأجابوه وأسلموا على يديه . فعقد لولدى الكاهنة ، لكل واحد منهما على ستة الاف فارس ، وأخرجهم مع العرب يجولون فى المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر ، ويواصل ابن عذارى قوله : وانصرف حسان

الى مدينة القيروان ، بعد ما حسن اسلام البربر وطاعتهم ، وذلك في سنة ٨٣ هـ . وفي هذه السنة ، استقامت بلاد افريقية لحسان بن النعمان فدون الدواوين ، وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم افريقية ، وعلى من اقام معهم على دين النصرانية (٩٣) .

وينقل لنا د . سعيد عاشور رأى الكتاب الغربيين تعليقا على تحول شمال افريقية بعد ذلك الى الاسلام والعروبة قائلا : حتى البربر الذين طالما اظهروا عنادا يسترعى الانتباه ضد الغزاة السابقين ، سرعان ما اندمجوا في تيار الحضارة الجديدة وأصبحوا مسلمين متحمسين ، وبذلك مرت السبعمئة سنة التي سيطرت فيها اوربا على شمال افريقية دون أن تترك أثرا في تلك البلاد سوى الاساطير والاطلال فالمسيحية اندثرت ، والحياة الرومانية ذبلت ، والمدن تركها الرومان ليعودوا ادراجهم الى اوربا (٩٤) .

اتجه حسان بعد ذلك الى قرطاجنة لمواجهة الروم ، واجبرهم على الفرار من المدينة ، وقد رأى حسان بعد ذلك أن يشرع في بناء مدينة جديدة للمسلمين تشرف على مدينة قرطاجنة ، فبنى مدينة تونس، التي لعبت دورها في تثبيت الاسلام والعروبة في المنطقة بمثل ما قامت به من قبل مدينة القيروان ، ويعتبر بناء هذه المدينة دليلا على استقرار حركة الفتوحات الاسلامية في افريقية ، ورمزا لانتهاء حقبة تاريخية وبداية حقبة أخرى جديدة .

قام حسان بتنظيم الولاية الجديدة ودون الدواوين كما سبقت الإشارة ، وأقيل البربر على الاسلام ، وساوى حسان بينهم وبين العرب في الفبيء والغنيمة ، ثم أقام العمال على نواحي الادارة من خراج وزكاة وجند وأرسل الخليفة قاضيا للقيروان أسوة بغيرها من العواصم الاسلامية الكبرى (٩٥) .

(٩٣) ابن عدارى : ٣٨/١ .

(٩٤) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ صفحة : ١٤٣ .

(٩٥) حسين مؤنس : فجر الاندلس صفحة : ٤٥ .

وفي أوائل سنة ٨٦ هـ . عزل حسان بن النعمان عن إفريقية وتولاها موبى بن نصير الذى استطاع بما وهب الله له من قدرة القيادة ومن الذكاء أن يثبت قدم الاسلام والمسلمين فى إفريقية وأكمل المفتوحات فى منطقة المغرب الاقصى ، وأرسل قواده وجنوده لقتال القبائل التى مازالت خارج سيطرة المسلمين ، وتوغل الى الجنوب فى المغرب .

ويذكر المؤرخون لموسى بن نصير جهادا بحريا رائعا ، حتى يقال أنه غزا صقلية وعاد منها بغنائم كثيرة ، كما أرسل المراكب أيضا بقيادة عياش بن أخيل فغزت سرقوسة فى عام ٨٦ هـ . (٩٦) . وأرسل ابنه مروان الى السوس الاقصى ، وواصل غزواته حتى دان له المغرب كله باستثناء مدينة سبتة المطلة على المضيق ، وتركها للصلة التى بدأت تنمو بينه وبين حاكمها المعروف باسم « يليان » .

وبدأ موسى بن نصير مهمة أخرى لا تقل أهمية عن جهاده الحربى فى المغرب الاقصى ، وهى تثبيت الاسلام ، وتعليم اللغة العربية بين المسلمين الجدد من البربر ، فيذكر ابن عذارى ، أن موسى « استعمل مولاه طارقا على طنجة وما والاها فى سبعة عشرة ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر ، وأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن ، وأن يفقهوهم فى الدين ، ثم مضى قافلا الى إفريقية (٩٧) » .

ولقد سبق موسى فى هذه المهمة الشهيد عقبة بن نافع الذى يذكر له ابن عذارى أنه كان قد ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والاسلام منهم شاكر صاحب الرباط وغيره (٩٨) .

وليمت هذه فقط هى مآثر ذلك القائد الاسلامى العظيم لكن ارادة الله كانت تدخر له مجدا خالدا حين أمكنه أن يقنع هذا الشعب الجديد فى الاسلام بالمشاركة فى الجهاد وحمل رسالة الاسلام لأول

(٩٦) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ صفحة : ٢٥٦ .

(٩٧) ابن عذارى : الببيان ج ١ صفحة : ٤٣ .

(٩٨) ابن عذارى : نفس المصدر ج ١ صفحة : ٤٣ .

مرة عبر البحر الى القارة الاوربية ، وذلك بغزوها من الغرب بعد أن فشل المسلمون كثيرا في دخول هذه القارة من الشرق . ولكن قبل أن تمضى مع الجيوش الاسلامية الى الاندلس ، علينا أن نتوقف قليلا لنسأل عن أسباب طول مدة الفتح الاسلامى ، والتي نيفت على السبطين عاما .

أسباب طول مدة الفتح الاسلامى

اتسمت الفتوحات الاسلامية خارج شبه الجزيرة العربية بصفة عامة بالجهد المنظم والسرعة والاستقرار ، على العكس مما حدث في فتوحات المسلمين لمنطقة افريقية والمغرب .

ولنلق نظرة سريعة على الفتوحات الاسلامية في الشرق لنكتبين أوجه الخلاف بينها وبين ما حدث في منطقة المغرب .

بدأت فتوح العراق بالمناوشات التي كان يشنها المثنى بن حارثة ، ثم توجه خالد بن الوليد رضى الله عنه لفتح الحيرة في سنة ١٢ هجرية، وانتهت هذه الفتوحات بانتصار النعمان بن مقرن رحمة الله في معركة نهاوند سنة ٢١ هـ . ، ولم يبق بعدها ارتداد من الفرس بصورة جماعية ، ولم تخرج بلادهم من أيدي المسلمين بعد ذلك .

أما فتوح بلاد الشام فقد بدأت بالجيوش التي سورها الخليفة أبو بكر الصديق رحمه الله سنة ١٢ هجرية بقيادة أبى عبيدة من الجراح ، وعمر بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وانتهت جميعها على الرغم المعارك القاسية والكبيرة التي واجهها المسلمون هناك بتسليم بيت المقدس للخليفة عمر بن الخطاب في سنة ١٦ هـ . وهي مدة لا تزيد على خمس سنوات ، على اتساع بلاد الشام وكثرة مدنها وسكانها .

أما فتح مصر فانه لم يستغرق أكثر من عامين بين سنة ١٩ ، ٢١ هـ . وذلك منذ بداية دخول المسلمين الاراضى المصرية عند رفح ، وحتى توقيع معاهدة الاسكندرية ويبين ذلك ضرورة التعرف على

الشرق

الاسباب التي جعلت من فتح المغرب مسألة صعبة طال فيها جهاد المسلمين وقدموا كثيرا من التضحيات والمهج والارواح ، ويمكن تلخيص الاسباب في النقاط التالية :

أولا : الاحوال السياسية في الدولة الاسلامية :

لم يأخذ الفتح العربي لهذه البلاد نفس الصورة المنظمة التي رأيناها في كل من الشام والعراق وفارس ومصر ، ففي هذه الفتوحات كان واضحا أنها تشكل عملا أساسيا من أعمال الدولة الاسلامية تتجده (فهي) السلطة العليا وعلى رأسها الخليفة الى هذه الفتوحات بكل سمعها وبصرها واهتمامها الى درجة تنبيه هذه القوات بضرورة أخطار الخليفة بكل ما يدور في المعركة من أحداث سياسية أو معارك حربية ، وتتلقى الجيوش تبعا لذلك (توجهات) الخلافة في كل هذه الاور بعد استشارة أولى الامر في العاصمة الاسلامية . لوجيها

ودلالة ذلك الواضحة تتجلى في الاهتمام الذي كان يبديه كل من الخيفتين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب بأمر هذه الفتوحات وكيف كان خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح يحيطان الخلافة علما بكل الامور ويتلقيان التوجيهات من المدينة الى الحد الذي جعل عمر بن الخطاب يتدخل بنفسه في أمر تولية قيادة الجند في معركة اليرموك فيعزل خالدًا ويعين أبا عبيدة ثم يذهب بنفسه لاستلام بيت المقدس ، هذا الى جانب التغييرات المختلفة التي كان يأمر بها الخلفاء أثناء سير عملية الفتح ، إذا أضفنا الى ذلك وجود قيادة عليا في كل مجموعة من المجموعات الغازية في كل من الشام والعراق ومصر يرجع اليها كافة القيادات الاخرى قبل اتخاذ الاجراءات الحاسمة وتشاورها في امورها وتتلقى منها تعليماتها حيث يذكر أن ابا بكر حين عقد لعمر بن العاص قال له بعد أن سلمه الراية ، قد وليتك هذا الجيش فانصرف الى أهل فلسطين وكاتب أبا عبيدة وانجده اذ ارادك ولا تقطع أمرا دونه (٩٧) .

وكان قواد الجيوش العربية على اتصال بقائدهم العام وهو بدوره على اتصال بالخليفة ، كما أنهم اجتمعوا معا في الشام لكي

(٩٧) الطبري : تاريخ الامم ج ٤ صفحة : ٣٨ . ابن الاثير ج ٢ صفحة : ١٩٥ . حسن ابراهيم . تاريخ الاسلام ج ١ صفحة : ٢٢٤ .

يتداولوا في كيفية مواجهة الروم . وكان رأى عمرو بن العاص أن تتحد الجيوش الاربعة لمواجهة التكتل البيزنطى ورأى البعض الآخر أن يبقى كل جيش فى مكانه لكى لا تنتقص عليهم الميادين ، وأرسل أبو عبيدة يستشير الخليفة فجاء رده مصوباً رأى عمرو . وتوحدت الجيوش فى مواجهة الروم .

كل ذلك يدلنا على مدى التنظيم والاهتمام الذى كانت تلقاه الفتوحات الاسلامية فى ذلك الوقت باعتبارها عملاً أساسياً يشد اهتمامات الدولة بأكملها . وإذا كان ذلك قد حدث فى بلاد الشام فإنه قد حدث أيضاً فى العراق وفارس مع سعد بن أبى وقاص والنعمان بن مقرن وفى مصر مع عمرو بن العاص .

أما الذى حدث فى افريقية فكان فى معظم الاحيان اجتهاداً من ولاية مصر أو من الجند العرب فى هذه البلاد بقصد تمهيد الطريق وجس النبض والحصول على ما ينعم الله به من الغنائم . الى أن بنيت القيروان ، وأصبحت هناك عاصمة اسلامية يسكنها المسلمون المستقرون ، وبها الجامع والخطبة والامام ، وأصبح من مهام خليفة المسلمين أن يرعى من يقيم فيها ويؤمن شعائر الاسلام هناك . ونستثنى من ذلك الفترة الخاصة بعهد الخليفة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما ، فقد كان اهتمامهما واضحاً بميدان افريقية ومحدداً .

كذلك فان من أهم أسباب الاختلاف بين الميدان الافريقى الغربى وبين الميادين العربية الأخرى ما طرأ على الدولة الاسلامية نفسها من مشكلات وفتن جعلت بأسها فى داخلها وليس على أعدائها ، فهناك الفتنة الكبرى التى صدعت الجبهة الداخلية والتى انتهت بمصرع عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم هناك الخلاف بين على بن أبى طالب ، وبين طلحة والزبير وعائشة رحمهم الله جميعاً ، والذى انتهى بموقعة الجمل ، ثم الصدام الذى نشأ بين على بن أبى طالب وبين معاوية والى الشام ، وطبع بصماته على كل شبر من الدولة الاسلامية ثم ما صادف معاوية

بعد ذلك من عقبات كان لابد من مواجهتها قبل تأمين الخلافة الجديدة ، وما قابله خلفاؤه من بعده حتى عهد عبد الملك بن مروان من مشاكل المطالبين بالخلافة مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير والخوارج بالاضافة الى معارك المسلمين مع الدولة البيزنطية .

كل ذلك كان له أثره الواضح في انصراف الحكومة المركزية عن متابعة وتنظيم الفتح الاسلامي لافريقية والمغرب مما كان سببا في اطالة مدة الفتح على هذه الصورة ، ولم يكن ذلك راجعا الى افتقار الشجاعة أو الرغبة في الاستشهاد عند المسلمين ، لاننا نجد أن عمليّات الفتح تسرع نحو نهايتها حين انتهى عهد الملك بن مروان من كل ما كان يواجهه من مشاكل وصعوبات وخلصت له خلافة المؤمنين بعد عام ٧٣ هـ . ووجه اهتمامه للفتح .

ثانيا : بعد الميدان الافريقي :

كان بعد الميدان الافريقي المغربي عن الحكومة المركزية أحد الأسباب الرئيسية في تردد الخلفاء المسلمين في الاهتمام بهذا الفتح فاذا اصفنا الى ذلك الحاجة الى استخدام الاسطول وركوب البحر لادركنا عاملا آخر من عوامل التردد ، يحدثنا التاريخ عن تردد عمر بن الخطاب في فتح مصر ، وتشبيهه للجنود على ظهر السفن بالميدان على العيدان ، وكان دائم الرغبة في أن لا تفصل بينه وبين جنده فواصل مائبة . كما أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، منع عمرو بن العاص من غزو افريقية ، حين كتب اليه عمرو يقول بأن ليس أمامه الا بلاد افريقية وملوكها كثير وأهلها في عدد عظيم ، وأكثر ركوبهم الخيل ، فأمره بالانصراف عنها (٩٨) .

وفي قول آخر أن عمرا أرسل الى عمر بن الخطاب قائلا ان الله قد فتح علينا أطرابلس ، وليس بينها وبين افريقيا الا تسعة أيام ، فان رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ، ويفتحها الله على يديه فعل ،

فكتب اليه عمر : « لا » انها ليست بافريقية ، ولكنها المفرقة
غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت (٩٩) .

بالاضافة الى هذا فان افريقية والمغرب ميدان واسع مترام
الاطراف يتكتل الروم عند السواحل ، في حماية الاساطيل أما الجنوب
فيمثل صحارى واسعة يسكنها اقوام عزوفون بالطبيعة ^{على} حب ^{عن}
الاختلاط ، ميالون الى الدفاع عن الحرية ، وبوسعهم استخدام أساليب
الكر والفر وساعدتهم معرفتهم بالطبيعة والجغرافية في بلادهم فتميزوا
على العرب وأمكنهم ايقاع الهزيمة بهم في أكثر من معركة ، بل
وصرعوا بعض قادتهم مثل عقبة وأبى المهاجر دينار .

ثالثا : مساعدات البيزنطيين :

كانت الدولة البيزنطية تعتبر ميدان الصراع مع الدولة الاسلامية
واحدا ، في مشرقه أو مغربه ، وكانت أساطيلها تهيب لها سلاحا لم
يكن قد استقر استعماله عند العرب بالقدر المطلوب ، ولذلك
انتهزت الدولة البيزنطية كل فرصة تنجو فيها من مضايقات
المسلمين في الشرق حتى تسارع بارسال الاساطيل الى افريقية
لمساعدة الروم المدافعين هناك وذلك في كل مرة تصل السفن البيزنطية
الى شمال افريقية كان الروم يستردون أنفاسهم وقواهم ويستعيدون
عزمهم على القتال ويعاودون احتلال القرى والمدن على الساحل ، كما
أن وصول الاساطيل كان مشجعا للبربر على الانتفاض على الحكم
الاسلامى ، واستئناف الصراع وقد استطاع بعض قادة الاساطيل
البيزنطية التفاهم مع بربر البرانس وشكلوا خطرا كبيرا على الفتوحات
الاسلامية في افريقية وكثيرا ما كانت هذه الاساطيل تدهم المناطق
الساحلية التى كان العرب يقطنون فيها ويحملونهم أسرى الى بيزنطة
أو يقضون عليهم ، وليس ببعيد ما حدث مع القائد زهير بن قيس
البلوى ، أو ما حدث للمسلمين المقيمين قرب قرطاجنة حينما هاجمهم
الاسطول البيزنطى بقيادة يوحنا بعد أن هزم حسان بن النعمان

من الكاهنة في حدود عام ٧٥ هـ . (١٠٠) .

رابعاً : اختلاف وجهات النظر بين قادة الفتح في المنطقة :

لا شك أن لتوسع الميدان الأفريقي ، وكثرة مشاكله جعلت وجهات النظر تتباين عند قادة الفتح الإسلامي للمنطقة وحيث أنه لم تكن هناك معرفة سابقة بأبعاد الميدان الأفريقي وسكانه ، على عكس الحال في المناطق القريبة من الجزيرة العربية فلم تكن هناك خطة ثابتة ومحددة تسير عليها الفتوحات الإسلامية ، ولعب الاجتهاد هناك دوره الرئيسي في توجيه العمليات ، ففي الوقت الذي رأى بعض القادة أن القتال أو العمليات العسكرية هي الحل الأمثل ، رأى بعضهم ضرورة إقامة مصكرات ثابتة للمسلمين ، ولجأ آخرون إلى سياسة إقامة علاقات مع البربر وكان تباين وجهات النظر أحد عوامل تغيير السياسة في المنطقة وما يقرب على ذلك من تغيير في الوسائل وخطوات التنفيذ .

جانب آخر من جوانب اختلاف وجهات النظر يمكن إرجاعه إلى السيطرة الزوجية التي كانت تمارس على الإقليم من قبل ولاية مصر أو الخلفاء في دمشق مباشرة ، ولقد كانت إحدى القضايا الأساسية تتعطل في العلاقة التي تربط بين أراضى أفريقية والمغرب وولاية مصر الإسلامية ، ونرى من دراستنا لتعيين قادة الفتح في هذا الإقليم أن تبعيته كانت تتذبذب ما بين الخضوع للتعليمات التي تصدر من ولاية مصر ، وما بين تلقي هذه التعليمات من الخليفة في دمشق مباشرة وليس يتبعيد عن المذكورة موقف مسلمة بن مخلد الاتصاري وإلى مصر من عتبة بن نافع النهري ، أو موقف عبد العزيز بن مروان من حسان بن النعمان .

خامساً : موقف ولاية مصر .

ليس من شك أن ميدان الجهاد المفتوح في أفريقية كان حافزاً لولاية مصر لفرض سيطرتهم على هذا الإقليم الجديد كما أن ميدان الجهاد عامة كان مطمحاً لكل من يسعى ليقدم جهده في سبيل الله وغايته ،

(١٠٠) راجع فتحة حسان بن النعمان .

ومن هنا حرص ولاية مصر على أن تكون لهم اليد الطولى في افريقية كما حرصت الخلافة في دمشق على أن تكون لها هذه الامور . ووقف الخلفاء موقفًا أساسيًا يجعل من افريقية ولاية مستقلة من ولايات الخلافة ، لكن مرت بعض الفترات الزمنية التي تولى فيها اماره مصر بعض الشخصيات التي لها صلة خاصة بالخليفة بحيث كان الخلفاء في موقف لا يجدون فيه مناصا من الاستجابة الى رغبات الولاة في مصر .

ولسنا نستطيع أن نستبق الاحداث أو أن نعلم ما كان يمكن أن تسفر عنه الامور لو لم يتدخل مسلمة بن مخلد ليعزل عقبة بن نافع بعد انتهائه من بنيان القيروان في سنة ٥٥ هـ . أو لو أن حسان بن نعمان قد بقى واليا على افريقيا بعد اختصاراته الرائعة على الكاهنة من ناحية والروم من ناحية أخرى ؟ .

سادسا : عدم وجود قواعد ثابتة للفتح في افريقية .

كان الفتح الاسلامي للمنطقة وحتى تأسيس القيروان مجرد محاولات استكشافية أو حملات يمكن أن ندرجها تحت عمليات جس النبض دون أن تهدف الى الاستقرار في المنطقة ، وربما لم يكن المهملون قد كونوا فكرة واضحة عن أبعاد المنطقة وسكانها ، ولذلك فاننا نرى عودتهم بعد كل عملية الى الفسطاط في مصر دون ترك قوات كافية للحفاظ على ما أمكن الاستيلاء عليه من أرض أو مدن ، مما كان يعطي الفرصة ، بمجرد أن تنتهى العمليات ويعود المسلمون من حيث اتوا ، لكى يستعيد الروم والبربر ما سبق لهم أن فقدوه في معاركهم مع المسلمين .

ولم تتحول سياسة الفتوحات الاسلامية الا بعد بناء القيروان أو التفكير في اتخاذ قاعدة ثابتة للمسلمين في المنطقة .

وليس من شك في أن بناء المدن الاسلامية في الامصار المفتوحة قد لعب دوره الحاسم ، ليس فقط في تثبيت أقدام المسلمين في هذه المناطق ، وانما في نشر العروبة والاسلام ، واخراج هذه المناطق من بقايا جاهليتها الى عصر جديد في رحاب الامة الاسلامية . وهكذا كان دور القيروان وتونس ومن بعدهما مدينة فاس في حياة هذا الاقليم الواسع الامتداد .

ولقد لعبت القيروان دوراً أساسياً في عمليات الفتح الإسلامي ففيها اختطت القبائل بيوتها حول المسجد الكبير ، وأصبحت المدينة كغيرها من العواصم الإسلامية كالفسطاط والكوفة والبصرة .

وأصبح فرضاً عملياً على خليفة المسلمين حماية المسلمين المقيمين في إفريقية والدفاع عن حدودها ، وإتاحة الأمن والاستقرار لهم لاداء شعائر دينهم ، وتأمين طريقهم الى بيت الله الحرام ، كما اخذ المسلمون هناك ينتشرون بالقرب من مدينتهم ، يدعون الى دينهم ، ويختلطون بسكان المنطقة الاصلين ، مما ساعد على تثبيت اقدامهم هناك .

ولذلك نجد أن فكرة اتخاذ قاعدة للمسلمين ، قد وردت عند معاوية بن حديج ، ونفذها بعد ذلك عقبة بن نافع وتابعها كل من جاء بعده من قادة الفتح الإسلامي في المنطقة .

سابعاً : طبيعة السكان في إفريقية :

اتفق المؤرخون على أن سكان إفريقية كانوا ينقسمون عند اتصال المسلمين بالمنطقة الى ثلاثة أقسام رئيسية وهم :

١ - الروم البيزنطيون : وقد كانوا حكام البلاد ، والطبقة العليا وأقاموا في المدن وعلى السواحل ، وملكوا الأرض ، واستغلوا كل امکانيات المنطقة لصالحهم ، وكانوا العنصر المسيطر ، أداة الامبراطورية البيزنطية في حكمها لهذه المنطقة .

٢ - الافارقة : واختلف هذا العنصر عن الروم وعن البربر على أساس أنهم بقايا العصور السابقة على العهد البيزنطي ومن سكن المدن من الغرباء ، وليس يجمع هذا الخليط أصول دموية واحدة ولا جد أعلى ينتسبون اليه ، وإنما تجمعهم هذه الحياة المشتركة وهذا الاستقرار في الأرض ، وهذا الارتباط في المعيشة (١٠١) .

٣ - البربر : وهم سكان هذه المنطقة الاصليون ، ولقد اختلف هؤلاء السكان في طبيعة حياتهم ونظمهم الاجتماعية فمنهم من تحضر وأقام

(١٠١) شكري فيصل : المرجع المشار اليه صفحة : ١٨٠ .

في المدن أو بالقرب منها ، ومنهم من عاش عيشة البداوة بكل ما تتطلبه من بدولة وقسوة الحياة .

ولقد جاءت التسمية بالبربر من قبل الرومان ، ولعلها من اسم صوت جاء من أن البربر يحدثون اصواتا غير مفهومة تغلب عليها الراء والباء حينما يتكلمون أى أنهم يبربرون في أحاديثهم (١٠٢) .

وكعادة المؤرخين العرب فانهم أرجعوا هذه التسمية الى اجداد هذه القبائل ، والتي نسبوها الى أصول عربية . كما أرجعوا البربر عامة الى شخصية عربية سموها برين قيس الذي خرج من الحجاز واستقر في بلاد المغرب حتى ليقول أحد شعرائهم :

وشطت ببرداره عن يلائنا

وطوح بر نفسه حيث يممنا

وأزرت ببر لكنا أعجبية

وما كان بر في الحجاز بأعجا (١٠٣)

كما أورد بعض المؤرخين تفسيراً لهذه التسمية مرجعة الى الثياب التي كان يرتديها البربر فالبرانس هم الذين يرتدون البرنس ، والبرهم الذين لا يستعملونه (١٠٤) .

وأهم ما نبغى الإشارة اليه هو أن البربر يتشابهون كثيراً مع العرب في أنماط حياتهم الاجتماعية وفي سماتهم الخلقية تشابهاً كبيراً فساكن المغرب يميلون الى حب الحرية والخلاء ويجدون ركوب الخيل والكر والفر ، ويأثفون الضيم وهي سمات تجعلهم يتقاربون في القتال ولقد رأينا كيف أمكنهم استغلال طبيعة بلادهم التي كانوا

(١٠٢) مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاتطس صفحة : ١٢ .

(١٠٣) مختار العبادي : المصدر السابق صفحة : ١٤ .

(١٠٤) عبد الحليم عويس « الدكتور » : دراسة في أجناس الحضارة

الاسلامية « البربر » مجلة كلية العلوم العربية - الرياض . العدد (٣) صفحة : ٢٤٦ .

يعرفونها معرفة جيدة في ايقاع الهزيمة بالجيوش الاسلامية والانتصار عليها ولم يتمكن المسلمون من اخضاعهم تماما الا حينما نجحوا في استمالتهم الى الاسلام ، واقتناعهم بأخوتهم في العرق وفي الاصل .

وهناك وثيقة تنسب الى موسى بن نصير ، يشهد فيها ومن معه من المسلمين بأن البربر انما هم من أصل عربي ، واخوة العرب المسلمين ، ومن ثم نهم مائهم وعليهم ما عليهم . (١٠٣) ويميل الى ذلك الاستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي حيث يقول :

غير أن الامر الذي لا شك فيه هو أن المسلمين لم يتمكنوا من السيطرة على المغرب الا بعد أن ابتعدوا عن سياسة العنف ، وعملوا على اكتساب البربر عن طريق نشر الاسلام بينهم ، وادخالهم في الجيوش العربية كجنود محاربين (١٠٤) .

ويرى الدكتور شكري فيصل أنه « حين كان الولاة يحسنون السيرة في البربر ويأخذونهم باليسر كما فعل أبو المهاجر كان البربر يقبلون على الاسلام أو يقبلون على نصرة المسلمين فاذا آل الامر الى ثلثون من المتحدى بين البربر والعرب كالذي حدث لعقبة وكسيلة ، غضب البربر لانفسهم ، (وانظروا) على المسلمين ، وتسببوا لهم في مواقف صعبة كثيرة (١٠٥) .

قلوبوا

لهذه العوامل مجتمعة ، وغيرها كان فتح المسلمين للمغرب فتحا مميزا عن باقي الاقاليم التي حررها المسلمون ولعل العطاء من هذه المنطقة كان أيضا مختلفا ، لاننا نرى أن هذا الشعب الذي قاوم المجاهدين المسلمين كثيرا ، لم يلبث ألا قليلا حتى يعتنق الاسلام ويحمل راية الجهاد الاسلامي ، ويقدم للمسلمين وللاسلام ، نصرا عزيزا غاليا وذلك حينما عبر زقاق البحر المتوسط لأول مرة في تاريخ

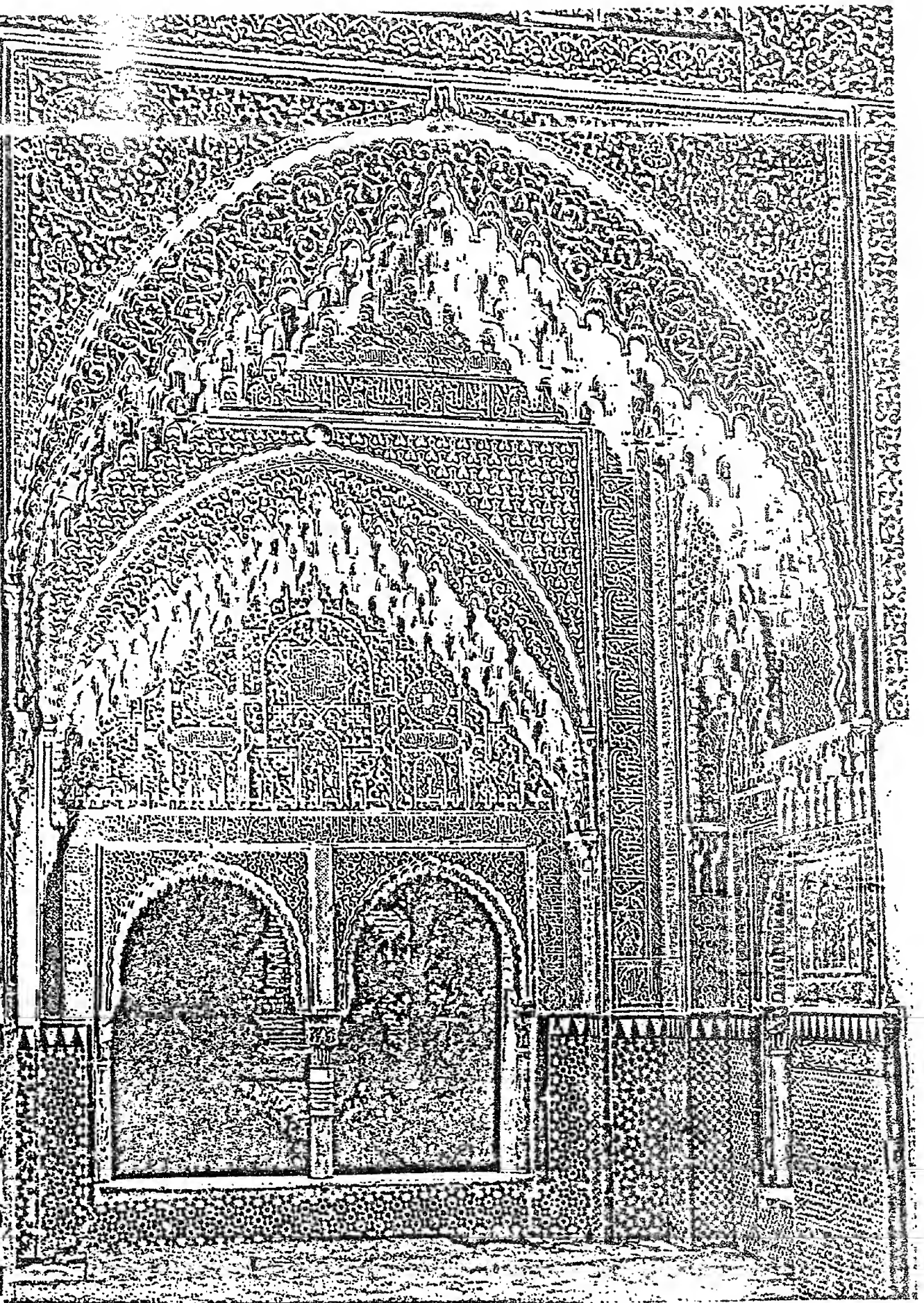
-
- (١٠٣) انظر مجلة الوثائق المغربية العدد الاول عام ١٩٧٦ م ص ٢٥
 - (١٠٤) العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس صفحة : ٤٦ - ٤٧
 - (١٠٥) شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي صفحة : ١٨٢ -

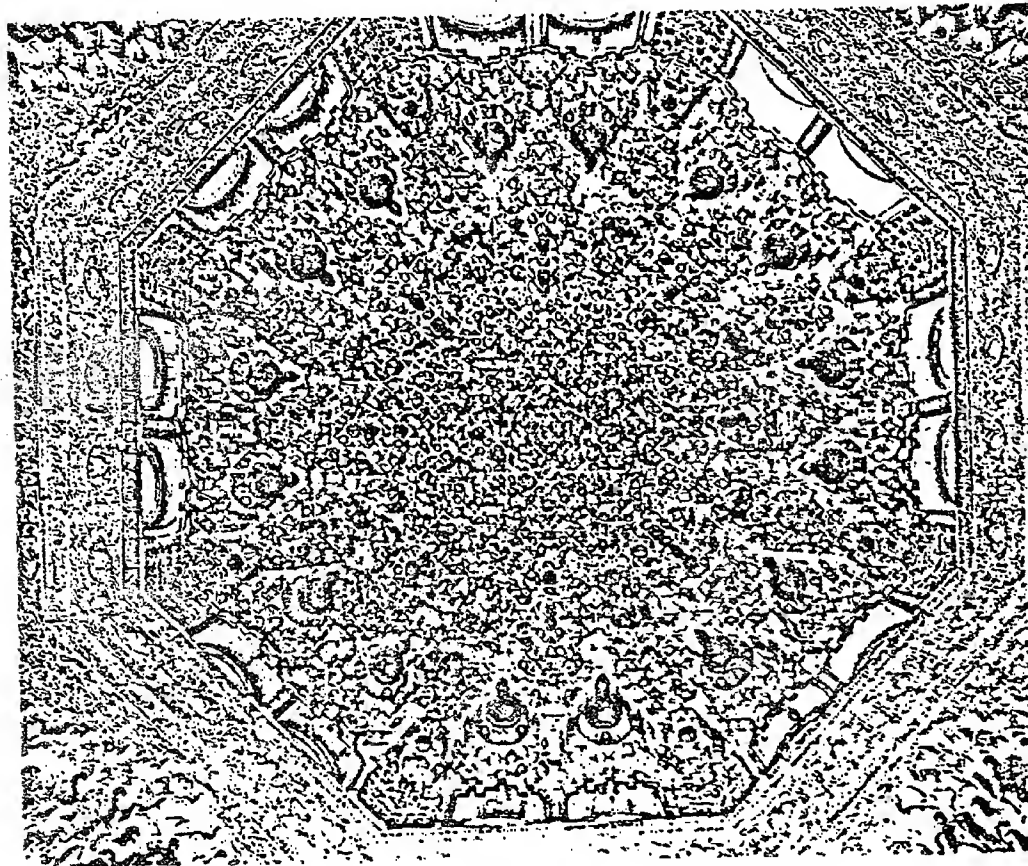
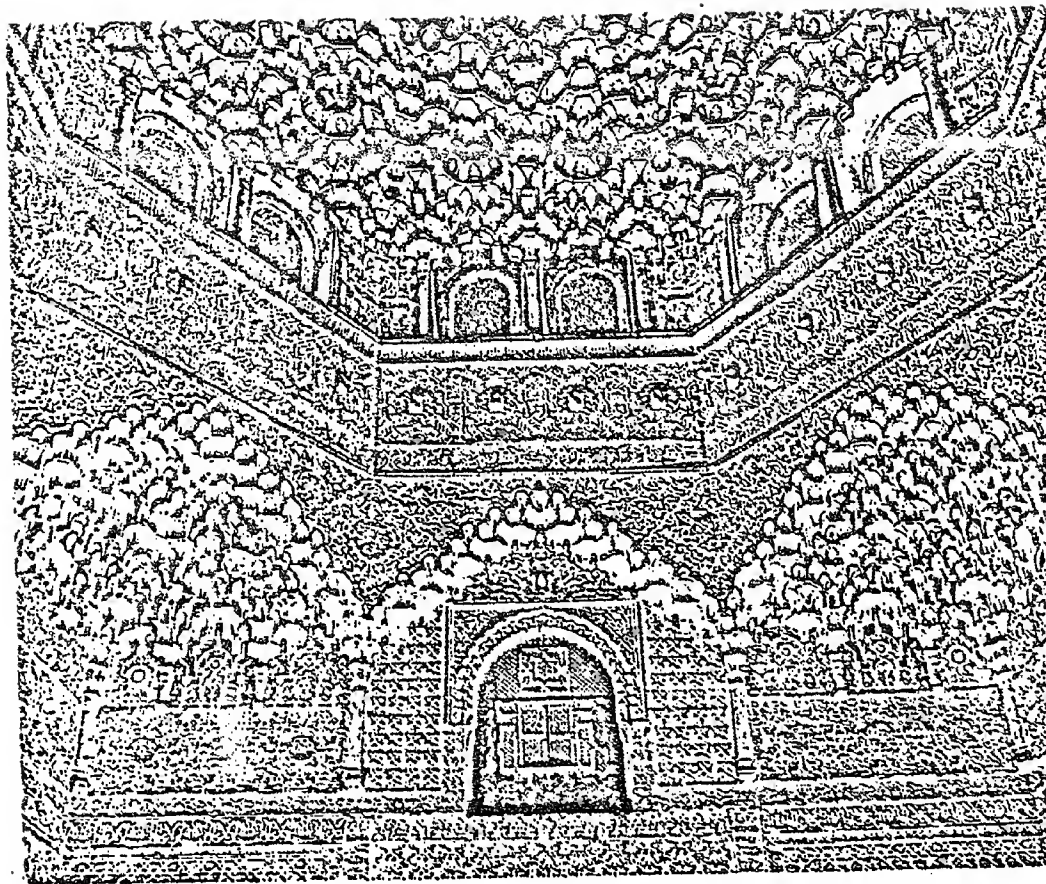
الدولة الإسلامية وفتح اقليمها أوروبيا هو الاندلس ، فبارك الله
شعب المغرب ، ورحم المجاهدين الذين أدخلوه نور الايمان (١٠٦) .

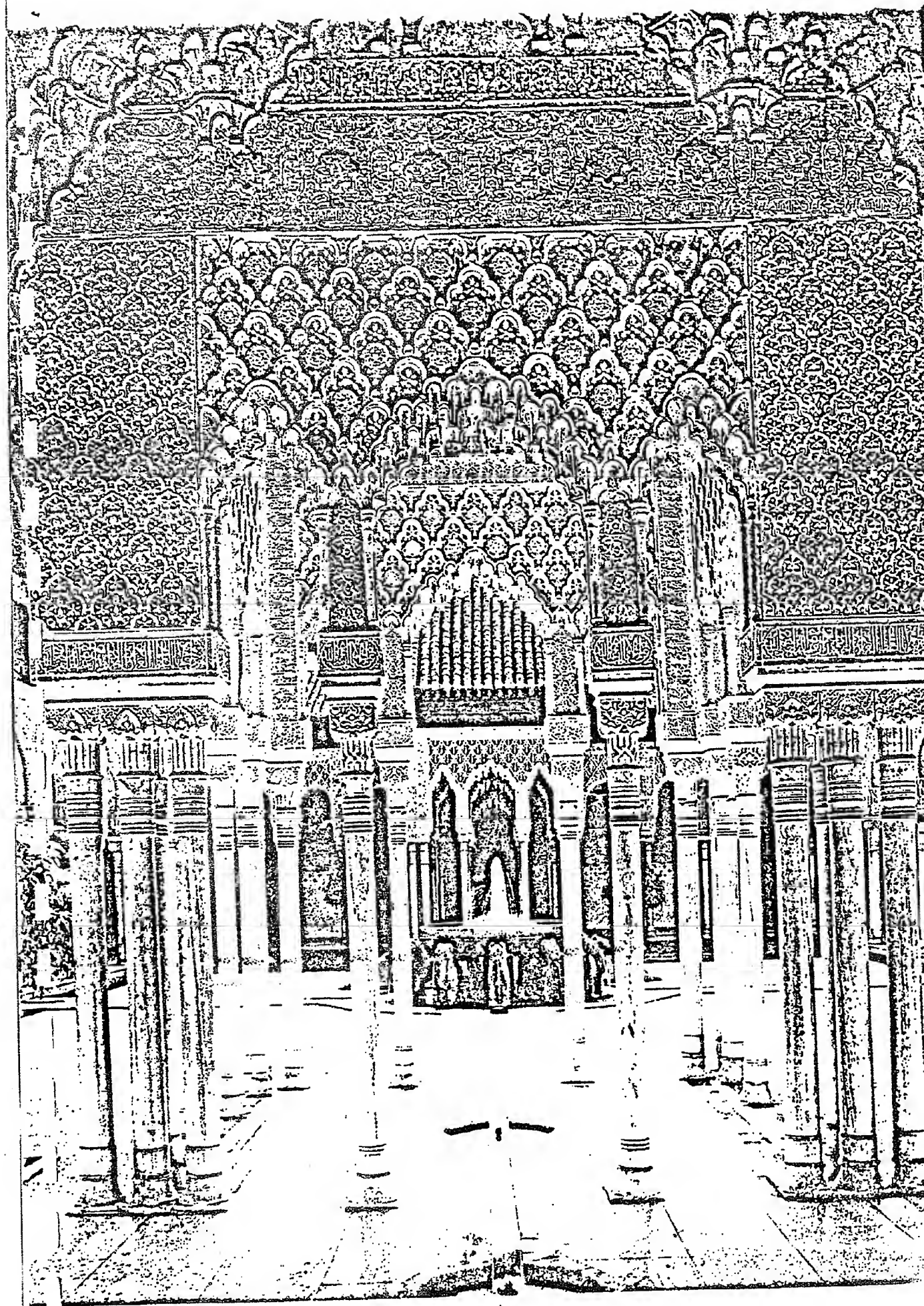
الاطلال على الاندلس :

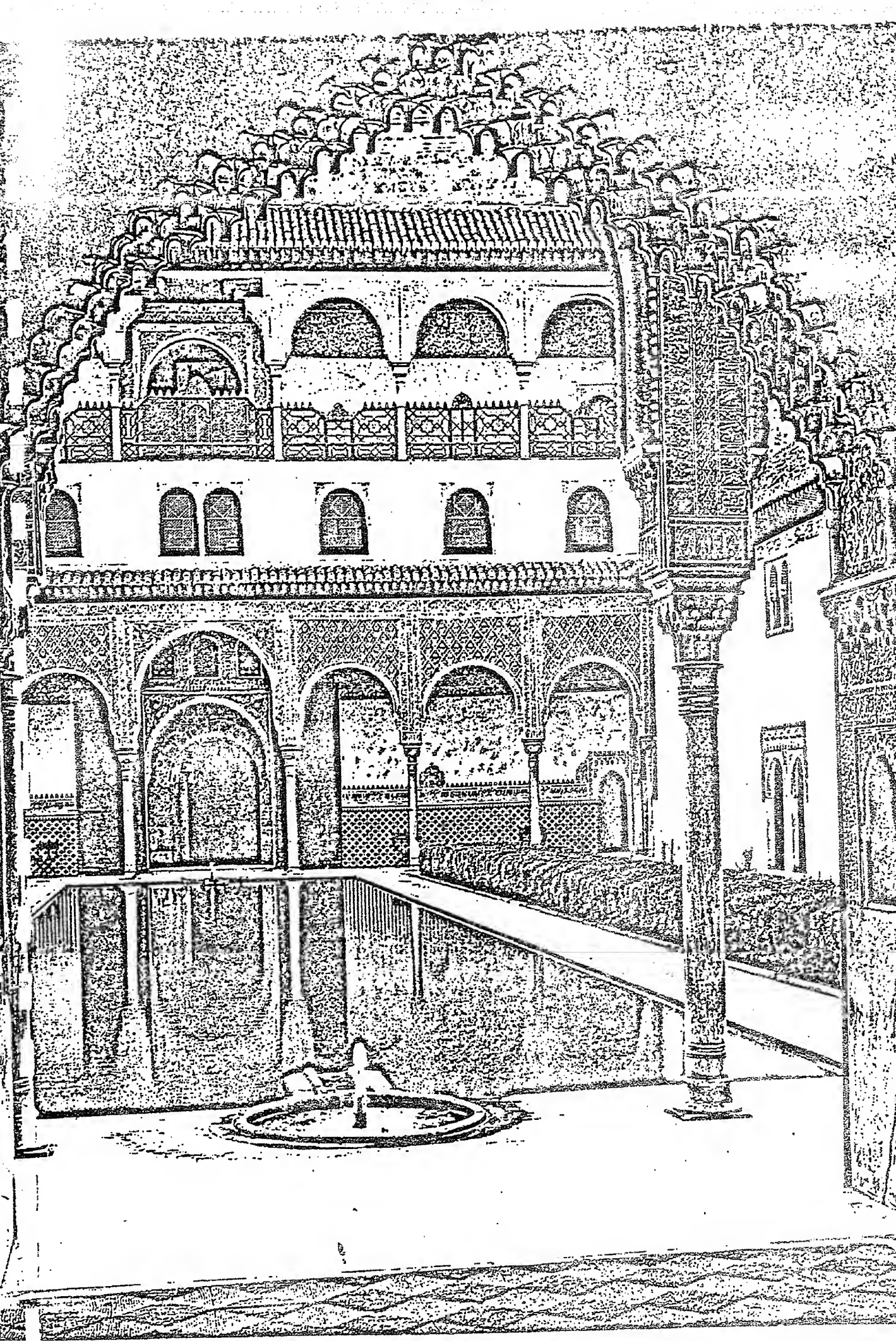
حينما تولى موسى بن نصير أمر افريقية والمغرب ، كان هذا
الجزء من العالم قد دان في معظمه للمسلمين ، وأصبحت المهمة
الاساسية للوالى الجديد هى تثبيت أركان الاسلام والعروبة هناك ،
والقضاء على الجيوب الخارجية وبدأ يرسل جيوشه وطلّاعه الى
جنوب المغرب الاقصى وكذلك جعل حاميات ثابتة فى طنجة شمال
البلاد محاصرا بذلك مدينة سبتة التى رأى أن لا يقدم على فتحها
مؤقتا ، ومن ثم أشرف المسلمون على مضيق جبل طارق وما خلفه
من بلاد الاندلس ، وبدأ الاتصال بحاكم سبتة وبالتالى نسجت الخيوط
الاولى لقصة من قصص العظمة والبطولة التى سجلها المسلمون على مدار
التاريخ ألا وهى فتح الاندلس .

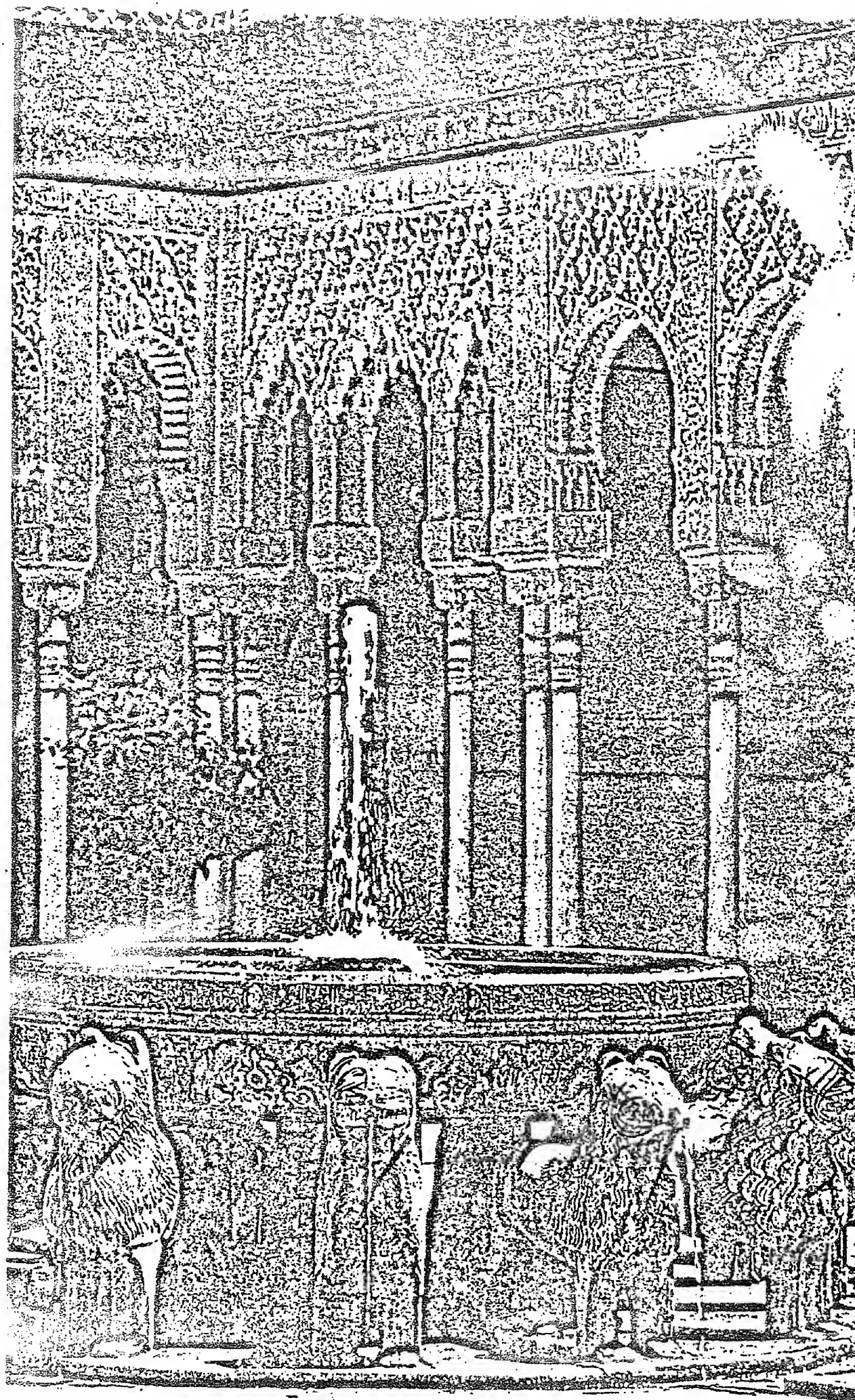
(١٠٦) انظر الدراسة القيمة للدكتور عبد الحليم عويس عن البربر
كأحمد شعوب الحضارة الإسلامية فى المراجع المشار إليه .

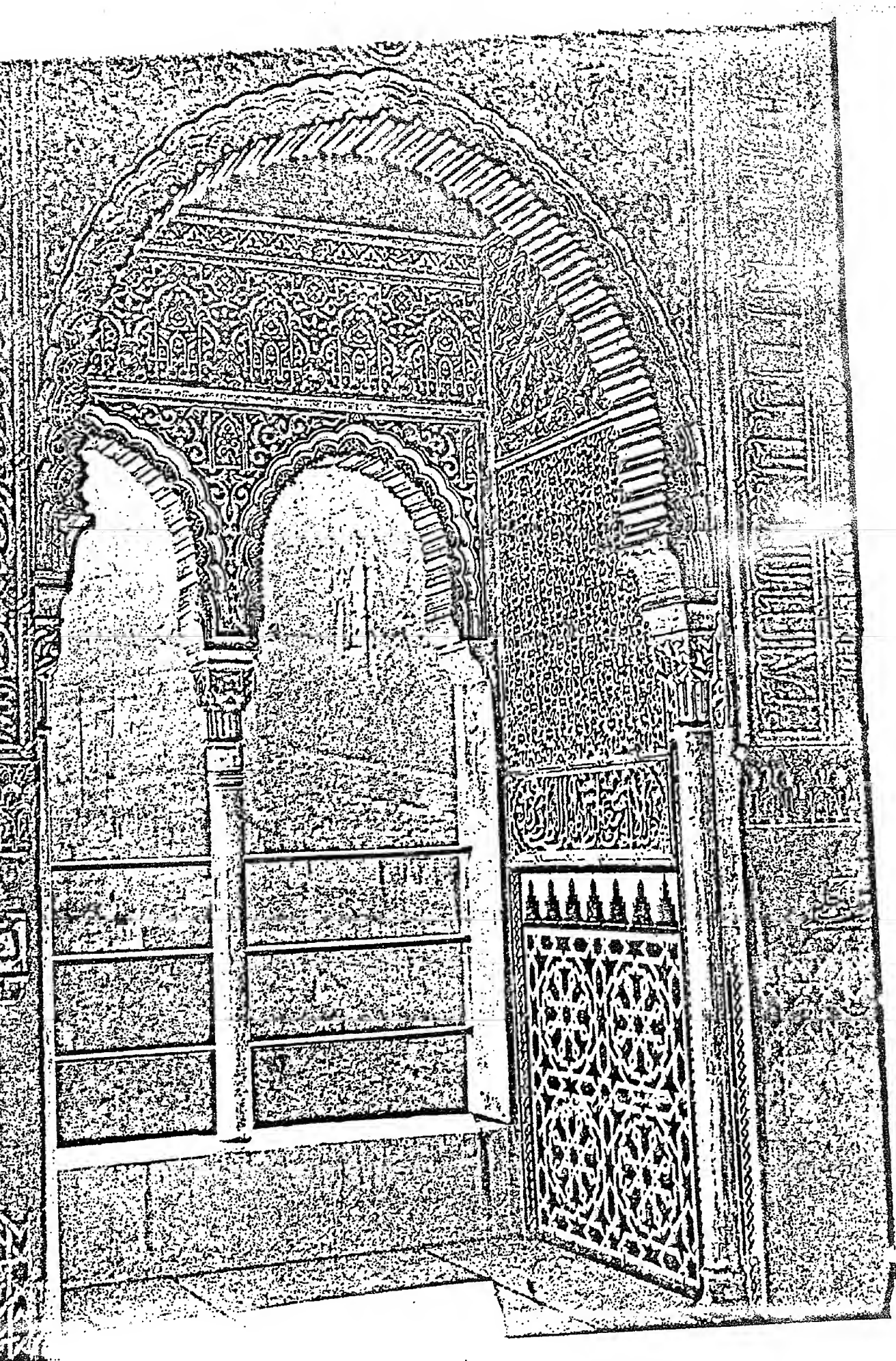












فتح الاندلس

رواية متجددة

للدكتور : محمد عبد الحميد عيسى

فتح الأندلس

رواية مُتَجَدِّدة

شهد القرن الأول الهجري انتشار الإسلام في بقاع واسعة من مختلف القارات المعروفة آنذاك وهي آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وفي فترة زمنية قصيرة تم للعرب المسلمين الاستيلاء على مناطق كثيرة ، فدخلت في حوزاتهم بلاد الشام والعراق وفارس وآسيا الصغرى وأقاليم واسعة من أواسط آسيا ، وكذلك مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والأندلس وأقاليم واسعة من داخل القارة الإفريقية ووسط فرنسا وجزر البحر المتوسط .

ولم يكن الاستيلاء على هذه المناطق سهلاً أو ميسراً ، وإنما تخللته معارك بطولية وتضحيات كبيرة وجهاد كلفهم الأنفس والأموال .

وأرخ المؤرخون لهذه الفتوحات جميعها وكتبوا فيها محددين بالأرقام والتواريخ خطوات الفاتحين وأخبارهم دون لبس أو غموض .

وأكثر هذه الفتوحات تعرضاً لكتابات المؤرخين كان في فتح الأندلس حيث ديجت كثير من الصفحات والمؤلفات بأخبار هذا الفتح وقصصه وحكاياته ، وما أظن أن مؤرخاً عربياً أو إسلامياً - فيما أعلم - إلا وقد كتب عن فتح الأندلس مشيراً من قريب أو بعيد إلى أحداث هذا الفتح وظروفه .

ومن الغريب أن فتح الأندلس - على الرغم مما سبق قوله - ظل وما زال موضع الخلاف والنقاش بين المؤرخين حتى أنه يمكن القول دون مبالغة بعدم كتابة الرواية النهائية لهذا الفتح حتى الآن ، وأن الباب ما زال مفتوحاً للبحث والاجتهاد .

والخلاف في فتح الأندلس يتمثل في عدة نقاط رئيسية الخصها فيما يلي :

موقف طارق بن زياد من الفتح ومن أميره موسى بن نصير ، وهل استأذن طارق موسى في القيام بالفتح أم أنه قام بذلك بمبادرة شخصية منتهزا قرصة لاحت له ؟ وما رد موسى على ذلك ؟

شخصية حاكم سبتة ، وهل هو شخص واحد أو أكثر من شخصية ؟ وما دوره في فتح الأندلس ؟
مصير آخر ملوك القوط ، الملك لذريق ، وهل قتل في أول معركة له مع طارق أم أنه نجا من هذه المعركة وواصل القتال بعد ذلك حتى قتل في مكان آخر ؟

فتح قرطبة من الذي قام به هل هو طارق بن زياد شخصياً أم معيت الرومي ؟

وبالإضافة إلى هذه النقاط السائكة التي لم تجد حلاً حتى الآن ، وما زالت موضع الخلاف والنقاش ومحط البحث والدراسة هناك بعض الظواهر الأخرى التي ارتبطت بفتح الأندلس دون غيره من البلاد التي فتحها المسلمون في هذه الحقبة التاريخية . ومن هذه الظواهر (٨) كثرة الأموال والغنائم التي حازها المسلمون هناك والأشراف في وصف هذه الغنائم إلى درجة أسطورية .

(٢) وفرة الحكايات والقصص المرتبطة بعملية الفتح سواء قبل الفتح أو بعده وهي روايات تحتاج الى مزيد من الدراسة المتأنية قبل اثباتها أو رفضها .

وأنوه منذ البداية أنني لا أقصد بمقالاتي هذه تبيان الحقيقة ، أو تقديم القول الفصل وإنما فقط أحاول أن أبلور هذه النقاط لعلها تجد من أفاضل علمائنا وباحثينا من رجال الأندلس جهدا موازيا لما يبذله المستشرقون في هذا المجال من أجل توضيح الحقيقة التاريخية وجلائها .

ونتناول فيما يلي أهم الآراء المتباينة في هذه القضية : -

نقطة الخلاف الكبرى بين المؤرخين تتركز حول موقف طارق بن زياد من أميره موسى بن نصير في قضية القيام بفتح الأندلس ، وهناك تيارات حول هذه المسألة أولها ما جاء في كتاب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس » وذكر أمرائها من :

ان موسى بن نصير هو الذي التقى بحاكم سبتة « جوليان » واتفق معه على القيام بفتح الأندلس وكتب بذلك الى الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، فكتب اليه ان خضها بالسرايا حتى تختبر ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال . فكتب اليه موسى انه ليس ببحر ، وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر ، فكتب اليه : وان كان فاخبره بالسرايا فبعث رجلا من مواليه يقال له طريف ويكنى بأبي زرعة في أربعين ، ومعهم مائة فارس فسار في أربع مراكب حتى نزل بمراكبه جزيرة يقال لها : جزيرة الأندلس ، التي هي معبر مراكبهم ، ودار صناعتهم ، يقال لها : جزيرة طريف ، سميت به لنزوله فيها . فأقام حتى تمام اليه أصحابه ثم نهض حتى أغار على الجزيرة فأصاب سببا لم ير موسى مثله ولا أصحابه ومالا جسيما رجع سالما وذلك في رمضان سنة احدى وتسعين .

فلما رأى ذلك ، تسرعوا الى الدخول ، فدعا موسى مولى له ، كان على مقدماته يقال له : طارق بن زياد ، وكان فارسا همدانيا ، ويقال انه ليس بمولاه ، وانه من موالى صدف ، فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والموالي ، ليس فيهم عرب الا قليل ، فدخل في تلك الأربع السفن ، لاصناعة لهم غيرها ، وذلك في سنة اثنتين وتسعين . فاختلقت السفن بالرجال والخيل ، وضمهم الى جبل على شط البحر منيع فنزله والمراكب تختلف حتى توافي جميع أصحابه . وكان الملك - ملك اسبانيا - لما بلغته غارة طريف ، أعظم ذلك ، وكان غائبا قد غزا بنبلونة ، فأقبل منها وقد دخل طارق ، فجمع له جمعا ، يقال : انه مائة الف أو شبه ذلك .

فلما بلغ الى طارق كتب الى موسى يستمده ويخبره ان قد فتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البحيرة ، وانه قد زحف اليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به .

وكان موسى مذوجه طارقا أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل اليه خمسة آلاف ، فتوافي المسلمون بالأندلس ، عند طارق اثنا عشر الفا ، وقد أصابوا سببا كثيرا ورفيعا ، ومعهم يليان في جماعة من أهل البلد يدهم على العورات ، ويتحسس لهم الأخبار (١) .

ويستطرد مؤلف أخبار مجموعة في ذكر المعركة بين الطرفين ، وانهمزام أنباء المك غيطة ثم وقوع الدائرة على الملك لذريق واختفاء أثر هذا الملك والعثور على خفه في الطين ثم ينتقل بعد ذلك الى جهود طارق في فتح بعض المدن الأندلسية .

ويوافق ابن الكردبوس هذه الرواية في معالمها العامة وان اخبر ان طارقا « جاز بمراكبه الى جبل فارسي فيه فسمي طارق باسمه الى الآن ، وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، ووجد بعض الروم وقوفا في موضع وطبي كان عزم على النزول فيه الى البر ، فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلا الى موضع وعرفوطاه بالمجادف وبراذغ الدواب . ونزل منه في البر وهم

لا يعلمون غش غارة عليهم وأوقع بهم غنمهم ، ورحل نحو قرطبة بعد أن احرق المراكب وقال لأصحابه قاتلوا أو موتوا « (٢) .

أما المقرئ فانه يورد مختصرا لأخبار الفتح حسب مختلف الروايات وكلها تجمع على أن موسى بن نصير هو الذي التقى بحاكم سبتة ثم هو الذي ندب طارقا للقيام بفتح الأندلس (٣) وأن أضاف نقلا عن ابن خلدون معلومة جديدة يخالف فيها كل الآراء السابقة وهي خاصة بغزوة طريف فهو لا يجعلها سابقة لقيام طارق بالغزو وإنما حينما جاز طارق البحر وكان معه حوالي عشرة آلاف « فصيروهم عسكريين أحدهما على نفسه ونزل جبل الفتح ، فسمي جبل طارق به ، والآخر عليه طريف من مالك النخعي ، ونزل بمكان مدينة طريف فسمي به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن » (٤) .

ويوافق هذه الجلة من المؤرخين القدامى مجموعة أخرى من المحدثين في أن الحملة قد تمت بعلم موسى بن نصير وتخطيطه وبالموافقة الصريحة للوليد عبد الملك ، لكن هذه الصفوة من المؤرخين تقف عاجزة عن تفسير موقف موسى من طارق بعد عبور الأول إلى الأندلس وقيامه باهانة طارق ، ولجأت كلها إلى إرجاع ذلك الموقف إلى عوامل الغيرة التي تحركت في نفس موسى بن نصير نتيجة نجاح طارق في مثل هذا الفتح العظيم ، وهناك من شكك في هذا الموقف أصلا رافضاً أن يكون القائد الفذ موسى بن نصير من ذلك النوع الذي يمكن يترك كل عوامل الأيمان والاخلاص للإسلام من أجل نوازع الغيرة ويتسبب في إيذاء رجل مثل طارق بن زياد الذي جاهد وكافح حتى حقق للمسلمين نصراً عزيزاً غالباً وعلى أساس أن هذين الرجلين وغيرهما - من المسؤولين والجند سواء - كانوا يسعون لخدمة الإسلام ورفع رايته وهم على استعداد للبذل والتضحية التي عليها يحرسون (٥) .

أما التيار الذي ذهب إليه أيضاً مجموعة من المؤرخين القدامى ، وكان محور مقال عميق للاستاذ الدكتور حسين مؤنس نشره في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدير (العدد ١٨ سنة ١٩٧٥) بعنوان « رواية جديدة لفتح الأندلس » ، فانه يتحدث عن أن طارقاً بن زياد قد عبر إلى الأندلس دون إذن موسى بن نصير منتهزاً لفرصة أتاحتها له خوليان حاكم سبتة ، ونجح في هزيمة الملك لذريق ، وبعد ذلك كتب إلى موسى يخبره بالفتح ، فغضب موسى ، وكتب إليه يعنفه ويأمره بالتوقف ، وراسل الخليفة الوليد ناسباً هذا الفتح إلى نفسه .

واقدم المؤرخين الذين تحدثوا في هذه النظرية - على ما وصل إلينا - هو النص الذي نشر في تونس بتحقيق الاستاذ المنجي الكعبي منسوباً إلى إبراهيم بن الرقيق المتوفى في حدود سنة ٤١٧ هـ ١٠٢٦ م ، وتولى ديوان الانشاء لنصير الدولة باديس من أبي الفتح المنصور (٣٨٦-٤٠٦/٩٩٦-١٠١٥ م) ثالث الأمراء من بيت بني زيري الصنهاجيين في إفريقية ثم لابنه المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٣/١٠١٥-١٠٦٢) .

وعلى الرغم من الظلال التي القاهها الأستاذ محمد الطالبي على صحة نسبة هذا النص إلى ابن الرقيق وما تناوله الاستاذ الدكتور حسين مؤنس من قضية الشك واليقين في صحة النسبة ، إلا أنه تناوله على أنه « نص فريد في بابيه » (٦) ويؤكد أنها تقدم لنا شيئاً جديداً فعلاً ، وأنها تختلف عن كل ما لدينا في أكثر من موضع ، حتى يصل إلى القول : « وهذا الاختلاف يدعونا إلى أن نعيد النظر في الكثير مما لدينا من المعلومات عن فتح هذا القطر الكبير »

(٧) ، ولقد سبق لي الرد على هذه النقطة بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية (٨) ، ويورد النص المذكور مايلي :

« . . . ثم استعمل موسى بن نصير على طنجة طارق بن زياد مولاه ، وتركه بها في سبعة وعشرين رجلا من العرب واثنى عشر ألف فارس وهي العدة التي جعلها عليهم حسان بن النعمان ، وكانوا دخلوا الاسلام ، وحسن اسلامهم فتركهم موسى وانصرف بعسكره من العرب خاصة ، وأمر العرب السبعة والعشرين الذين ترك عند طارق بن زياد أن يعلموا البرابر القرآن ويفقهوهم في الدين ، ثم مضى الى افريقية . . . »

قال : وتحامل أصحاب طارق بن زياد ، عامل موسى بن نصير بطنجة ، على أهل البلد ، وأساءوا فيها ، وجاروا عليهم ، فكتبوا الى أهل الأندلس يعرفونهم بما يلقونه من جهة البربر وسوء سيرتهم .

فكان طارق يوما بطنجة اذ طلعت مراكب ، فأمكن لها المسلمون فلما أرست خرجوا اليها ، وأنزلوا أهلها قالوا : انا اليكم جئنا عامرين ، فاذا هم يعظمون غلاما حدثا منهم يقال له أليان ، فقال له طارق : ما جاء بك ؟ فقال : أنا ابن ملك الأندلس وليس بينك وبينها الا هذا الزقاق ، وأشار الى جبالها يريه اياها ، قال طارق : ما جاء بك ؟ قال له : ان ابني مات . ووثب على مملكتنا بطريق يقال له لذريق ، وبلغني أمركم ، وجئت اليكم أدعوكم اليها وأكون دليلكم عليها . وضع طارق اثني عشر ألفا من البربر ، فعزم طارق على غزو الأندلس واستنفر البربر ، فجعل أليان يحمل البربر في مراكب التجار التي تختلف الى الأندلس ، ولا يشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون الا انها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من معاشهم ومتاجرهم ، فجعل ينقلهم فوجا فوجا الى الأندلس . وقد تقدم أليان الى أصحاب المراكب الا يعلموا بهم ، وقال لقومه : اني توثقت لكم ، فاعلموا انها دولة العرب ، وهم يملكون الأندلس ، ودعاهم الى ان يأخذوا نصيبهم منها ، فأعجبهم ذلك ، ورغبوا فيه ، وكتب لهم طارق بالأمان على أنفسهم وذرائعهم وأموالهم . فلما لم يبق لهم الا فوج واحد ، ركب طارق ومن بقي معه ، فجاز الى أصحابه ، فنزل بهم جبلا من جبال الاندلس ، حريزا منيعا فسمى ذلك الجبل من يومئذ جبل طارق فلا يعلم الا به - وموسى بن نصير لا يعلم شيئا من هذا « (٩) .

ثم ينتقل المؤلف الى الحديث عن المعركة ، ونتائجها ، وعن دخول طارق بن زياد الى قرطبة حتى يصل الى القول :

وبلغ موسى بن نصير ان طارقا بن زياد فتح الاندلس ودخلها فخاف أن يحظى بذلك عند الخليفة ، فغضب غضبا شديدا ، وكتب اليه يعنفه اذ دخلها بغير أمره ، وأمره الا يجاوز قرطبة وأمر موسى الناس ورحل معه وجوه العرب ، وكان مخرجه في رجب سنة ٩٣ هـ « (١٠) .

ويؤكد الحميدي المتوفي سنة ٤٨٨ هـ هذه الرواية حيث يقول :

« فأما أول افتتاحها ففي سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، في القرن الثاني الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه خير القرون بعد قرنه ، وأما الذي تولى فتحها ، وكان أمير الجيش السابق اليها فطارق بن زياد ، وقيل ابن عمرو ، وكان واليا على طنجة : مدينة من المدن المتصلة ببلاد القيروان في اقصى المغرب ، بينها وبين الاندلس قيا يقابلها خليج من البحر يعرف بالزقاق وبالمجاز ؟ رتبة موسى بن نصير أمير القيروان . وقيل ان مروان بن موسى خلف طارق هناك على العساكر ، وانصرف الى ابيه لأمر عرض له ، فركب طارق البحر الى الاندلس من جهة مجاز الخضراء منتهزا

لفرصة أمكنته ، فدخلها وأمن فيها ، واستظهر على العدو بها ، وكتب الى موسى بن نصير بغلبته على ماغلب عليه من الاندلس وفتحها وماحصل له من الغنائم ، فحسده على الانفراد بذلك ، وكتب الى الوليد بن عبد الملك بن مروان يعلمه بالفتح ، وينسبه الى نفسه ، وكتب الى طارق يتوعده بغير اذنه ، ويأمره ان لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، وخرج متوجها الى الاندلس ، واستخلف على القيروان ولده عبد الله وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين « (١١) » .

ان الحيرة لتستبد بالباحثين أمام هذه النصوص الغير قابلة للتأويل وتزداد بصورة شديدة عند طرح التساؤل لماذا يحدث ذلك في فتح الاندلس دون غيره من بقية أقاليم العالم الإسلامي التي تم فتحها قبل الاندلس او خلال الفترة المعاصرة له ؟ وليس ذلك فحسب ، بل ان ذلك يدفعني للعودة الى مناقشة العبارة التي اطلقها ذوو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب (٧١٢/٧٧٦ هـ - ١٣١٣/١٣٧٤ م) حين تعرض لفتح الاندلس قائلا :

«وحدث الفتح ، وما من الله به على الاسلام من المنح ، وأخبار ما أفاد من الخير موسى بن نصير ، وكتب من جهاد لطارق بن زياد ، مجلول قصاصي وأوراق ، وحديث أقوال واشراق ، وارعاد وابراق ، وعظم امتشاش ، وآلة معلقة في دكان قشاش » (١٢) .

لماذا اطلق ابن الخطيب هذه العبارة الحاسمة ؟ هل فعلا لوفرة ماكتب عن هذه القضية انه لم يجد هناك مجال لكي يطرس فيه بقلمه بضعة صفحات او ينقل البناء عدة روايات ؟ ان المطالع لمؤلفات ابن الخطيب يجد انه لا يتردد في الترجمة الشخصية الواحدة اكثر من مرة في اكثر من كتاب ، كما انه يردد لترجمات سبقت الاشارة اليها في كتب سابقة دون ان نجد في التكرار غضاظة أو مانعا من العودة لنفس الشخصية أو رواية نفس القصة ، اذن ماذا ؟

هل يمكن القول بأن الخطيب قد رأى امامه هذا الكم الهائل من الروايات والقصص المتضاربة أحيانا ، والمتوازية أحيانا أخرى والمتكررة في أحيان كثيرة ، فلم يحاول التوفيق بينها ، أو لم يجد أمامه الوقت الكافي لتحليلها والوصول الى القول الفصل فيها فضرب بها جميعا عرض الحائط ، وتوقف عن الخوض فيها ، مطلقا عبارته تلك ليتهرب من الموقف ؟ أم أنه لم يكن بين يديه من المصادر والمراجع مايساعده على التوصل الى الحقيقة فترك ذلك بحجة كثرة الكلام فيه ؟ لست أدري

ليست هذه النقطة هي قضية الخلاف الوحيدة في هذا الفتح ، وانما كما قلت هناك غيرها كثير .

وضع طارق بن زياد ومكانته :

اختلفت المصادر الاصلية حول الوضع الذي كان فيه طارق بن زياد ومكانته ، فجعله الحميدي واليا على طنجة أو نائبا عن واليها مروان بن موسى بن نصير ونص ابن الرقيق المشار اليه يجعله عاملا عليها من قبل موسى بن نصير والى ذلك ايضا يمضي ابن خلدون (١٣) اما ابن عبد الحكم (١٨٧-٢٥٧ هـ / ٨٠٣-٨٧١ م) ، فانه على الرغم من تأكيد ان طارقا كان واليا على طنجة نيابة عن موسى بن نصير الا انه يورد لنا نصا مختلفا عن ماسبق يقول فيه ان طارقا كان مقبلا بتلمسين - من بلاد الجزائر الحالية - وهناك حدث اللقاء بينه وبين يليان حاكم سبتة وتم الاتفاق على دخول العرب الى الاندلس ، يقول ابن عبد الحكم حين حديثه عن يليان : فبعث الى طارق - أي يليان - أنني مدخلك الاندلس ، وطارق يومئذ بتلمسين ، وموسى بن نصير بالقروان ، فقال طارق : فاني لا أطمئن اليك ، حتى تبعث الى برهينة « فبعث اليه بابنتيه ، ولم يكن له ولد غيرها فأقرهما طارق بتلمسين واستوثق منها ، ثم خرج طارق الى يليان وهو بسبتة على المجاز ، ففرح به حين قدم عليه وقال له : « انا مدخلك الاندلس » وكان فيما بين المجازين جبل يقال له اليوم جبل طارق

٦٤
فما بين سبته والاندلس ، فلما أسمى جاء يليان بالمرابك فحمله فيها الى ذلك المجاز فاكمن فيه نهاره ، فلما أسمى رد المراكب الى من بقي من أصحابه ، فحملوا اليه حتى لم يبق منهم أحد .
ويتحدث بعد ذلك عن انتصار طارق على القوط ، حتى يصل الى القول : وكتب الى موسى بن نصير بفتح الاندلس ، وما أصاب من الغنائم فكتب موسى الى الوليد بن عبد الملك يعلمه بذلك ونحله الى نفسه وكتب موسى الى طارق الا يتجاوز قرطبة حتى يقدم عليه وشتمه شتما قبيحا (١٤) .

شخصية حاكم سبته :

تباينت المصادر العربية في تناولها لهذه الشخصية وفي الدور الذي قامت به ، ودوافعها الى ذلك ، وأجمعت كلها على اسناد دور أساسي لهذه الشخصية في عملية فتح الأندلس . ويقول عنها الدكتور حسين مؤنس بأن « المراجع قد اختلفت حول يليان هذا اختلافا عظيما فبعضها يزعم انه قوطي وبعضها يزعم انه رومي ، وبعضها الآخر يزعم انه بربري من عمارة ، لكنها تتفق جميعا على انه كان صاحب سبته وما حواليتها ، وأن سلطانه كان عظيما على من كان يجاوره من البربر ، وأن صلات من السود كانت تربطه بلندريق ملك الأندلس » (١٥) .

ثم يستطرد بعد ذلك مستعرضا آراء دوزي وكوديرا وسافدرا الى أن يخلص الى القول بأنه كان حاكما بيزنطيا على اقليم مرطانية الطنجية تقطعت به الصلات مع بيزنطة ومن ثم عقد صلات قوية مع البربر حتى ظنه الناس بربريا . وبالإضافة الى ذلك فانه يورد آراء المؤرخين القدامى مثل ابن خلدون ، وابن عذاري وابن الأثير (١٦) .

ورد اسم حاكم سبته على أنه « يوليان » في كل من أخبار مجموعة وعند ابن الحكم وابن الشباط ، وسابريهم على ذلك معظم المؤرخين لكن القطعة المنشورة نسبا الى ابن الرقيق جعلته « اليان » وكتب الاسم في كثير من المؤلفات الحديثة على أنه « جوليان » ولم نعدم الآن من يكتب الاسم « خوليان » .

رواية غريبة :

أجمعت كل المصادر القديمة على أن يليان كان حاكما لمدينة سبته فيما عدا ذلك النص المشار اليه فانه يقول : « فكان طارق يوما بطنجة اذ طلعت مركب . فأكمن لها المسلمون فلما أرست خرجوا اليها ، وأنزلوا أهلها . فقال أهلها : انا اليكم جئنا عامدين ، فإذا هم يعظمون غلاما حدثا منهم يقال لهم أليان ، فقال له طارق : ما جاء بك ؟ فقال أنا ابن ملك الأندلس وليس بينك وبينها الا هذا الزقاق وأشار الى جبالها يريه أياها . قال طارق : ما جاء بك ؟ قال له : ان ابي مات . ووثب على مملكتنا بطريق يقال له لذريق وبلغني أمركم ، وجئت اليكم أدعوكم اليها ، وأكون دليلكم عليها » (١٧) .

ويثير هذا النص آراء لم يسبق القول بها في أي مصدر آخر ، فهو لم يقتصر على تغيير الاسم فحسب ، وإنما جعله ابنا من أبناء ملك القوط المخلوع ، الملك غطيشة . ويقوم الدكتور مؤنس بدراسة هذه القضية مؤكدا بأننا لانعرف أحدا من أبناء غطيشة يتسمى بهذا الاسم أو قريبا منه ، ثم يصل الى استنتاج مفاده انه من الممكن أن يكون « اليان » هذا ابنا لـ « يليان » واعتماد على هذا النص فانه يقول : ان يليان الأول صاحب عقبة بن نافع كان من أتباع غطيشة واصحابه ، ولهذا اجتهد في صرف عقبة عن غزو الأندلس ، ونصحه بالاتجاه الى الجنوب ومواصلة غزو البربر ، وأصبح بعد ذلك حليفنا

للمسلمين معاهدا لهم . فلما وثب لذريق بغيطشة وأولاده وأنصاره أسرع هذا الشاب « اليان » الذي نفترض انه ابن يليان الكبير الى العرب وحرضهم على غزو الاندلس ، واشترك معهم في ذلك انتقاما من لذريق « (١٨) » .

مفاجأة غريبة :

وأغرب المصادفات التي واجهتني اثناء دراستي لهذا الموضوع هو ماورد في رواية أدبية بعنوان « يوليان في الاندلس » كتبها الاستاذ : احمد عبد المنعم عبد السلام الحلواتي وكيل فرع يتك التسليف الزراعي المصري وصدرت في مايو ١٩٣٩ م .

تدور هذه الرواية عن الأندلس قبل الفتح وخاصة ماكان يجري في الأسرة الحاكمة . وتجعل الرواية من « جوليان » حاكم سبته أخا شقيقا للملك غيطشة تعرض لظروف قاسية ترتب عليها نفيه الى سبته نتيجة اقدمه على زواج لم تعترف به الأسرة المالكة . وكانت ثرة هذا الزواج غير الشرعي ابنا اسمه « يليان » وبما أن جوليان الكبير كان يتوقع مصيراً سيئاً بسبب انتقال ولاية العهد الى ابن الملك غيطشة ابنا كان اسمه « يليان » وبما أن جوليان الكبير كان يتوقع مصيراً سيئاً بسبب انتقال ولاية العهد الى ابن الملك غيطشة وحرمانه شخصياً من ذلك ، علاوة على خشيته على مصير ولده الذي لا يعلم بميلاده أحمد ، فقام في غيبة الوصيفات بسرقة ابن الملك غيطشة ووضع مكانة ابنه . وأرسل ابن غيطشة الى برشلونة تحت اسم « درمس » وهو اسم ابنه هو .

وتدور الصراعات والمؤامرات في القصر الملكي ، ويتم ابعاد « جوليان » الى سبته ليقيم هناك . ويسقط العرش من تحت اقدام الملك غيطشة ، ويستولي لذريق على الملك ، ويهرب أولاد غيطشة « المند وأرطباش ومعهم يليان على أنه أخاهم الثالث ، الى سبته ويقيمون مع عمهم هناك بعيدا عن اضطهاد لذريق .

ثم تدور أحداث الرواية المذكورة بالطفل « درمس » الابن الحقيقي لمك الأندلس الملك غيطشة ، فتلقى به في معترك الحياة ، وينتقل من مكان لآخر حتى يصل الى المغرب العربي ويتعرف هناك على العرب وخاصة على طارق بن زياد ، ويحببه محبة كبيرة ويقيم في ضيافة طارق عدة أيام ، ولس عن قرب صفات العرب الحميدة وسجاياهم الطيبة ويشتاقي لو كان هؤلاء هم حكام اسبانيا ، بدلا من الظلمة الذين يتولون الأمور هناك .

وتلقى المقادير بعد ذلك بدرمس على اعتاب قصر عمه جوليان في سبته دون أن يعرف انه عمه أوصله القريب التي تربطه به ، بعد أن كان قد أشرف على الفرق .

أما جوليان فانه بعد أن كتم سر فعلته سنوات طويلة وكان قد أصبح متقدما في السن ولم يعد يقوى على الكتمان فانه باح بالسر لزوجه وابنه الحقيقي الذي كان يعيش معه على انه ابن اخيه ، ثم أخبر ولدي أخيه الموند وأرطباش ، وحين كان حزنها شديدا على اخيهما الغائب اذا بالامواج تلقى به على شاطئ القصر ، ويتعرف عليه جوليان بواسطة صليب كان قد علقه في صدره قبل أن يرسله طفلا الى برشلونة .

وفي مشهد مؤثر يعترف جوليان ليليان بما قام به حين خطفه وأرسله الى برشلونة ووضع مكانه ابنه ، وأعلمه أنه ليس في الحقيقة الا ابن ملك الاندلس الراحل غيطشة وهنا تطلع يليان باعتباره ولي العهد الشرعي الذي غضب حقه الى مساعدة العرب في الاقتصاص من لذريق ووضع اموره على ذلك وتقول الرواية بالنص :

« ثم انه - أي يليان - دبر خطته مع الموند وأرطباش ، وابن عمهم درمس ، واتفقوا على أن ينضموا لجيش لذريق ، ويظهروا له الأخلاص والتفاني في حروب أعدائه حتى يثق تمام الثقة وأن يجاهروا عمهم بالعداء حتى تتم الحيلة ، كما أنه أوصاهم باليقظة والحذر من غدره الى ان تحين الفرصة ، ولم يخبرهم عن بقية خطته ، فتم له ماأراد من هذه الناحية وكان في

عزمه أن يمهد للعرب في حكم الأندلس لانهم أجدر الناس به وكان يمهد الطريق سرا فما أحسنت خطته التي رسمها نجحت في خطواتها الأولى ، وصار السفر اليهم ميسورا إذ أعد جملة سفن لتقلهم من طنجة الى الجزيرة الخضراء سافر بنفسه لمقابلة صديقه طارق ، فلما وصل اليه أكرم وفادته ، ولقيه لقاء كريما « (١٩) » .

ثم تتحدث الرواية بعد ذلك عن مدار بين يليان وطارق ، وتشجيع يليان لطارق على غزو الأندلس ، ثم تتوالى الأحداث بعد ذلك كما هو معروف في الوقائع التاريخية .

قرأت هذه الرواية ، واستوقفتني مسار هذه الأحداث التي ركبها المؤلف « احمد عبد المنعم الحلواني » ونشرها في منتصف عام ١٩٣٩ ، وتطابق هذه الوقائع تماما مع ما نشر في الرواية المنسوبة الى ابراهيم الرقيق والتي ظهرت في تونس سنة ١٩٦٨ ، وعلق عليها الدكتور مؤنس بمجلة المعهد المصري بمديرد سنة ١٩٧٥ .

هناك ثلاثون سنة كاملة سبق بها كاتب هذه الرواية في ابراز تصويره لحقيقة الفرق بين « جولييان » و « يليان » أو بين « يليان » و « اليان » قبل ان تظهر مخطوطة تونس وتتحدث عن « حدث يعظمونه » هو « ابن ملك الاندلس » ترى من أين جاء الكاتب بهذه المعلومات ؟ انه يؤكد في المقدمة « انه جعل ادوار قصته تطوف حوادث هذه الأيام يقصد أيام فتح الاندلس - فوجدت روايات متعددة عن حوادث فيها اختلاف كبير » (٢٠) .

هل كانت تحت يده روايات أو مصادر لم تصل إلينا ؟ ان ذلك يحيلني مرة اخرى على عبارة ابن الخطيب الشهيرة عن فتح الأندلس لماذا اطلقها وأرسلها هل لوفرة المصادر أم لضآلتها وتدرتها

دوافع خليان :

وتختلف المراجع أيضا في الدواعي والأسباب الدافعة لكي يقوم خليان بدعوة العرب الى دخول اسبانيا ، وتقصد بذلك خولييان « صاحب سبته » ، وهناك تحييلات ثلاث لدوافع ما قام به هذا الحاكم :

أ - انه ربما لم يكن أكثر من مجرد حليف لآل غيطشة الذين بطش بهم الملك لذريق واضطروهم الى الهرب هنا وهناك ولجأ بعضهم بالطبع الى سبته حيث يحكم أحد انصارهم وهو لذريق ، وبالطبع فان خولييان تخوف هو أيضا من حكم لذريق ، وتخوف عاقبته فعمل على مساعدة آل غيطشة بدعوة العرب لدخول الاندلس ، وفي ذلك محاولة لاستعادتهم سلطتهم التي غصبها لذريق ، ولاشيب عن بالنأ بالطبع انه من المحتمل ان عبور العرب الى الاندلس كان بقصد المساعدة لآل غيطشة فحسب دون التفكير في الاستقرار الدائم في الاندلس (٢١) .

ب - ويرى ابن الكردبوس أن « يليان » ، صاحب سبته كان من خواص الملك لذريق ووجوه رجاله ، فأنفذ ابنته اليه في طليطلة ، فكانت في قصره ، وكان يزوره جليان مرة في العام في أغشت - أغسطس - يهدايا وأطاف وطيور للصيد وكانت بنته من أجل النساء ، فوقع عين لذريق عليها وهو سكران ، فواقعها وافترضها ، فلما صبح وأخبر بذلك ندم وأمر بكنم ذلك ، وأن تمنع الصبية ابنة جليان من أن تخلو بأحد فتحده أو تكتب معه كتابا الى أبيها فلما لم تتمكن الصبية من أن تخلو بأحد فتحده أو تكتب معه كتابا الى أبيها ، فلما لم تتمكن الصبية من شيء ، أنفقت الى أبيها هدية عظيمة وفي جملتها بيضة مفسودة فلما رآها جولييان أنكروها وعلم أن ابنته أفسدت ، فجاز اليه في خلاف الوقت المعهود وذلك في شهر يناير ، فقال لذريق ، ما جاء بك في هذا الشتاء الحاد ؟ فقال له جئت لابنتي فان أمها مريضة وتخاف المنية فقالت لي لا بد ان أرى ابنتي وأتشفى منها . فقال له : وهل نظرت لنا في طيور ؟ فقال قد نظرت لك في صيد طيور لم ير مثله قط ؟

وأنا أتيتك بها عن قريب ان شاء الله . يعني بذلك العرب . فأخذ ابنته وانصرف ومضى من فوره الى افريقية الى الأمير موسى بن نصير . . . « (٢٢) .

وتجمع كافة المصادر على الرواية لهذه القصة وان تنوعت في الاسلوب والعرض ولا نعدم من بين المؤرخين المحدثين ، الاسبان والعرب ، من ينقيها وينسبها الى خيال الوراة العرب ، وخاصة ان لها أكثر من شبه مواضع أخرى من الاقاليم الاسبانية .

ج - اما المجموعة الثالثة من دواعي خليان - عند بعض المؤرخين - فانها تجمع بين سابقيتها ، وتتحدث عن أن أبناء الملك غيطشة وانصاره كانوا قد هربوا وتشتتوا في كل مكان ، ومنهم من لجأ الى خوليان - حاكم سبته - مما تسبب في تدهور العلاقات بينه وبين الملك لذريق ، ثم كانت حادثة ابنته فزادت العلاقات سوءا وتدهورا حتى صمم خوليان على الاستعانة بالعرب للقضاء على لذريق ، ومن ثم كان تصميمه على ادخال العرب الى الاندلس .

والغريب ان عبد الواحد المراكشي في كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » يقص علينا رواية مختلفة تؤيد الفرض القائل بأن طارقا عبر الاندلس دون رأي موسى ابن نصير منتهزا لفرصة أمكنته ، وهي خلوص منطقة الجزيرة الخضراء ومن ثم فهو لا يتحدث عن خوليان « صاحب سبته » وإنما يتحدث عن عالج « صاحب الجزيرة الخضراء وأعماها » ثم يحكى نفس قصة الاغتصاب على انها وقعت لابنة « صاحب الجزيرة الخضراء وأعماها » . يقول نص المراكشي : « وقيل ان مروان بن موسى بن نصير ، خلف طارقا هناك على العساكر وانصرف الى ابيه لأمر عرض له ، فركب طارق البحر الى الاندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء ، منتهزا لفرصة أمكنته ، وذلك ان الذي كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعماها من الروم ، خطب الى الملك الأعظم ابنته ، فأغضب ذلك الملك ، ونال منه وتوعده فلما بلغه ذلك جمع جموعا عظيمة وخرج يقصد بلد الملك ، فبلغ طارقا خلوتك الجهة ، فهذه الفرصة التي انتهزها . . . « (٢٣) .

معركة وادي لكة :

اذا ما تبينا وفرة الآراء وكثرتها حول أسباب الفتح ، وشخصياته ، فانه من الطبيعي ان تغطى المعركة الكبرى التي ترتب عليها دخول الأندلس ضمن الدولة الاسلامية ، بنصيب وافر من اختلاف الآراء حول مكانها ومسير ابطالها ، وخاصة الملك القوطي لذريق ، وهل قتل في أول لقاء مع طارق بن زياد أم أنه تمكن من النجاة حتى قتل في لقاء آخر ؟ ولست أجد داعيا لمناقشة كل هذه القضايا حيث انها استوعبت تماما على يد اساتذة أفاضل ويكفي الاحالة على الدراستين العميقتين لكل من الاستاذ أحمد مختار العبادي (٢٤) والاستاذ الدكتور حسين مؤنس (٢٥) .

فتح قرطبة :

اختلفت الآراء أيضا حول فتح قرطبة ومن الذي فتحها ، وعن وضع المدينة قبل الفتح والتيارات الجارية عن هذه النقاط تتباين بشدة وان كان وجه التباين يمكن تفسيره بحيث يلغي هذا التباين ، ولنبدأ بالقضية الأولى ، قضية فتح المدينة :

يقول صاحب كتاب أخبار مجموعة ، بعد حديثه عن معركة الفتح ، بأن يليان طلب من طارق بن زياد بعد انتصاره في المعركة ، أن يفرق جيوشه في انحاء الأندلس ، وأن يتجه هو - أي طارق - الى طليطلة ، فبعث طارق مغينا الرومي الى قرطبة في سبعمائة فارس وتمكن مغيث بعد ذلك من احتلال المدينة ، بعد مقاومة شديدة (٢٦) .

ويتبع هذا القول كثير من المؤرخين ، حتى بدا وكأنه الحقيقة الكاملة النهائية وإذا بالمقالة التي نشرها الدكتور حسين مؤنس عن قصة جديدة لفتح الأندلس ، تعطي تصورا جديدا لفتح المدينة على يد طارق بن زياد ، حين يقول : ودخل طارق قرطبة ، فأصاب فيها من الدر والياقوت والذهب والفضة مالم يجتمع مثله قط ، وأصاب من الحرير « (٢٧) .

ولقد دفعني ذلك الى البحث في المراجع الأصلية مرة أخرى لأرى صحة هذا الخبر وكانت المفاجأة ان كثرة لابس بها من من هذه المراجع تشير الى هذه القضية مؤيدة قيام طارق بفتح المدينة ، فعلاوة على النص المشار اليه عالياه والمنسوب الى ابن الرقيق نجد المراكشي أيضا يقول :

« ثم دخل طارق هذا الى الأندلس وأمن فيها ، واستظهر على العدو بها وكتب الى موسى بن نصير بخبر الفتح وغلبته على ماغلب عليه من بلاد الأندلس ، وماحصل له من الغنائم ، فحسده موسى على الانفراد بذلك ، وكتب الى الوليد بن الوليد الملك بن مروان يعلمه بالفتح وينسبه الى نفسه ، وكتب الى طارق يتوعده ، اذ دخلها بغير اذنه ثم يصل الى القول - ووصل - اي موسى من جهة المجاز الى الأندلس وقد استولى طارق على قرطبة ، دار السلطنة ، وقتل لفریق الملك ، والي مثل هذا سبق الحميدي وتحدث عن فتح طارق شخصيا لقرطبة .

ان محاولة التوفيق بين هذه الروايات قضية صعبة ، الا اذا كان من الممكن القول بأن من نسب فتح المدينة الى طارق ، لم يكن يقصد قيامه شخصيا بهذا الفتح وانما المقصد هو أن كل الأعمال التي قامت بها الجيوش الخاضعة له تمت تحت امرته وموافقته ومن ثم تنسب اليه وعلى ذلك فان من قال بأن طارقا هو الذي فتحها ، يقصد انه هو الذي أمر بفتحها وان الذي تولى هو مغيث الومي .

اما مكانة المدينة ، فان اجماع المؤرخين قد قام على أنها كانت ولاية هامة اما عاصمة المملكة فقد كانت طليطلة ، ولعل اللبس في كونها العاصمة عند بعض المؤرخين أنها أصبحت العاصمة الاسلامية ، وأنها قد وصلت الى درجة عالية من الرقي والتقدم في العهد الاسلامي . هذه هي بعض الاختلافات في قضايا فتح الأندلس أردت فقط طرحها للنقاش والمجادلة لعلنا نصل الى الحقيقة .

ذكر بلاد الأندلس لمؤرخ مجهول تحقيق : د . لويس مولينا

عرض : د. محمد عبد الحميد عيسى
جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية

من بين المخطوطات المصورة ، تحتفظ مكتبة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد بالمخطوط رقم ٣٦ وان «ذكر بلاد الأندلس» لمؤلف مجهول ، أما المخطوط الأصلي لهذه الصورة ، فيوجد بالخزانة العامة رباط ويحمل رقم ٨٥ جـ من مجموعة «الغلاوي» ويتكون من ٨٩ ورقة .
ولقد ظل هذا المخطوط كامنا بعيدا عن النشر رغم أنه كان واحداً من أكثر المصادر التاريخية الأندلسية روا بين ايدي الباحثين ، كما قام الاستاذ الدكتور حسين مؤنس بنشر بعض قطع منه في مقالات له بمجلة معهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد منذ عام ١٩٦٣ م . وبعد ذلك وعد أكثر من واحد من الباحثين غرب والاجانب بنشره دون أن يتعدى ذلك مجرد الوعد الى التحقيق الفعلي الى ان قبض الله له الباحث سباني المتخصص في الدراسات العربية «لويس مولينا» لكي يتخذ من دراسته وتحقيقه موضوعا لرسالته كتوراه ، وقام بترجمة النص الى اللغة الاسبانية وحصل بذلك على أطروحته في يونية من عام ١٩٨١ م . كما ل المجلس الاعلى للبحث العلمي بأسبانيا على نشرها في عام ١٩٨٣ م .

المؤلف المجهول :

وقف الباحثون حيارى كثيرا أمام هذا الكتاب متسائلين عن مؤلفه الذي نجح في اخفاء شخصيته واخفاء كل يدل عليه ، كما أنهم أيضا لم يتمكنوا من التحديد الفعلي لزمن كتابته ، أو تاريخ نسخه ، وأنقل إلى القراء عزاء ملخصا معربا من الدراسة الاسبانية التي قام بها صديقي العزيز الدكتور «لويس مولينا» للتقديم لهذا كتاب حيث بين أن المشكلة الحقيقية التي تواجه الباحث في هذا الكتاب تكمن في عدم وجود أية اشارة تدل على م الكتاب الحقيقي أو على مؤلفه ولقد ظل هذا الكتاب مهملا حتى القرن السابع عشر الميلادي حين بدأ «قري» مؤرخ تلمسان الذائع الصيت في وضع كتابه الرائع «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» ولكن ن أية اشارة الى مؤلفه .

وتشير الدلائل الى ان الرجل الذي صاغ كتاب «ذكر بلاد الأندلس» ليس هو مؤلفه الحقيقي ، بل من الممكن ول بأنه لا يعدو ان يكون مجرد ناسخ فحسب قام بنقل هذه النصوص من كتاب أقدم . وإذا كان قد نجح في جب شخصيته عن جميع الناس ، فإن الامر يزداد غموضا وطرافة إذا ما قلنا إن هناك صعوبة أكبر : ألا هي تحديد تاريخ كتابة هذا المؤلف .

من أطرف ما يثير فضول الباحث وغيظة في نفس الوقت أن الرجل نجح في اخفاء شخصيته تماما ، وانه حرص بشدة على عدم القاء أي شعاع من الضوء يسمح باستكشاف اسمه أو موطنه أو أي شيء عن شخصيته .

الشيخ احمد بن محمد المقرئ التلمساني ، صاحب كتاب «نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب» المتوفي عام ١٠٤١هـ بمصر ، يعد من أحسن من احتفظ لنا بكتاب عام عن تاريخ الأندلس ، هو المرجع الأساسي لجميع الباحثين والدارسين في هذه الحقبة التاريخية ، ولقد أشار مرارا الى كتاب «الذكر» ناقلا منه بعض رواياته ، ورغم قرب «المقرئ» من العصر وذاكرته القوية إلا أنه كان يشير الى مؤلف هذا الكتاب بقوله «صاحب كتاب الجغرافيا» و «أحد العلماء» و «أحد مؤرخي الأندلس» و «مؤرخ» و «مؤرخ متأخر» و «مؤرخ مغربي» ، وهذه اشارات - باستثناء الأخيرتين - غامضة لا تدل على شيء فاذا كان ذلك هو حال المقرئ - العالم الثقة - المشهور بدقته في التحري وعلميته وسعه اطلاعة ، فمما لاشك فيه أن هذا المؤلف بالفعل مجهول الاسم والكنية ولا يحتمل التعرف عليه ، لكن ماذا تعني عبارتي : «انه متأخر» و «مؤرخ مغربي» ؟

أما الوزير الغساني والذي قام بسفارة نيابة عن سلطانه في المغرب الى بلاط ملك اسبانيا «كارلوس الثالث» من أجل استرداد مكتبة مولاي زيدان التي استولى عليها الاسبان من سفينة فرنسية كانت قد هربت بها من المغرب ، ولقد سجل أحداث سفارته هذه في كتاب قيم يعرف باسم «رحلة الوزير في افتكاك الأسير» ، وضمن «الغساني» كتابه كثيرا من المعلومات عن الأندلس ومدنه الاسلامية ، وأشار مرارا الى كتاب «الذكر دون تحديد لاسم كاتبه أو مؤلفه» .

الملاحظة الوحيدة التي يمكن ان تلقى بصيصا من الضوء على شخصية كاتب «الذكر» فهي في قول المقرئ «انه متأخر» و «مؤرخ مغربي» فكون المؤلف متأخرا سوف نتناوله في تحديدنا لفترة كتابة المخطوط ، أما أنه «مغربي» فاننا نميل الى ذلك مع المقرئ لوجود عدد من المؤشرات الاخرى التي تؤيد ذلك الفرض منها :
١- الاهتمام الكبير الذي يتجلى على صفحات الكتاب لذكر مدينة «فاس» مما قد يوحي بأن المصدر الاصلي لهذا الكتاب كان مؤلفا «فاسيا» .

٢- العلاقة الوحيدة التي تربط بين المؤلفين اللذين استعملا كتاب «ذكر بلاد الأندلس» ونقصد بهما المقرئ والغساني ، هي تواجدهما في مدينة فاس في فترة من حياتهما فالأول عاش فيها ردها من الزمن ، أما الثاني فكانت المدينة مقرا لشواه الأخير مما يمكن أن يوحي لنا بأن مخطوط الذكر كان بهذه المدينة .
٣- أهم مركزين للثقافة الاسلامية عن عصر بني مرين كانا في مدينتي فاس ومراكش الى درجة أن كلا منهما قد برزت بنفسها كمركز علمي متميز . وفي الوقت الذي تكثر الاشارات في المخطوط عن مدينة فاس وقضائها ، لا يظهر اسم مدينة مراكش في أي صفحة من صفحات الكتاب ، مما يوحي بانتماء المؤلف الى هذه المدينة العريقة .

تاريخ كتابة «الذكر»:

حاولنا في السطور السابقة التحديد المكاني لكاتب هذا النص ، ولنحاول الآن إلقاء بعض الضوء على الفترة التي كتب فيها النص .

نستطيع ان نقول باطمئنان أن كتاب «ذكر بلاد الأندلس» لا يمكن ان يكون مكتوبا قبل سقوط مدينة الجزيرة الخضراء في ايدي المسيحيين ، ولا أن يكون متأخرا عن سقوط مدينة المرية . بتوضيح أكثر نعتقد أن

الكتاب من أبناء النصف الثاني من القرن الرابع عشر أو بدايات الخامس عشر الميلاديين .
وتحديد الفترة بدقة أكثر أمر بالغ الصعوبة ، كما أن المصادر التي استعان بها الكاتب في صياغة مؤلفه لا
تستطيع أن تقدم لنا أية مساعدة في هذا المجال ، لأن أحدثها يرجع الى ما قبل النصف الثاني من القرن الرابع
عشر الميلادي ، وهو كتاب ابن رشيق الذي مات بعد سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م .
القراءة المتأنية لمحتوى الكتاب لا تساعد أيضا في القاء أي ضوء يمكن أن يكشف عن تاريخ كتابته ، وإن
كانت بعض الفقرات لها من الدلالات ما يشير الى بعض المعلومات ونقصد بهذه الفقرات الأحاديث التي تتناول
فضل الأندلس .

سوف يجد القارئ المتمعن ان العدد الأكبر من هذه الأحاديث الواردة في الكتاب تشير الى الثواب العظيم
الذي ينتظر الشهداء ومن جادوا بأرواحهم دفاعا عن الاسلام على أرض الأندلس .
فاذا وافقنا على أن الإشارة الى هذه الأحاديث لم يكن مصادفة بقدر ما كان هدفا مقصودا لذاته ، فانه يمكن
ان يقدم لنا بعض الدلالات في تحديد فترة صياغة الكتاب .
واذا كنا قد حددنا أنه كتب بعد سقوط الجزيرة الخضراء في عام ٧٤٤ هـ / ١٣٤٤ م ، وقبل سقوط المرية في
عام ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م فعلينا أن نبحت على مدار هذه الفترة الطويلة عن لحظة معينة يتحقق فيها شرطان : أن
تكون المملكة النصرية في غرناطة معرضة لخطر شديد ، وأن تكون مملكة بني مرين على استعداد لمساعدة
أشقائهم في الدين في بلاد الأندلس ولديهم الرغبة في ذلك . فإذا كان الشرط الأول قد ظل حاضرا باستمرار على
مدار هذا القرن ونصف القرن الذي تلاه بالنسبة للمملكة النصرية ، لمواجهة أعداء الاسلام باستمرار ، فإن
الحال لم يكن كذلك باستمرار بالنسبة لبني مرين لأن سقوط الجزيرة الخضراء في أيدي المسيحيين والهزيمة
التي لاقاها بنو مرين في معركة طريف قد وضعا حدا معيناً لتدخل بني مرين المباشر في الحروب ضد المسيحيين
في الأندلس ، ومع ذلك فلن نعدم على مدى هذه الاعوام الطويلة ، توافر هذين الشرطين احيانا بصورة واضحة ،
وذلك ابان حكم السلطان النصري محمد الخامس والمريني عبدالعزيز ، فأولهما خشية مواجهة حملة صليبية
ضد مملكته في غرناطة طلب مساعدة بني مرين ورحب بذلك السلطان عبدالعزيز ونادى بالجهاد في المغرب ومن
المحتمل قيام الاسطول المريني بمعاونة الغرناطيين في استرداد مدينة الجزيرة الخضراء في عام ٧٧٠ هـ
/ ١٣٩٩ م . ولكن جاء موت السلطان المريني عبدالعزيز ليضع حدا نهائيا لتدخل بني مرين في الأندلس .
فهل هذه الأعوام هي أعوام كتابة هذه المدونة التاريخية ، العلم لله وحده ؟
وهل من أجل ذلك جمع المؤلف كل هذه الأحاديث في فضل الأندلس مع العلم أنها كانت تدور في أرجاء
الأندلس مئات الاعوام قبل ذلك .

المصادر الجغرافية لكتاب الذكر :

اعتمد المؤلف تماما على مصدرين هما : كتاب الجغرافية «للزهري» ولدينا هذا الكتاب كاملا في عدد كبير من
المخطوطات وكتاب ترصيع الاخبار للعذري الذي لم يصلنا منه الا بعض الاجزاء ولذلك كان من السهل تحديد
ما نقله المؤلف من كتاب الجغرافيا بصورة أكثر وضوحا مما حدث مع كتاب ترصيع الاخبار للعذري . كما
استفاد الكتاب من مؤلفات القزويني حيث نقل بعض النصوص من كتابه «أثار البلاد» و «عجائب
المخلوقات» .

بالإضافة الى هذه المصادر ذات التأثير المباشر في الكتاب فإننا نجد ان للكتاب مصادر أخرى وإن كانت غير
مباشرة منها «الروض المعطار» للحميري « و «نزهة المشتاق» للادريسي ، و «جغرافية الأندلس» للرازي ، و
«المسالك والممالك» للبكري بالإضافة الى غيرهم من المؤلفين الجغرافيين الذين أشار إليهم الكتاب .

المصادر التاريخية للذكر:

يكاد ينقسم كتاب «ذكر بلاد الاندلس» من الناحية التاريخية الى قسمين واضحين تماما في انقسامهما ، أولهما القسم الذي يروي تاريخ ما قبل الاسلام ، والثاني هو الذي يتناول تاريخ الاندلس من الفتح وحتى عصر ملوك الطوائف .

المطالعة المتأنية للقسم الاول الذي يتناول عصر ما قبل الاسلام تبين لنا انه على درجة عالية من القيمة والأهمية ، ليس من وجهة نظر التاريخ ، وانما وجهة نظر التدوين التاريخي ، لقد أضاف هذا القسم معلومات جديدة وخاصة فيما يتصل بالعلاقة بين كتابي الرازي «تاريخ ما قبل الاسلام» و «مدونة الرازي» . وهي نقطة معقدة جدا وما زالت حتى الآن . يضيف «الذكر» معلومات جديدة ، لاشك في ذلك ، ومنها مثلا تلك القائمة الطويلة باسماء الملوك الأفارقة والرومان وبعض النقاط الأخرى التي تجعل من هذا النص التاريخي اقرب الترجمة بتقديمه مزيدا من الايضاحات والبيانات ولا يعني هذا أن جميع الصعوبات التي تقابلنا في مدونة الرازي قد وجدت حلا مرضيا وتفسيرا مقنعا بنشر هذا الكتاب ، وانما علينا ان ننتظر طبع النص العربي من «تاريخ أوردسيوس» الذي ظهر حديثا وما زال تحت الطبع حتى الآن .

روض القرطاس:

يعتبر كتاب الروض النص العربي الوحيد الذي نجد له علاقة قوية بكتاب «ذكر بلاد الاندلس» ، ومن الكتب التي تعتبر نموذجا تقليديا يدل بوضوح على فن التدوين المغربي وان كان قد تعرض للتاريخ الاندلسي بصورة عرضية .

ولقد قام محقق الكتاب بدراسة قيمة استطاع ان يستخلص منها أن كاتب الذكر لم يكن ينقل مباشرة من كتاب روض القرطاس ، وأنه من المحتمل ان كلا الكتابين كانا ينقلان من مصدر تاريخي مغربي واحد ما زال مجهولا ولم يصل الينا حتى الآن . وما لدينا الآن من معلومات تاريخية في كتاب الذكر انما هي في الحقيقة «القسم الاندلسي» من ذلك المصدر المجهول الذي لم نعثر عليه بعد .

ابن حيان وآخرون:

يعد ابن حيان القرطبي «شيخ مؤرخي الاندلس» المصدر الاساسي الراسخ لكل من اشتغل بالتدوين التاريخي عن الاندلس منذ الفتح وحتى عصر ملوك الطوائف ، ولا تشذ مخطوطتنا هذه عن الآخريات في اعتمادها على كتاب ابن حيان «المقتبس في أخبار بلد الاندلس» . وحيث أن كتاب ابن حيان هذا - مثله مثل الغالبية العظمى من المؤلفات الاندلسية الأخرى - لم يصلنا كاملا ، فهنا صعوبة المقارنة لتحديد ما استفاده الذكر على وجه التحديد من كتاب «المقتبس لابن حيان» . أما ما ورد في مدونة «الذكر» من اشارات الى اسماء مؤرخين أندلسيين سابقين على «ابن حيان» مثل احمد بن موسى الرازي ، و «ابن الفرضي» و «الخشني» وغيرهم ما نقل من كتاباتهم فنعتقد بنقلها من كتاب «ابن حيان» دون الرجوع الى مصادرها الاصلية .

كتاب «ذكر بلاد الأندلس» والمؤرخون المعاصرون :

لم يكن مخطوط الكتاب بعيدا عن تناول المؤرخين المحدثين ، وانما كان ميسرا الاطلاع عليه بمكتبة المعهد المصري بمدريد ولذلك نشر منه أربع قطع قبل نشره كاملا ، ويحسن ان نشير الى هذه القطع حسب ترتيب نشرها :

١- «وصف جديد لقرطبة الاسلامية» بقلم الدكتور حسين مؤنس بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، العدد ١٤ (٦٥ - ١٩٦٦م) .

٢- «رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس ، دعوة الى ترديد النظر في الموضوع» أيضا للدكتور حسين مؤنس ونشر في نفس المجلة المشار اليها ، العدد ١٨ عام ١٩٧٥/٧٤م .

٣- وصف جغرافي لمدن قطلونيا حسب مخطوط عربي لم ينشر بالمكتبة الملكية بالرباط وذلك بقلم باحث اسباني قدم له بدراسة جيدة وان أخطأ في نقل الكلمات العربية وفهمها فهما حقيقيا .

٤- «حملات المنصور بن أبي عامر حسب نصوص جديدة» ، نشرها الدكتور لويس مولينا بمجلة القنطرة التي تصدر عن المجلس الاعلى للابحاث العلمية في اسبانيا العدد الثاني ١٩٨١م .

كما أشار الى مخطوطة الكتاب ، واستفاد منها عدد كبير من الباحثين والدارسين العرب والاجانب الذين اتيح لهم رؤية صورة المخطوطة بالمعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد او المخطوطة الاصلية بمكتبات المغرب .

محتوى كتاب «الذكر» :

يبدأ الكتاب بالتحديد الجغرافي لبلاد الأندلس ، وذكر ما خصت به هذه البلاد من الأشجار والنبات والمعادن والأحجار حيث هي كما قال فيها ابو عمارة البصري :

لله أندلس وما جمعت بها من كل ما ضمت لها الأهواء
كأنما تلك الديار كواكب وكأنما تلك البقاع سماء

وينتقل الى الحديث عن فضل الأندلس ، وما نقل في شأنها وفضلها من الأحاديث الواردة حيث خرج ابن بشكوال امام المحدثين بالأندلس الحديث النبوي «ان الأندلس حيها سعيد وميتها شهيد» . ومن كتاب فضل الأندلس خرج مسلم رضي الله عنه في صحيحه عن هشام بن بشير الواسطي عن داود بن أبي هند عن أبي عثمان الهندي عن سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» . وروي عبد الملك بن حبيب بسند عن النبي ﷺ أنه قال : تفتح بعدي جزيرة بالمغرب يقال لها الأندلس ، حيها سعيد وميتها شهيد ولهم مع العدو كل يوم وقائع وغارات فانهم يسكنونها على رغم العدو ، على قلتهم وانقطاعهم اذ بين أيديهم بحر مهلك ومن ورائهم عدو مدرك ، والعدو في وقرهم واتصال بلادهم ، فلا يرى بالأندلس غير سامر في ذات الله أو مجاهد في سبيل الله أو مجاور للعدو ومطيع لله» . ص ٩ - ٢٦ .

جغرافية الأندلس:

سبقت الإشارة الى انقسام الكتاب بصورة واضحة الى جزئين أحدهما جغرافي والآخر تاريخي ، ويبدأ الجزء الجغرافي بقوله :

«الخبر عن بلاد الأندلس على التفصيل مدينة بعد مدينة ، وما اختصت به كل مدينة من الفضائل والمحاسن» . ويقول :

«والأندلس في ديوان العجم جزيرة خضبية مخصوصة بكثرة البر والبحر وأنواع الفواكه والنعم كثير النسل عظيمة البركة كثيرة الصيد من الوحش والطيور والحوت ، طبيعة البقاع والتربة ، عذبة المياه» . ص ٢٩ .
«وأهل الأندلس أشد الناس عضدا ، وأصعبهم قيادا . يقال ان قيصر الاعظم الذي كان على عهد عيسى عليه السلام كان قد طاع لسطوته أكثر أهل الدنيا ولم يقاتل في كل من لقي من الأمم أصعب منهم ولا أشد بأسا ونجدة في الحرب» . ص ٣٠ .

قرطبة :

أما قرطبة فهي قاعدة الأندلس وقطبها وقطرها الأعظم ، وأم مدائنها ومسكنها ومستقر الخلفاء ، ودار المملكة في النصرانية والاسلام ومدينة العلم ، ومقر السنة والجماعة نزلها فيما نقل رجل من الصحابة وجملة من التابعين ، وتابعي التابعين رضي الله عنهم أجمعين ، - ولقد سبق لي مناقشة مسألة وجود الصحابة في قرطبة في كتابي «تاريخ التعليم في الأندلس» ، أنظر الصفحات من ١٥٦ - ١٥٧ ... واتصلت بها العمارة في أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولا وفي عرضها فرسخين ، وذلك من الاميال اربعة وعشرون ميلا في الطول وستة أميال في العرض كل ذلك ديار وقصور وبساتين ومساجد وقيساريات وخانات وأسواق وحمامات بطول ضفة الوادي المسمى بالوادي الكبير وليس بالأندلس نهر يسمى باسم عربي غيره ... ص ٣٠ - ٣٥ .

المسجد الجامع :

وبعد ان يفصل القول عن مدينة قرطبة في حوالي خمس صفحات فانه ينتقل الى الخبر عن جامع قرطبة جبرها الله للاسلام وصفة بنائه ، وقدر مساحته كما حكى خبره ، ثم يقدم لنا تاريخ المسجد حين دخول المسلمين ، وبناءه والزيادات التي طرأت عليه خلال حكم الامير هشام وعبدالرحمن الاوسط ، والناصر ، والحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر ، ويعدد لنا «سواريه الحاملة لسقفه والملاصقة لبنائه وقبابه ومناره ما بين كبار وصغار ألف سارية وأربعمائه سارية وتسع سوار منها بداخل المقصورة مائة سارية وتسع عشرة سارية ومنها في الصومعة من خارجها ومن داخلها مائة وأربعون سارية ومنها الحاملات لسقف البلاطات وما اتصل بها ألف سارية ومائتان وثلاث وخمسون سارية» .

ويتحدث عن منار الجامع ومساحته وصفته ثم يصل الى «وعدد ثرياته الصفار مائتان وخمس وثلاثون ثرية في كل ثرية منها ستة أكولس ، وعدد ثرياته الكبار تسع وثمانون ثرية منها في الصومعة خمس ، ومنها في بلاط القبلة أربع وهي أعظمها تحمل كل ثرية منها سبعة أرباع من الزيت تحترق فيها في ليلة واحدة ، إلى ان يصل الى القول «وليس بالأندلس ولا في بلاد الاسلام جامع أكبر منه» الصفحات من ٣٥ الى ٤٠ .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى ذكر اقاليم قرطبة وعددها داعيا الله سبحانه وتعالى ان يعيدها الى الاسلام بفضلها ومنه ، وهي خمسة عشر اقليما كل اقليم منها يحتوي على حصون وقرى وبروج كثيرة .
ومن قرطبة واقليمها ينتقل الكاتب الى وصف المدن المجاورة فيذكر مدينة «قبره» وهي مدينة ازلية كثيرة الفواكه ، عليها من القرى ستمائة قرية وثلاثون قرية ، وسبعون حصنا وثلاثمائة برج . ومدينة «جيان» جبرها الله للاسلام وهي التي جمعت بين طيب الأرض وسعتها وعذوبة الماء وكثرة الثمار والعيون .

لطلبيطة مكانة خاصة في تاريخ وجغرافية الأندلس ، فهي كما وصفها المخطوط ، «مدينة أزلية من بنيان الأول عظمة القدر ، جليلة الوضع ، قديمة البناء ، منيعة حصينة كثيرة المياه والثمار» . ص ٤٧ . ولقد كانت هذه المدينة مقر الحكم القوطي عند دخول المسلمين الأندلس ، وظلت تلعب دورا هاما خلال الحكم الاسلامي ، وهي أول مدينة تسقط في أيدي المسيحيين وأحدث سقوطها دويا هائلا في العالم الاسلامي عامة وفي الأندلس خاصة ، حتى نادى الشعراء في ذلك الحين بالرحيل عن الأندلس نتيجة لتلك الصدمة القاسية ، فقال أحدهم :
 حثوا رواحكم يا أهل أندلس فما البقاء بها إلا من الغلط
 الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة ينسل من الوسط
 وحين استطاع الفونسو السادس احتلال طليطة اتخذها عاصمة لمملكة قشتالة وظلت موطننا للمملكة
 الاسبانية عصورا طويلة .

علم الزرقال وجهل الاسبان واليهود :

وحيث الحديث عن مدينة طليطة يروي لنا هذا الكتاب عن عمل قام به الفلكي الأندلسي المسلم عبدالرحمن الزرقال بطليطة اسماء «البيلتين» وكانا في جوب النهر الأعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين .
 «ومن عجبها انهما تملآن مع زيادة القمر ، وتحسران وتنقصان مع نقصانه» ص ٤٨ ، ويصف المؤلف هاتين «البيلتين» بأنهما «أعجب من الصنم الذي بالهند لأن ذلك في نقطة الاعتدال من الفلك الاعلى والأرض السفلى وبالموضع الذي لا ينقص ليلة ولا يزيد نهاره ، وهذا الموضع خارج عن الاعتدال يزيد ليله ونهاره ينقصان فهما أغرب .

«وكانتا هاتان البيلتان في بيت واحد فلما ملك النصارى دمرهم الله تعالى مدينة طليطة أراد «الفنش» لعنه الله أن يبحث عن حركاتهما ، فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من حيث يأتي اليهما الماء ، وكيف الحركة فيها فقلعت فانبطلت حركتها ، وكان قلعتها وفسادها في عام ٥٢٨ من الهجرة .
 وقيل : كان السبب في فسادها حنين بن ربوة اليهودي المنجم لعنة الله تعالى وهو الذي جلب حمام الأندلس كلها الى طليطة في يوم واحد وذلك عام ٥٢٧ هـ ، وهو الذي أعلم «الفنش» أن حفيده سيدخل قرطبة ويملكها ، فأراد اليهودي لعنه الله أن يكشف عن حركة هاتين البيلتين فقال له : «أيها الملك . أنا أقلعها وأردها أحسن مما كانت ، وذلك أنى أردتها تملأ بالنهار وتحسر بالليل ، فلما قلعتها لم يقدر على ردها وإنما أراد الملعون أن يسرق صناعتها ، فبقيت الواحدة مبطولة والثانية تعطي حركتها» . ص ٤٩ .

لشبونة عاصمة البرتغال :

من المعروف ان بلاد الأندلس شملت كلا من أسبانيا والبرتغال ، وان اقتصر الحديث على اسبانيا فحسب ، ويشير كاتبنا الى مدينة لشبونة بينها «مدينة عظيمة أزلية كثيرة القطر ، هي على البحر الاعظم المحيط وعلى آخر النهر المعروف بنهر تاجة حيث يصب في البحر فهي برية بحرية ، وبها أرزاق كثيرة وخيرة واسعة ، ص ٥١ .
 ثم يتحدث المؤلف عن بلاد غرب الأندلس ، وأغلبها ضمن أراضي البرتغال حاليا ، فيذكر مدينة شنترين ، ومدينة شلب التي كانت مرتع صبا المعتمد بن عبادة ملك أشبيلية المعروف ، ومن قوله فيها بأنها «فاقت جميع

بلاد الأندلس بكثرة الخيرات السنية والفواكه الشهية والصيد الكثيرة البرية والبحرية فحازت بذلك شهرة باذخا وفخرا ساميا ، ذكره أبو عبد الله محمد بن مزين الأزدي في تاريخه المسمى «المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» ص ٥٤ .

شرق الأندلس :

لا يمضي المؤلف على خطة معينة في تناوله بلاد الأندلس حيث يذكر هنا مدينة «باجه» من بلاد شرق الأندلس ، لينتقل الى مدينة «ماردة» من بلاد جوف الأندلس ليعود الى الحديث عن مدينة «ليلة» الحمراء من غرب الأندلس ليصل الى الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس .

إشبيلية :

هي عاصمة الأندلس الثانية بعد قرطبة ، بل عاصمة الأندلس الادبية والفنية على مدار تاريخه ومن حكامها المعتمد بن عباد أشهر شعراء الأندلس وأخذهم ذكرا ، وجديرة بأن يخصص لها المؤلف ثلاث صفحات و «هي أعظم المدن وأكبرها ، قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها ومدينة الأدب واللهو والطرب ، وهي على ضفة الوادي الكبير عظيمة الشأن ، طيبة المكان لها البر المديد والبحر الساكن والوادي العظيم قربت من البحر المحيط» ، ص ٦٠ - ٦١ .

سرقسطة :

ويصعد المؤلف الى الشمال ، الى الثغر الاعلى ، ليصور لنا عاصمة بني هود بأنها المدينة التي نزلها واختصها بنو الانصار والتابعون رغبة فيها من أجل الخبر الوارد فيها ، ص ٧٠ .
«وتسمى بالبيضاء لأن عليها نور مشرق وبها رجالان من الصحابة مدفونان ، وهما حنش الصنعاني وفرقد الشنجي رضي الله عنهما ، وهما مدفونان في قبلة الجامع أمام المحراب من خارجه ...
ولها أعمال كثيرة ، ومدن وحصون وقرى منها مدينة سالم (حيث دفن المنصور بن ابي عامر) ومدينة يارشة وروطة .. ص ٧٠ - ٧١ .

بلنسية :

عاصمة شرق الأندلس ، وأهم قواعده ، وارتبطت بسقوطها في يد «السيد القمبيطور» الذي أحرق قاضيها «ابن جحاف» حيا أمام أهله وسكان المدينة ، وهي قصة مروعة في التاريخ الأندلسي ، وقد ذكر المؤلف استخلاص المرابطين لها من أيدي المسيحيين الى ان عادت مرة ثانية للسقوط في أيديهم على يد «ملك برشلونة» ، ويصف الكتاب بلنسية بأنها من أعلا المدائن وبقعتها بقعة طيبة ذات انفساح ، وبها مبان شريفة قصور رائعة ، وبساتين مؤنقة ...

وهي دار علم وفقه وآداب خرج منها جملة من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وأهل اللغة ، ص ٧٣ .
ويختم المؤلف هذا القسم الجغرافي بالحديث عن طرطوشة ودانية ومرسية وبسطة وطلاطة وأخيرا مدينة لمرية كنزها الله . وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر وهي محدثة أحدثها العرب في الاسلام وكانوا يرابطون فيها .

تاريخ الأندلس في الكتاب :

يقسم المؤلف القسم التاريخي من كتاب «ذكر بلاد الأندلس» الى عدد من الفصول يتناول في الأول منها «ذكر من نزل الأندلس من الأمم والملوك من الطوفان الى أن فتحها الاسلام» ويرى أن أول من نزلها قوم من ولد «أندلس من نقرش بن يافث بن نوح عليه ومن هنا جاءت التسمية بالأندلس ، ثم يتحدث عن هجرة الافارقة الى الأندلس في رواية خيالية . ثم يروي قائمة طويلة بأسماء الملوك الذين حكموا هذه البلاد حيث يرى أن الافارقة أقاموا بالأندلس مائة ست واثنين وخمسين عاما .

وينتقل بعد ذلك للحديث عن «الملوك الرومانيين من اليونانيين بالأندلس ، وعدد ملوكهم» ، ويقدم أيضا قائمة بأسماء ملوك الأندلس من الرومان وهي قائمة طويلة تعتبر من أجمل الإضافات التاريخية التي يزودنا بها هذا المخطوط .

ويصل بالحديث الى دولة القوط في الأندلس ، وهو العصر السابق مباشرة على الفتح الاسلامي واسماء ملوكهم حتى يصل الى لذريق» آخر ملوك القوط ، وقيامه بفتح البيت الذي كان يحوي الطلسم الحامي للأندلس مما يبشر بسقوط الأندلس .

عصر الولاة في الأندلس .

في هذا الباب الذي عنوان «باب ذكر فتح المسلمين للأندلس ومن ملكها من أمراء العرب الى أيام عبدالرحمن الداخل يتناول قيام موسى بن نصير بايفاد طارق بن زياد لفتح الأندلس ، وانتصار طارق على لذريق وانتقال موسى الى الأندلس واكمالهما عملية الفتح الخالدة في ما لايزيد عن ثلاث سنوات فقط . ثم ينتقل الى الخبر عن ولاة الأندلس من العرب من حين فتحها الى أيام عبدالرحمن الداخل رحمه الله ، موردا أسماء هؤلاء الولاة حسب ترتيب توليتهم .

عصر الامارة بالأندلس :

يخصص الفصل السادس من الكتاب للحديث «عن دخول عبدالرحمن بن معاوية الأندلس وتملكه عليها هو وبنوه من بعده» ، ويقدم في بداية الفصل مختصرا بأسماء أفراد الاسرة الاموية الذين حكموا الأندلس وهم عبدالرحمن بن معاوية ، هشام بن عبدالرحمن ، الحكم بن هشام ، عبدالرحمن بن الحكم ، محمد بن عبدالرحمن ، المنذر بن محمد وعبدالله بن محمد ، ثم عبدالرحمن الناصر ، والحكم المستنصر ، وهشام المؤيد .. الخ .

ويعود الى التفصيل الموسع فيذكر لعبدالرحمن الداخل مولده وصفته وكنيته وفصاحته وشعره ، ويذكر قضاياه وغزواته وحروبه وأعماله وصراعه مع العباسيين . وتأسيسه المسجد الجامع في قرطبة الى أن يقول : «وهو أبو الأموية من بني أمية بالأندلس ، وكان له من فتح البلاد ذات الأعادي ، وتوكيد الملك ما لم يكن لأحد من آبائه رحمة الله عليه» ص ١٠٧ - ١١٨ .

وبعد عبدالرحمن الداخل يتناول بالتفصيل حكم الامراء من بعده بتفصيل واسع قد لا تأتي به مصادر التاريخ الأندلسية الأخرى باستثناء عمدة مؤرخي الأندلس ، أبو مروان بن حيان .

عصر الخلافة في الأندلس :

نحن الآن مع مطلع القرن الرابع الهجري في الأندلس وصعد الى عرض الامارة عبدالرحمن بن محمد حفيد عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأسط الذي تلقب لأول مرة بأمره المؤمنين ومن ثم أصبح أول خليفة أموي منذ سقطت الدولة الأموية في عام ١٢٢هـ ، ومن ثم يركز المؤلف حديثه على هذا العصر فيذكر صفته وكنيته ووالدته ، وقضاته ووزرائه وعماله وشعره الى أن ينتهي الى مدينة الزهراء التي بناها الناصر فيسهب القول في وصفها وعمارتها فهي من «أنبل ما بناه الأنس وأجله خطرا وأعظمه شأنا وأغرب ما بنى في الاسلام وأعجبه» . ص ٦٣ پ .

وأما ابنه الحكم المستنصر بالله ، فقد تولى عام ٣٦٦هـ ، وكان من «أهل الدين والفضل والورع ، ومن أعدل الملوك وانتقامهم وأعملهم وأخملهم وأحمدهم وأحسنهم سيرة وأرفعهم قدرا وأعلامهم ذكرا ، وكان معتنيا بالعلم ، مقتنيا بالدفاتر مستجلبا للرواة ، مواظبا للجهاد مؤيدا منصورا ، لم تلحق الرعية في أيامه مذلة ولا نالتهم مظلمة ، وكان مع ذلك عالما ثبثا ذكيا وافيا ، وكان فقيها في المذاهب عالما بالانساب والسير حافظا للتواريخ عارفا بأيام الناس ، جمع أهل العلم من كل مصر» ص ١٦٩ .

ترك الحكم الخلافة لابنه هشام وهو صغير السن ، مما مكن للمنصور بن أبي عامر التمكن في أمر البلاد حتى أن عهد هشام يعرف باسم «الدولة العامرية» ولا غرابة في ذلك فقد أراد المنصور محاكاة بني أمية والتفوق عليهم ، وقد حالفه الحظ في غزواته وجهاده بحيث لم تنكس له راية ولم يهزم له جيش وخاض في ٢٧ عاما ما ينيف على الخمسين غزوة . كما أن للمنصور زيادة في المسجد الجامع تصل الى أكثر من نصف مساحته وأجزل العطاء لأهل الدور المجاورة للمسجد وأدخلها فيه .

وحكم بعد المنصور ولداه عبدالملك وعبدالرحمن ، لكنهما لم يكونا في حزم ودهاء المنصور مما ترتب عليه سقوط دولة بني عامر على عهد عبدالرحمن بن المنصور ودخول الأندلس كله عصرا سيئا ، دمر فيه كل شيء يسمى عصر الفتنة الذي لم ينته الا بتقسيم الأندلس الى ممالك الطوائف .

عصر الفتنة وملوك الطوائف :

تناول الكتاب باختصار هذين العصرين مما يبين لنا كراهيته لفترة الضعف في بلاد الأندلس ، وهي الفترة التي سمحت للمسيحيين في مملكة قشتالة وقطالونيا من التقدم والاستيلاء على بلاد المسلمين وخاصة مدينة طليطلة ، مما أوجب الاستنجد بالمرابطين ويتوقف الكتاب عن ذكر الفتى الكبير خيران العامري الذي كان يحكم في شرق الأندلس ، وهو وزميله زهير العامري وهما من فتيان العامرية الذين هربوا بعد سقوط دولتهم في نهاية القرن الرابع الهجري .

خاتمة :

صدر الكتاب في مجلدين ، تضمن الاول منهما النص العربي للكتاب والفهارس المتنوعة للكلمات والقوافي والاماكن والاعلام ، ودراسة موجزة ، بينما تناول المجلد الثاني الترجمة الاسبانية للنص العربي ، والدراسة الكاملة التي حاولنا تقديم بعض نقاطها في هذا التعريف ثم الوصف وطريقة التحقيق واعداد المخطوطات التي وجدت من هذا الكتاب .

ومحقق الكتاب هو الدكتور «لويس مولينا» درس في قسم اللغة العربية بجامعة مدريد المركزية وحصل على
الليسانس في عام ١٩٧٨ ، ويعمل حاليا باحثا بالمجلس الاعلى للابحاث العلمية بمدريد في المعهد المعروف باسم
المستشرق الاسباني الكبير «ميغيل أسين بلاثيوس» ، وقد نشر المجلس هذا الكتاب في مدريد عام ١٩٨٣ م .

الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين

الدكتور / محمد عبد الحميد عيسى
كلية التربية - جامعة عين شمس

الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين

« التاريخ صنع الإنسان ، والبشر صنع التاريخ » بهذه العبارة الخالدة استقبل المؤرخ الأسباني ذائع الصيت ، كلاوديو سانشيث البرثوس كتابه القيم « اسبانيا آخر تاريخي » ، (١) لينطلق منها الى دراسة العوامل المتبادلة بين الإنسان والبيئة في صنع التاريخ ، وليبين لنا ان اسبانيا التي تعيش اليوم ما زالت وستظل لغزا ما لم نعتمد في دراستها على كل تاريخها ، وخاصة تاريخ تلك القرون الثمانيّة التي عاشتها في ظلال الاسلام حينما وفي صراع معه أغلب الأوقت ، لأنها - أي اسبانيا - بعظمتها وجلالها وبما فيها من عيوب ونقائص وليدة ذلك الصراع المستمر خلال الأعوام الثمانمئة (٢).

وليس ذلك موضوع دواستى ، لكننى أردت ذلك للإشارة الى ذلك اللغز التاريخي أو على وجه التحديد الى اسبانيا الاسلامية ، الاندلس التي أراها وبحق لغزا تاريخيا محيرا ، الهم حملة الاقلام كثيرا ، وسيظل يمددهم دائما بوحيه واسراره مما يجعل الكتابة في هذا المجال سحرا لايقاوم رغم تقادم الزمان ومضى الأيام.

لقد ارتفع الاندلس حضاريا ، في العصور الوسطى الى درجة رفيعة المستوى والى مكانة سامقة اعترف بها الاصدقاء والاعداء على حد سواء ، فهي اندلس التاريخ وهي الاندلس المفقود وهي الاندلس الموعود ، وهي كما قال فيها ابن خفاجة :

يا أهل اندلس لله دركم	ماء وظل وانهار واشجار
ما جنة الخلد الا في دياركم	ولو تخيرت هذا كنت اختار
لا تحتشوا بعدها أن تدخلوا مسقرا	فليس تدخل بعد الجنة النار

ان الجنة في الأندلس مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شغب ودجى ظلمتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا صحت : واشوقى الى الأندلس (٣)

وهي أيضا في نظر المؤرخين الاسبان : هذا الأندلس ، مركز وقنار
أشرق ذات يوم ، وكانت أشراقة مطمح الأطماع ، ومحط الابصار النهمة الجامعة الى
العلم ، في أى فرع من فروع المعرفة ، آه كم كانت تلك الفترة زاهية
ومقدسة ، (٤) .

ولا اهدف الى حصر ما قيل في هذه الحقبة التاريخية ، لأن ذلك ليس
سرا بن هو أمر شائع في كافة الكتابات المتعلقة بهذا العصر ، انما السر
الحقيقى هو ذلك التنازع والخلاف في تحديد الأسباب والعوامل التى ادت
الى قيام هذه الحضارة ، وليس ذلك بالأمر الشاذ ، فالحضارة الاندلسية
يما سطرته على جبين التاريخ سواء في مجال الكم أو الكيف جديدة بان تثير
الخلاف بين المؤرخين وان تبعث على الجدل والنقاش الدائمين ، وذلك ايضا
أحد اسرار عظمتها الخالدة .

يضاف الى ذلك ان النهاية الأساسية التى أحاطت بهذه الحضارة قد
سكنت المزيد من الزيت على نار الآراء المشتعلة ، وفتحت صنادير عدة من
الدراسات والأبحاث التى تتناولها .

انصبت جهود الباحثين والدارسين في مجال الحضارة الاندلسية على
إبراز أصولها ، ودرجة تطورها وكذلك علاقتها بالثقافة والحضارة القوطية
والرومانية ، مدى صلتها بالثقافة الشرقية ، دورها التأثيرى على الحضارة
الأوربية في العصور الوسطى ومدى التأثير فيما بعد على النهضة الأوربية
الحديثة . وفى كل مجال من هذه المجالات تباينت آراء العلماء واختلفت ،
وحاول كل منهم تأييد وجهة نظره التى يحبها ؛ فالمستشعرون عامة ،
والاسبان منهم خاصة ، يحاولون اصفاء دور هام للأحوال الثقافية والحضارية

للسائدة في اسبانيا القوطية ، كما يحاولون اسناد دور اساسي في هذه الحضارة الى العوامل البيئية الاسبانية الى حد التطرف الذي يقلل ان لم ينكر دور العرب المسلمين في صنع هذه الحضارة .

ويمزج له الحديث في اسبانيا يوما بعد الآخر عن اهمية الفترة السابقة أي عصر الرومان والقوط في بناء الحضارة الاسلامية في الاندلس ، ويؤكد ذلك - على سبيل المثال - الدكتور ستانيسلاف غوميت نوغالييس - دون الاعتماد على وثائق واضحة - فيقول خلال حديثه عن الفلسفة في اسبانيا الاسلامية « ليس سهلا على الاطلاق الاشارة الى وثائق تاريخية الدلالة على هذا التأثير بالنسبة للفلسفة الاسبانية الاسلامية ، وذلك لسببين واضحين هما : الاعتماد المتزايد لعدد كبير من المؤرخين العرب باخفاء ما في أصولهم وكتاباتهم مما يرجع لاسبانيا قبل الاسلام وذلك بغرض عدم إثارة الشك حول معتقداتهم وافكارهم ومن هنا فان اجتهادهم في الصمت عن كل ما هو اسباني أصلا في كتاباتهم ومعتقداتهم يعتبر شيئا بديهيا » .

أما الصعوبة الثانية فانهما تأتي من أن الكثير من المصادر الثقافية الاسلامية تتحدث عن اسبانيا ، لا عن الطريق المباشر لاسبان ، ولكن عن طريق مصادر شرقية استطاعت أن تنقل هذه الافكار في مضمون ثقافي مختلف عن الاسباني ، بمعنى انه أصبح من الصعب جدا - على سبيل المثال - التقريق بين ما خلفه الرومان في الحضارة الاسلامية عن طريق بيزنطة او عن طريق المستعمرات الرومانية الموجودة في اسبانيا . (٥)

ويواصل نوغالييس عرض افكاره قائلا : اذا كان قد سمح بالقول بان حضارة اسبانيا الاسلامية تتمتع بصفات خاصة ، وشخصية مستقلة فليجاء ان نحل الى أي مدى تأثرت هذه الشخصية بالعوامل البيئية المحيطة بها بالبيئة الذي ربطها بالناس ذوي سجايا مختلفة ، ويذهب في هذا الى الاستشهاد بما قاله سانتشيث الغرنوس في كتابه « اسبانيا قبل الاسلام - اسبانيا الاسلامية » والذي عرض فيه أعداد العرب الذين قدموا الى شبه الجزيرة

الايبيرية في بداية الأمر حتى يصل الى قول المؤرخ الاسباني P. Perez بأنه « لم يدخل في التركيب الاجتماعي للمسلمين الاسبان من العناصر العربية الاصلية الا جرعات متناهية الصغر » (٦) ثم يواصل البروفيسور نوغالييس حديثه الى أن يختتمه بعبارة سانثيث ألبرنوس القائلة : نتيجة لهذا كله فمن المفروض أن التأثير العربي في العادات والثقافة كان سلبيا خلال عشرات وعشرات السنين في بلد كاسبانيا ذات الأصل والحياة والثقافة الغربية ، (٧)

والطريق طويل بين المؤرخين الاسبان في درجة وضع المسلمين الاسبان ضمن اطار الحضارة الاسبانية ، الى ان يصل الأمر الى تبني علامتهم الكبير خوليان ريبييرا J.R. فكرة الأصل الاسباني لمسلمي اسبانيا ، فهو يرى : أن العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح ، أملاً دخلوا - كما هو معروف - على هيئة جنود ، ولم يفتقلوا اليها كآسر ، وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البغيت وينجبوا النسل ، وكانت الاسبانيات الجانب الآخر في تكوين نك الأسر ، وانجاب ذلك النسل ، وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربي ولي أمر الاندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير لما أقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالاسبانيات ، وليس من المبالغة القول بأنه قد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الاسرة الاموية في الاندلس كانوا أبناء لغير عربيات ، وإذا كان الولد - في الحقيقة - ابناً لأبيه كما هو ابن لأمه ، وإذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه ، كما يأخذها عن أسرة أبيه ، إذا كان ذلك ، أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا في الجنس الاسباني حتى لم يعد للواحد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربي تمتزج بدمه الاسباني لأذى يكاد يكون خالصا ، (٨) ويتصدى المؤرخون والكتاب العرب للدفاع عن عروبة الاندلس ، وعن نسبة الحضارة الاندلسية الى الحضارة العربية ، وحتى لا تفقد هذه الحضارة درة ثمينة ولؤلؤة نادرة وعقدا فريدا مثلما هي الحضارة الاندلسية فينبغي الدكتور احمد هيكل الرد على خوليان ريبييرا مفقدا نظريته في معظم اجزائها التي ، وان كانت تعزز بالاندلسيين وتحاول كسبهم الى التراث الاسباني .

١٠
١١
١٢
١٣
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
١٩
٢٠
٢١
٢٢
٢٣
٢٤
٢٥
٢٦
٢٧
٢٨
٢٩
٣٠
٣١
٣٢
٣٣
٣٤
٣٥
٣٦
٣٧
٣٨
٣٩
٤٠
٤١
٤٢
٤٣
٤٤
٤٥
٤٦
٤٧
٤٨
٤٩
٥٠
٥١
٥٢
٥٣
٥٤
٥٥
٥٦
٥٧
٥٨
٥٩
٦٠
٦١
٦٢
٦٣
٦٤
٦٥
٦٦
٦٧
٦٨
٦٩
٧٠
٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
٨٦
٨٧
٨٨
٨٩
٩٠
٩١
٩٢
٩٣
٩٤
٩٥
٩٦
٩٧
٩٨
٩٩
١٠٠
١٠١
١٠٢
١٠٣
١٠٤
١٠٥
١٠٦
١٠٧
١٠٨
١٠٩
١١٠
١١١
١١٢
١١٣
١١٤
١١٥
١١٦
١١٧
١١٨
١١٩
١٢٠
١٢١
١٢٢
١٢٣
١٢٤
١٢٥
١٢٦
١٢٧
١٢٨
١٢٩
١٣٠
١٣١
١٣٢
١٣٣
١٣٤
١٣٥
١٣٦
١٣٧
١٣٨
١٣٩
١٤٠
١٤١
١٤٢
١٤٣
١٤٤
١٤٥
١٤٦
١٤٧
١٤٨
١٤٩
١٥٠
١٥١
١٥٢
١٥٣
١٥٤
١٥٥
١٥٦
١٥٧
١٥٨
١٥٩
١٦٠
١٦١
١٦٢
١٦٣
١٦٤
١٦٥
١٦٦
١٦٧
١٦٨
١٦٩
١٧٠
١٧١
١٧٢
١٧٣
١٧٤
١٧٥
١٧٦
١٧٧
١٧٨
١٧٩
١٨٠
١٨١
١٨٢
١٨٣
١٨٤
١٨٥
١٨٦
١٨٧
١٨٨
١٨٩
١٩٠
١٩١
١٩٢
١٩٣
١٩٤
١٩٥
١٩٦
١٩٧
١٩٨
١٩٩
٢٠٠
٢٠١
٢٠٢
٢٠٣
٢٠٤
٢٠٥
٢٠٦
٢٠٧
٢٠٨
٢٠٩
٢١٠
٢١١
٢١٢
٢١٣
٢١٤
٢١٥
٢١٦
٢١٧
٢١٨
٢١٩
٢٢٠
٢٢١
٢٢٢
٢٢٣
٢٢٤
٢٢٥
٢٢٦
٢٢٧
٢٢٨
٢٢٩
٢٣٠
٢٣١
٢٣٢
٢٣٣
٢٣٤
٢٣٥
٢٣٦
٢٣٧
٢٣٨
٢٣٩
٢٤٠
٢٤١
٢٤٢
٢٤٣
٢٤٤
٢٤٥
٢٤٦
٢٤٧
٢٤٨
٢٤٩
٢٥٠
٢٥١
٢٥٢
٢٥٣
٢٥٤
٢٥٥
٢٥٦
٢٥٧
٢٥٨
٢٥٩
٢٦٠
٢٦١
٢٦٢
٢٦٣
٢٦٤
٢٦٥
٢٦٦
٢٦٧
٢٦٨
٢٦٩
٢٧٠
٢٧١
٢٧٢
٢٧٣
٢٧٤
٢٧٥
٢٧٦
٢٧٧
٢٧٨
٢٧٩
٢٨٠
٢٨١
٢٨٢
٢٨٣
٢٨٤
٢٨٥
٢٨٦
٢٨٧
٢٨٨
٢٨٩
٢٩٠
٢٩١
٢٩٢
٢٩٣
٢٩٤
٢٩٥
٢٩٦
٢٩٧
٢٩٨
٢٩٩
٣٠٠
٣٠١
٣٠٢
٣٠٣
٣٠٤
٣٠٥
٣٠٦
٣٠٧
٣٠٨
٣٠٩
٣١٠
٣١١
٣١٢
٣١٣
٣١٤
٣١٥
٣١٦
٣١٧
٣١٨
٣١٩
٣٢٠
٣٢١
٣٢٢
٣٢٣
٣٢٤
٣٢٥
٣٢٦
٣٢٧
٣٢٨
٣٢٩
٣٣٠
٣٣١
٣٣٢
٣٣٣
٣٣٤
٣٣٥
٣٣٦
٣٣٧
٣٣٨
٣٣٩
٣٤٠
٣٤١
٣٤٢
٣٤٣
٣٤٤
٣٤٥
٣٤٦
٣٤٧
٣٤٨
٣٤٩
٣٥٠
٣٥١
٣٥٢
٣٥٣
٣٥٤
٣٥٥
٣٥٦
٣٥٧
٣٥٨
٣٥٩
٣٦٠
٣٦١
٣٦٢
٣٦٣
٣٦٤
٣٦٥
٣٦٦
٣٦٧
٣٦٨
٣٦٩
٣٧٠
٣٧١
٣٧٢
٣٧٣
٣٧٤
٣٧٥
٣٧٦
٣٧٧
٣٧٨
٣٧٩
٣٨٠
٣٨١
٣٨٢
٣٨٣
٣٨٤
٣٨٥
٣٨٦
٣٨٧
٣٨٨
٣٨٩
٣٩٠
٣٩١
٣٩٢
٣٩٣
٣٩٤
٣٩٥
٣٩٦
٣٩٧
٣٩٨
٣٩٩
٤٠٠
٤٠١
٤٠٢
٤٠٣
٤٠٤
٤٠٥
٤٠٦
٤٠٧
٤٠٨
٤٠٩
٤١٠
٤١١
٤١٢
٤١٣
٤١٤
٤١٥
٤١٦
٤١٧
٤١٨
٤١٩
٤٢٠
٤٢١
٤٢٢
٤٢٣
٤٢٤
٤٢٥
٤٢٦
٤٢٧
٤٢٨
٤٢٩
٤٣٠
٤٣١
٤٣٢
٤٣٣
٤٣٤
٤٣٥
٤٣٦
٤٣٧
٤٣٨
٤٣٩
٤٤٠
٤٤١
٤٤٢
٤٤٣
٤٤٤
٤٤٥
٤٤٦
٤٤٧
٤٤٨
٤٤٩
٤٥٠
٤٥١
٤٥٢
٤٥٣
٤٥٤
٤٥٥
٤٥٦
٤٥٧
٤٥٨
٤٥٩
٤٦٠
٤٦١
٤٦٢
٤٦٣
٤٦٤
٤٦٥
٤٦٦
٤٦٧
٤٦٨
٤٦٩
٤٧٠
٤٧١
٤٧٢
٤٧٣
٤٧٤
٤٧٥
٤٧٦
٤٧٧
٤٧٨
٤٧٩
٤٨٠
٤٨١
٤٨٢
٤٨٣
٤٨٤
٤٨٥
٤٨٦
٤٨٧
٤٨٨
٤٨٩
٤٩٠
٤٩١
٤٩٢
٤٩٣
٤٩٤
٤٩٥
٤٩٦
٤٩٧
٤٩٨
٤٩٩
٥٠٠
٥٠١
٥٠٢
٥٠٣
٥٠٤
٥٠٥
٥٠٦
٥٠٧
٥٠٨
٥٠٩
٥١٠
٥١١
٥١٢
٥١٣
٥١٤
٥١٥
٥١٦
٥١٧
٥١٨
٥١٩
٥٢٠
٥٢١
٥٢٢
٥٢٣
٥٢٤
٥٢٥
٥٢٦
٥٢٧
٥٢٨
٥٢٩
٥٣٠
٥٣١
٥٣٢
٥٣٣
٥٣٤
٥٣٥
٥٣٦
٥٣٧
٥٣٨
٥٣٩
٥٤٠
٥٤١
٥٤٢
٥٤٣
٥٤٤
٥٤٥
٥٤٦
٥٤٧
٥٤٨
٥٤٩
٥٥٠
٥٥١
٥٥٢
٥٥٣
٥٥٤
٥٥٥
٥٥٦
٥٥٧
٥٥٨
٥٥٩
٥٦٠
٥٦١
٥٦٢
٥٦٣
٥٦٤
٥٦٥
٥٦٦
٥٦٧
٥٦٨
٥٦٩
٥٧٠
٥٧١
٥٧٢
٥٧٣
٥٧٤
٥٧٥
٥٧٦
٥٧٧
٥٧٨
٥٧٩
٥٨٠
٥٨١
٥٨٢
٥٨٣
٥٨٤
٥٨٥
٥٨٦
٥٨٧
٥٨٨
٥٨٩
٥٩٠
٥٩١
٥٩٢
٥٩٣
٥٩٤
٥٩٥
٥٩٦
٥٩٧
٥٩٨
٥٩٩
٦٠٠
٦٠١
٦٠٢
٦٠٣
٦٠٤
٦٠٥
٦٠٦
٦٠٧
٦٠٨
٦٠٩
٦١٠
٦١١
٦١٢
٦١٣
٦١٤
٦١٥
٦١٦
٦١٧
٦١٨
٦١٩
٦٢٠
٦٢١
٦٢٢
٦٢٣
٦٢٤
٦٢٥
٦٢٦
٦٢٧
٦٢٨
٦٢٩
٦٣٠
٦٣١
٦٣٢
٦٣٣
٦٣٤
٦٣٥
٦٣٦
٦٣٧
٦٣٨
٦٣٩
٦٤٠
٦٤١
٦٤٢
٦٤٣
٦٤٤
٦٤٥
٦٤٦
٦٤٧
٦٤٨
٦٤٩
٦٥٠
٦٥١
٦٥٢
٦٥٣
٦٥٤
٦٥٥
٦٥٦
٦٥٧
٦٥٨
٦٥٩
٦٦٠
٦٦١
٦٦٢
٦٦٣
٦٦٤
٦٦٥
٦٦٦
٦٦٧
٦٦٨
٦٦٩
٦٧٠
٦٧١
٦٧٢
٦٧٣
٦٧٤
٦٧٥
٦٧٦
٦٧٧
٦٧٨
٦٧٩
٦٨٠
٦٨١
٦٨٢
٦٨٣
٦٨٤
٦٨٥
٦٨٦
٦٨٧
٦٨٨
٦٨٩
٦٩٠
٦٩١
٦٩٢
٦٩٣
٦٩٤
٦٩٥
٦٩٦
٦٩٧
٦٩٨
٦٩٩
٧٠٠
٧٠١
٧٠٢
٧٠٣
٧٠٤
٧٠٥
٧٠٦
٧٠٧
٧٠٨
٧٠٩
٧١٠
٧١١
٧١٢
٧١٣
٧١٤
٧١٥
٧١٦
٧١٧
٧١٨
٧١٩
٧٢٠
٧٢١
٧٢٢
٧٢٣
٧٢٤
٧٢٥
٧٢٦
٧٢٧
٧٢٨
٧٢٩
٧٣٠
٧٣١
٧٣٢
٧٣٣
٧٣٤
٧٣٥
٧٣٦
٧٣٧
٧٣٨
٧٣٩
٧٤٠
٧٤١
٧٤٢
٧٤٣
٧٤٤
٧٤٥
٧٤٦
٧٤٧
٧٤٨
٧٤٩
٧٥٠
٧٥١
٧٥٢
٧٥٣
٧٥٤
٧٥٥
٧٥٦
٧٥٧
٧٥٨
٧٥٩
٧٦٠
٧٦١
٧٦٢
٧٦٣
٧٦٤
٧٦٥
٧٦٦
٧٦٧
٧٦٨
٧٦٩
٧٧٠
٧٧١
٧٧٢
٧٧٣
٧٧٤
٧٧٥
٧٧٦
٧٧٧
٧٧٨
٧٧٩
٧٨٠
٧٨١
٧٨٢
٧٨٣
٧٨٤
٧٨٥
٧٨٦
٧٨٧
٧٨٨
٧٨٩
٧٩٠
٧٩١
٧٩٢
٧٩٣
٧٩٤
٧٩٥
٧٩٦
٧٩٧
٧٩٨
٧٩٩
٨٠٠
٨٠١
٨٠٢
٨٠٣
٨٠٤
٨٠٥
٨٠٦
٨٠٧
٨٠٨
٨٠٩
٨١٠
٨١١
٨١٢
٨١٣
٨١٤
٨١٥
٨١٦
٨١٧
٨١٨
٨١٩
٨٢٠
٨٢١
٨٢٢
٨٢٣
٨٢٤
٨٢٥
٨٢٦
٨٢٧
٨٢٨
٨٢٩
٨٣٠
٨٣١
٨٣٢
٨٣٣
٨٣٤
٨٣٥
٨٣٦
٨٣٧
٨٣٨
٨٣٩
٨٤٠
٨٤١
٨٤٢
٨٤٣
٨٤٤
٨٤٥
٨٤٦
٨٤٧
٨٤٨
٨٤٩
٨٥٠
٨٥١
٨٥٢
٨٥٣
٨٥٤
٨٥٥
٨٥٦
٨٥٧
٨٥٨
٨٥٩
٨٦٠
٨٦١
٨٦٢
٨٦٣
٨٦٤
٨٦٥
٨٦٦
٨٦٧
٨٦٨
٨٦٩
٨٧٠
٨٧١
٨٧٢
٨٧٣
٨٧٤
٨٧٥
٨٧٦
٨٧٧
٨٧٨
٨٧٩
٨٨٠
٨٨١
٨٨٢
٨٨٣
٨٨٤
٨٨٥
٨٨٦
٨٨٧
٨٨٨
٨٨٩
٨٩٠
٨٩١
٨٩٢
٨٩٣
٨٩٤
٨٩٥
٨٩٦
٨٩٧
٨٩٨
٨٩٩
٩٠٠
٩٠١
٩٠٢
٩٠٣
٩٠٤
٩٠٥
٩٠٦
٩٠٧
٩٠٨
٩٠٩
٩١٠
٩١١
٩١٢
٩١٣
٩١٤
٩١٥
٩١٦
٩١٧
٩١٨
٩١٩
٩٢٠
٩٢١
٩٢٢
٩٢٣
٩٢٤
٩٢٥
٩٢٦
٩٢٧
٩٢٨
٩٢٩
٩٣٠
٩٣١
٩٣٢
٩٣٣
٩٣٤
٩٣٥
٩٣٦
٩٣٧
٩٣٨
٩٣٩
٩٤٠
٩٤١
٩٤٢
٩٤٣
٩٤٤
٩٤٥
٩٤٦
٩٤٧
٩٤٨
٩٤٩
٩٥٠
٩٥١
٩٥٢
٩٥٣
٩٥٤
٩٥٥
٩٥٦
٩٥٧
٩٥٨
٩٥٩
٩٦٠
٩٦١
٩٦٢
٩٦٣
٩٦٤
٩٦٥
٩٦٦
٩٦٧
٩٦٨
٩٦٩
٩٧٠
٩٧١
٩٧٢
٩٧٣
٩٧٤
٩٧٥
٩٧٦
٩٧٧
٩٧٨
٩٧٩
٩٨٠
٩٨١
٩٨٢
٩٨٣
٩٨٤
٩٨٥
٩٨٦
٩٨٧
٩٨٨
٩٨٩
٩٩٠
٩٩١
٩٩٢
٩٩٣
٩٩٤
٩٩٥
٩٩٦
٩٩٧
٩٩٨
٩٩٩
١٠٠٠

ثم ينطلق الدكتور هيكل الى اثبات انه اذا كان الاندلسيون من حيث الأصل شعبنا تجرى فيه دماء عربية ، ودماء إسبانية ، وان كانوا مولدين جنسا ، فهم عرب في قوميتهم ، وأنهم عرب في عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم ، ويختتم قائلا : وليس لنا الا ان نشكر المستشرق الاسباني ومن جراه اعجابهم بابناء عمنا الاندلسيين ومحاولة الصاقهم بهم وضمهم وقرائهم الى ما للاسبان من تراث .

اما عن تأثير حضارة ما قبل الاسلام في اسبانيا الاسلامية فيتصدى لها الدكتور الطاهر مكي بعنف شديد فيقول في مقالة له عن الحضارة الاندلسية:

لم يجد المسلمون في البلاد المفتوحة حضارة متكاملة ، وانما بقايا حضارة غاربة ، تعيش منعزلة منزوية ، وعناصر متعددة ، كل واحد منها يخشى الآخر ويستعبد القوى منها الضعيف ، ثم يواصل حديثه عن التركيب السكاني البلاد ، ذكرا العصر القوطي وما يمكن ان تجد فيه من تفاوت بين طبقات الحكام والمحكومين الى ان يصل الى قوله : هذا العصر القوطي بكل احواله لم يخلف وراءه حضارة متميزة في أي جانب ، لا نعرف له ثقافة ولا كتابة ولا ادبا ، والمكتبات قليلة ، ولدينا عنها اشارات شاذية ، ويتحدث عنها الباحثون افتراضا ، لم يصلنا منها شيء ويظن انها كانت ملحقة بالاديرة . (١٠)

ولست في مجال عرض باقى الآراء التى وصلت الى حد دراسة الادب الاندلسي كجزء من الادب الاسباني اسائنا في دمج الحضارة الاندلسية ضمن

الحضارة الشرقية ، ولنعد بعد أن أخذنا القول بعيدا إلى حضارتنا هذه التي على الرغم من كل ما يقال عن عوامل تأثرها بالشرق الاسلامي ، أو اعتمادها على الثقافة الرومانية القوطية أو جمعها بين هذين المصدرين ، إلا أنها قد فرضت نفسها على القاريين كحضارة أندلسية ليست شرقية ولا غربية وإنما اتشحت بثيابها الخاصة ، واكتسبت ملامحها المستقلة التي تميزها عن الحضارات المعاصرة لها أو التي استمدت أصولها منها .

ولا شك أن هذه الحضارة ترجع إلى عناصر انسانية متباينة من ناحية الأصل العرقي ، كما أنها من أبداع ماعات انسانية تختلف فيما بينها من الناحية الثقافية والدينية ، وهي بذلك تطرح علينا سؤالا هاما جدا عن المعنى الذي يقصد به القول « الحضارة الاندلسية » .

هل هي الحضارة التي تطورت على أرض الأندلس - أرض الاندلس فقط - بصرف النظر عن الأصل العرقي أو الموطن الأصلي لمن ابداع أو من ساهم في بناء هذه الحضارة ؟ وفي هذه الحالة ، هل نستثنى من ذلك ، تلك الجهود التي بذلها الاندلسيون على أرض غير اندلسية أثناء رحلاتهم ، أو في المناطق التي اتخذوها موطنا لاقامتهم ، ومن ثم نخرج كتابات الحميدي ، وأبي بكر الطرطوشي وأثير الدين بن حيان وغيرهم ممن كتبوا بعيدا عن أرض الأندلس .

ومن ناحية أخرى هل الحضارة الاندلسية ، نتاج ابداع الاندلسيين سواء في داخل أرض الأندلس أم خارجها ؟ وفي هذه الحالة فأننا نتوقف أمام صعوبة تحديد الأندلسي ، وهل هو المولود على أرض الأندلس ، أم من اتخذها موطنا ودارا ، من دخلها مع الفتح أو بعده ، من هاجر إليها عبر القرون الطويلة من أمثال زرياب وأبي علي القالي ، وصاعد البغدادي وغيرهم ، وهم ولا شك من اعلام هذه الحضارة وعمدها ونجومها البارزة .

نقطة أخرى - غاية في الأهمية - هل نقصر القول في الحضارة الاندلسية على نتاج المسلمين هناك أم يمتد التعرف ليشمل جهود أبناء اللتين المسيحية واليهودية والذين ادوا ضمن إطار هذه الحضارة دورا رائعا ومجهودا لا ينكر .

ان ذلك كله هو الذى يعطى الحضارة الاندلسية طعما خاصا ومذاقا متميزا عن ما عاصرها من الحضارات ، كما انه يعطيها نكهة خاصة عن الحضارة الاسلامية فى المشرق لأنها حضارة ساهمت فى تكوينها اجناس متباينة من البشر ، واجواء مختلفة من الطبيعة ولذلك فان ظلها يمتد ليشمل كل ما ابدعته قرائح الاندلسيين على ارض الاندلس او خارج هذه الأرض ، كما انه يتسع ليشمل أفئدة من قدموا الى الاندلس مع الفتح او بعده او من هاجروا الى هناك بعد ان حرموا مناخ الابداع فى بلادهم الأصلية ووجدوا فى الاندلس الأرض والمناخ اللذين اطلقا ملكاتهم وخلدا اسماءهم فى تاريخ الحضارة الانسانية ويتسع ايضا ليشمل بين جوائحه ما كتبه ابناء الديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والاسلام .

اعتماد المؤرخون والكتاب على تقسيم الحضارة الاندلسية الى فترات زمنية تتناسب والفترات التى ينقسم اليها التاريخ السياسى للاندلس وكتبت بعض المؤلفات عن الحضارة الاندلسية فى عصر معين ، أنظر مثلا كتاب الدكتور حسن على حسن « الحضارة الاسلامية فى المغرب والاندلس : عصر المرابطين والموحدين » ، (١)

واميل الى تقسيمها الى ثلاث فترات رئيسية دون أن يعنى ذلك الفصل بين هذه الفترات اللهم الا بغرض الدراسة لا أكثر .

١ - فترة التكوين : وهى الممتدة تاريخيا من عام ٩٥ هـ الى ١٨٠ هـ
٧١٤ - ٧٩٦ م .

٢ - فترة النمو والتطور : من ١٨٠ هـ الى ٣٠٠ هـ ٧٩٦ - ٩١٢ م .

٣ - فترة النضج والازدهار : وهى ما بعد عام ٣٠٠ هـ ٩١٢ م .

فترة التكوين : تبدأ بعودة القائد موسى بن نصير وطارق بن زياد الى بلاد المشرق وتولى عبد العزيز بن موسى أمور الاندلس فى عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م ، وتستمر حتى نهاية عصر الأمير هشام بن

عبد الرحمن الداخل ، المتوفى سنة ١٨٠ هـ ٧٩٦ م وهي فترة شغل تاريخها السياسى كثير من الحروب والغزوات سوا لاستكمال فتح الاندلس ، أو فى محاولات فتح جنوب فرنسا ، كما أنها حفلت بالثورات الداخلية والصراع بين القبائل العربية والبربرية :

وشهدت هذه الفترة كذلك من الناحية السياسية ، استقلال الاندلس عن جسم الدولة الاسلامية حين تمكن عبد الرحمن الداخل فى عام ١٢٨ هـ ٧٥٦ م من الاستيلاء على قرطبة وقضائه جل فترة حكمه فى صراع مع العناصر المناوئة ، وفى تثبيت عرش بنى أمية فى الاندلس ويمكن تبين ذلك كله بتفصيل واسع فى التاريخ السياسى لهذه الحقبة التاريخية .

ومع ذلك فإن هذه الفترة هى التى شهدت وضع البذور الأولى للحضارة الاسلامية فى الاندلس ، حيث أن الجيوش التى دخلت الى الاندلس ، وإن كانت فى غالبيتها من البربر - إلا أنها كانت مصحوبة بجموع كبيرة من العرب ، وخاصة الجيوش التى عبرت مع موسى بن نصير ، ويقدرها المؤرخون بثمانية عشر ألفا من العرب وكان هؤلاء العرب يحملون معهم على الأقل - غير ثقافة البيئة العربية ثقافتهم الدينية من حفظ القرآن الكريم أو بعض سوره وأجزائه ، وحفظ بعض الأحاديث النبوية ، وكذلك بعض ما كان يجرى فى بلادهم الأصلية من أشعار أو أحاديث أدبية ، وفى هذا المجال فاننى أود الإشارة الى نقطة أساسية بالنسبة لثقافة العرب القادمين الى الاندلس ، وتمثل هذه النقطة فى أن الجيوش التى وصلت الى هناك ، إنما هى من الجيل الاسلامى الرابع ، وأقصد بذلك أن الفتح الاسلامى لاندلس قد تم خلال الأعوام العشرة الأخيرة من القرن الأول الهجرى ، أى ما يزيد على قرن من الزمان منذ ظهور الديانة الاسلامية وما يقرب من حوالى ٧٥ عاماً من الاستقرار فى بلاد الشام ومصر وأرض الرافدين ، ولا شك أن الأجيال التى دخلت الاندلس هى التى تربت ونمت فى أحضان تلك الأجواء الثقافية النامية فى تلك البلاد . ومن ناحية أخرى ، فإن الفترة السياسية كانت تشهد نوعاً من الاستقرار فى عهد الخلفيتين

عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وشهدت تبعا لذلك نوعان الأزدهار الثقافي في المشرق ، وقد يساعدا على تصور الحالة الثقافية التي جاء بها العرب الى اسبانيا مع الفتح مباشرة او بعده .

من ناحية أخرى ، يتفق المؤرخون على أن الجيوش الإسلامية التي توجهت لفتح الشمال الافريقي ، وبعد ذلك الاندلس ، كانت مصحوبة بمجموعة من الصحابة والتابعين . واذا لم يكن مؤكدا وصول بعض الصحابة الى الاندلس الا أنه من المؤكد عبور بعض التابعين المختلف المؤرخون في اعدادهم واسمائهم ، وينقل الحميدى عن عبد الملك بن حبيب من « ١٧٩ هـ - ٨٥٣/٧٩٦ م » ملاحظة يقول فيها : ودخل الاندلس من التابعين « سوى من لا يعرف نحو من عشرين رجلا ، بهؤلاء وغيرهم الى مرسى بن نصير (١٢) وعبارة ابن حبيب « سوى من لا يعرف » تبين أن هناك غيرهم قد دخلوا الى الاندلس وربما جاء بعض التابعين بعد الفتح بغرض المشاركة في الجهاد .

ولقد كانت المهمة الأساسية لهؤلاء التابعين هي نشر الدين الاسلامي واللغة العربية بين المسلمين الجدد ، وفي تلك الأراضي التي افنتحتها المسلمون ومن هنا فانه من الممكن القول - دون مبالغة - ان الحياة الفكرية في الاندلس قد بدأت بعد اعوام قليلة من الفتح ، وان « اتسمت بطابع القلة والبساطة وتركزت في تعلم اللغة العربية والدين الاسلامي » (١٣) . ومع بدايات القرن الثامن الهجري ، لاثامن الميلادى ، شهدت منطقة شمال افريقيا والاندلس ، ثورة البربر ضد العرب مما حدا بالخلفاء الأمويين الى ارسال جيوش عربية كثيفة الى هذه المناطق لخماد هذه الثورة ، وعبرت منها الى الاندلس قوات كثيرة العدد منها الطلعة المعروفة تاريخيا باسم طلعة بلج القشيري ، وكان جلها من عرب الشام وتمكنت هذه القوات من اخماد ثورة البربر في الاندلس وساهمت في تكثيف الوجود العربى هناك ومن ثم سرعة تعريب هذه المنطقة .

كما أن هذه الفترة - من ناحية أخرى قد شهدت في بلاد المشرق الاسلامي ازدياد ثورات الخوارج والشيعة ، واحتدم الصراع بين الدولة والخارجيين

عليها ، وفي ظل هذه الظروف ، ربما كانت البلاد المغرب والاندلس ملجأ أقل خطرا ، فلجأ اليها بعض الفارين من وجه الدولة ، يحملون معهم آراءهم وأفكارهم الدينية وانتقلت هذه الافكار ، بطبيعة الحال ، الى الاندلس لتتعب دورها في الصراع الدائر هناك ، ولتساهم في نفس الوقت في توليد الافكار ، وتصارع الآراء الذي يشكل الاساس - دائما - لبقاء الحياة الفكرية والتطور الثقافي .
(انظر فجر الاندلس ص ١٤٨ وما بعدها) .

والى جانب هذه العوامل التى نعتقد أنها جذبت الكثيرين من العرب وغيرهم الى اسبانيا ، فاننا نضيف الى ذلك طبيعة وجغرافية الاندلس ، بموقعها ومناخها ، والتى لقيت قبولا كبيرا من العرب حتى انهم شبهوها في كتاباتهم وأشعارهم ببلادهم الأصلية وأطلقوا على المدن الاندلسية أسماء مدنهم الشامية ويقول عنها أبو عبيد الله البكري : الاندلس شامية في طبيعتها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها هندية في عطرها وذكائها ، اهرابية في عظم جبالتيها صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها . (١٤)

ومن هنا فاننى اتفق مع تصور الاستاذ الدكتور حسين مؤنس في أن الاندلس قد جذبت اليها أعدادا هائلة غير معروفة من العرب ، نستطيع أن نلمسها في صيحاتهم المدوية في أرجاء الاندلس ، وثوراتهم التى لا تكاد تنقطع كما نتبين ذلك في السرعة الكبيرة التى تم بها انتشار الاسلام في الاندلس ، وتحويل الغالبية العظمى من سكانه الى الدين الجديد .

ويمثل انتشار الاسلام واللغة العربية في الاندلس خطوة هامة في مجال قيام حضارة أندلسية ، وتجمع كل المصادر التاريخية على سرعة هذه العملية بصورة لافتة للنظر بحيث نجد أنه حين حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز اخلاء الاندلس من المسلمين خوفا عليهم أو « خشية تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن القوطية (١٥) أو « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين » على ما يقول صاحب الأخبار المجموعة (١٦) رد عليه السمع بن مالك يعرفه بقوة الاسلام وكثرة مدينتهم ، وشرف معاقلمهم ، وذلك في عام مائة من الجهرة ٧١٩ ميلادية أى بعد خمس سنوات فقط من انتهاء عملية الفتح ، وعودة القاضدين موسى

وطارق الى المشرق . وتعليق ذلك يرجع في المقام الأول - حسب آراء المؤرخين - الى قضاء الاسلام على الأوضاع السيئة التي سادت على العصر القوطي بحيث لم تعد هنالك طبقة متحكمة متمثلة في الأسر الحاكمة والنبلاء ، وزال سلطان الكنيسة ونفوذ رجالها ، وانتهت عبودية الأرض ، وأسرع العبيد لكي يتحرروا من العبودية الى اعتناق هذه الأديانة من جهة أخرى فان بعض الولاة اعتبروا نشر الاسلام مهمتهم الأساسية ، ومثالنا على ذلك الولي عقبة بن الحجاج السلولي الذي كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة في تكاية المشركين ، وكان اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الاسلام حينما ويرغبه فيه ويبصره بفضلله ، ويبين له عيوب دينه الذي هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل الفا رجل (١٧) ، ولقد كانت السياسة التي اتبعها الولاة مع السكان الأصليين ، والقائمة على تركهم أحراراً في معتقداتهم ذات أثر كبير في تأليف قلوبهم ، ودعوتهم بطريقة غير مباشرة الى اعتناق الاسلام ، ويعترف بذلك المؤرخ الاسباني « التاميرا » Altamira حيث يقول « بأن العرب لم يحترموا فقط ، بصورة مؤكدة العقائد الدينية ، وانما احترموا أيضاً الحياة الخاصة للشعوب التي خضعت لهم » .

ثم يواصل قائلاً في نفس الصفحة : « لقد وصلت غالبية الشعب الاسباني تحت الحكم الاسلامي ، حياتها العادية بما كان لها من كونهات وقضاة وقضاة وحافظوا على كنائسهم ، وباختصار شديد ، حافظوا على كل استقلالهم المدني ، ولم ياخذ منهم الأمراء والحكام الجدد ، الا الجزية الشرعية المفروضة » . (١٨)

في المجال التشريعي :

لا شك أن هذه العلوم هي أول ما تردد على أرض اسبانيا ، لأن أقوال التابعين وأعمالهم ، وآراءهم في توزيع الغنائم والاسلاب هي المصادر الأولى للعلوم التشريعية على أرض الاندلس . وبعد مضي فترة الفتح فلا شك في استمرارية هذه القواعد أو الآراء وسريانها على عصر الولاة انى أن نلتقى بالقضاة الأوائل الذين حفظت المصادر التاريخية أسماءهم من أمثال مهدي ابن مسلم ، وعقبة بن فلاح ، وخالد بن يزيد التجيبي ومعاوية ابن صالح الحضرمي . أما الأول من هؤلاء فقد وضع نصاً نظرياً فقهياً سنشيره اليه عند الحديث عن النثر - يقرر فيه مجموعة من القواعد التشريعية الهامة ،

والتي يجب أن تسود في مجال الفقه والتشريع . أما معاوية بن صالح ، فلقد تمتع بشهرة واسعة ، وخاصة في الشرق في علم الحديث ، وهو أحد الأوائل الذين نشروا هذا العلم على أرض الأندلس .

تبنت الأندلس في مجال التشريع المذهب الأوزاعي وهو مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي المولود عام ٨٨ هـ / ٧٠٧ م وقضى معظم حياته في بلاد الشام وتوفي عام ١٥٧ هـ / ٧٧٧ م ودفن في بيروت .

كان الأوزاعي من أبرز الفقهاء الذين ظهوروا بالشام وكان يرى اتباع السلف ، ولا يبدي برأيه إلا في حالة عدم وجود نص ، وكان يعتمد على أقوال السابقين حيث يقول : اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقتل بما قالوا وكف عما كفوا ، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما يسعهم (١٩) .

وأول من أدخل هذا المذهب إلى الأندلس هو صعصعة بن سلام المتوفى عام ١٨٠ هـ وهو فقيه من أصحاب الأوزاعي ، وكانت الفتيا دائرة عليه أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية (٢٠) ، لكن الدكتور محمود علي مكي يرى أن أول من أدخل المذهب الأوزاعي إلى الأندلس هو قاضي اليبرة أسعد بن عبد الرحمن السبتي المتوفى حدود سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م (٢١)

عاش هذا المذهب في الأندلس فترة طويلة ، وعلى الرغم من أنه اعتباراً من عهد الأمير هشام الرضى والحكم الأول فإن المذهب المالكي كان قد بدأ يأخذ طريقه إلى الحياة التشريعية في الأندلس إلا أن المذهب الأوزاعي ظل محتفظاً ببعض الأوفياء له من أمثال : زهير بن مالك البلوي ، المتوفى ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م والذي « كان فقيهاً على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بني أمية » (٢٢) .

ومع دخول الأمويين واستقرار الأمور لهم في الأندلس ازداد انسياب العلوم الشرقية إلى الأندلس ، ومنها بطبيعة الحال المزيد من العلوم التشريعية. ورحل الأندلسيين إلى الشرق وتلقوا على مالك بن أنس بالمدينة ، وعادوا معهم كتابه المشهور « الموطأ » وبدأوا في نشر مذهبه في الأندلس ابتداءً من عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وأوائل من حملوا هذا العبء ، الغازي بن قيس ، المتوفى ١٩٩ هـ / ٨١٥ م ، وزيد بن عبد الرحمن المعروف بشيطون ،

المتوفى ٢٠٤ هـ / ٨١٩ وعيسى بن دينار قاضى طنيطلة المتوفى ٢١٠ هـ / ٨٢٥ .
وأخيرا تلك الشخصية البارزة يحيى بن يحيى الليثى المتوفى ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م
ويقول ابن فرحون عن عيسى بن دينار ويحيى الليثى : وبه وب يحيى انتشر
علم مالك بالاندلس ، ورجعت الفتيا الى رايه ، (٢٣) .

في المجال الأدبي :

تكمن الصعوبة حقيقة في تحديد بدايات النشاط الأدبي على أرض
الاندلس سواء في مجال الشعر أو في مجال النثر ، ويرجع ذلك الى اختلاف الآراء
في هوية الاندلس ، كما سبق أن أوضحت ، والى أن القائلين شعرا أو نثرا
خلال هذه الحقبة انما طرأوا على الاندلس ، ولهم أصولهم الشرقية الواضحة ،
وتم يجد الباحثون فروقا أصولية تميزهم عن الأدب العربي عامة ، ولا يمنح
ذلك بطبيعة الحال من دراسة ما وجد فعلا على أرض الاندلس في تلك الفترة
الباكرة ، لأن ذلك (الموجود) أيا كان الرأي في هويته وأصوله فهو موجود
على أرض الاندلس ، وهو الأساسى لما كان بعد ذلك من أدب ، لا يشك انطلاقا
في كونه أدبا اندلسيا .

والحقيقة التى نبدا بها تناول هذا الموضوع هى ندرة الشواهد الأدبية
أو بعبارة أدق عدم وصول شواهد أدبية كافية الى أيامنا هذه ، وقد يرجع
ذلك الى عاملين :

أولهما : الحالة السياسية للفترة وما اعتراها من صراعات وحروب
متواصلة .

وثانيهما : الإيغال فى البعد تاريخيا ، حيث نتناول بالدراسة فترة تبعد
عنا بما يقرب من اثنى عشر قرنا من الزمان .

ولنا أن نتصور أنه كما صاحب جيوش الفتوح الإسلامى عدد من علماء
الدين ، فانها ولا شك قد ضمت جوانحها بعض الأدباء من الشعراء أو القصاصيين
أو النسايبين ، أو بعض حملة نصيب من الثقافة السائدة حينذاك فى بلاد
الحجاز والشام ومصر ، وكان هذا القدر من الثقافة - ولو كان قليلا - الأساس
الذى تطورت عليه فيما بعد ثقافة الاندلس .

وكذلك لا شك في أنه قد ورد إلى الاندلس بعد الفتح واستقرار الأمر بعض ممن كانوا يقرضون الشعر ، وحفظت لنا المصادر نقفاً قليلة من أشعارهم ، ومن هؤلاء الشاعر أبو الخطار هشام بن ضرار ، وجاء إلى الاندلس والياً في سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م على عهد هشام بن عبد الملك . وكان الصراع في الاندلس محتد ما بين القيسية واليمانية وكان هشام يميل إلى القيسية ، فلما اشتدت عليه الأزمات شاور العباس بن الوليد فنصحه بالمودة إلى تاييد اليمانية وقتل له : يا أمير المؤمنين ليس يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله فاصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه القحطانية ، (٢٤) يشير بذلك إلى نصر اليمانية للأمويين في معركة مرج راهط .

وفي نفس الوقت جاءت رسالة أبي الخطار بقصيدة شعرية يقول فيها :

لما تم بنى مروان قيساً دماغاً

وفي الله أن لم تتصفوا حكم عدل

كانكم لم تشهدوا مرج راهط

ولم تعلموا من كان ثم له الفضل

وقيناكم حر الوغى بصورنا

وليس لكم خيل تعد ولا رجل

فلما رايتم راقد للحرب خبا

وطاب لكم منها الثارب والأكن

تغافلتم عنا كان لم يكن لنا

بلاء وانتم ما علمت لها فعل

فلا تجزعوا أن عضت الحرب مرة

وزلت عن المرقاة بالقدم والنعل (٢٥)

ومن أجل ذلك ، ولى هشام حنظلة بن صفوان الكلبى على افريقية .
وأمره أن يولى ابن عمه أبا الخطار على الاندلس ، وقدمها - كما قدمنا -
سنة ١٢٥ م ، ومن الطبيعى أن هذا الأمير الشاعر قد قرض الشعر على أرض
الاندلس واستشهد به فى ادارته للبلاد أو فى صراعه مع الخارجين على
سلطته .

والدليل على ذلك أن الحميدى قد نسب له ابیاتا أخرى يقول فيها :

فليت ابن جواس يخبر اننى -

سعت سعى امرئ غير غافل

قتلت به تسعين تحسب أنهم

جنوع نخل نخيل صرعت بالمسائل

ولو كانت الموتى تباع اشتريته

بكفى وما استثنيت منها أناملى (٢٦)

وقال الدكتور أحمد هیکل بأنه لقب « بعنصرة الاندلس » ، (٢٧) .

وممن ظرا على الاندلس من الشعراء فى هذه الفترة أيضا أبو الأجرى
جعونة بن الصمة ، الذى عرف بهجائه للصميل بن حارم زعيم القيسية
وأحد زعماء الاندلس المعروفين ، ثم حول بعد ذلك الى مدحه ، ولم يحتفظ
المصادر التاريخية بالكثير من شعر هذا الرجل ، ويقول عنه الحميدى نقلا عن
ابن حزم : وإذا ذكرنا أبا الأجرى جعونة بن الصمة لم نبار به إلا جريرا
والفرندق لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على أوائى
مذاهب العرب ، لا على طريق المحدثين ، وينقل إلينا من شعره :

ولقد أرانى من هواى بمنزل عال ورأسى ذو غدائر أفرع

والعیش أغيد ساقط أفنانه والماء أطيبه لنا والمرتع . (٢٨)

وكان لهذا الشاعر سمعه في بلاد المشرق حتى يقال ان أبا نواس سأل عنه عباس بن ناصح الاندلسي ، وطلب ان يسمع شيئاً من شعره جعونة وذلك حين التقيا معا في العراق (٢٩) .

الى جانب ذلك هناك بعض الأبيات التي قيلت في الصراع الذي كان يجرى هناك ، ومنها مثلاً ما أورده المصادر حين الحديث عن الصميل بن حاتم وأثناء حصاره في سرقسطه ، أرسل في طلب النجدة فقام اليه بعض العرب ومعهم عبد الله بن خالد وعبيد الله ابن عثمان وهما رأس الأموية في الاندلس ، فلما بلغوا وادى طليطلة بلغهم ان الحصار اشتد وأضر بالصميل ، فقدموا رسولاً من قبلهم وقالوا له : ادخل في جملة المحاربين للسور ، فاذا قربت منه ، أرم بهذه الأحجار ، وفي كل واحد منها بيتان وهما :

الا أبشر بالسلامة يا جدار

أتاك الغوث واتقطع الحصار

أتتك بنات أعوج ملجعات

عليها الأكرمون وهم نزار (٣٠)

اما الصميل نفسه ، فتحتفظ لنا المصادر ببيت من الشعر قاله حين رأى ماله يفتهب على يد الطائبيين بعد انتصار عبد الرحمن الداخل وهو :

لا ان مالي عند طي وديعة

ولا بد يوماً ان ترد الودائع (٣١)

وذكر على أدهم البيت مضيفاً لايه :

سلوا • عنا عن فعل رمحي ومنصلي

فان سكتوا اثنت على الوقائع (٣٢)

واذا كانت المصادر مجدبة فيما احتفظت به من أخبار شعراء الفترة فليس ذلك مما يدفع الى القول بعدم وجود هؤلاء الشعراء أو خلو الفترة من قرض

الأيام وقد فن الطروف الصخرية والمزارع الطيلي : والتنافس والتنازع
والفكرة عظم مشيخة التلي على الحياطة والنظم ، فاقدا الضمنا الى ذلك
طبيعة الأرض الجميلة الخلابة لا عرق العرب ، وأثر ذلك في تفسير نتائج
الشعر لا يمكن لنا أن نتصور البداية التي أوتى عليها بعد ذلك الشعر الأندلسي .

ونأتي الفترة التالية ، والتي تقسم بوصول الفراع جديدة من العرب الى
الأندلس مع طوف مستوطنة لنبوة الأموية في الشرق ووصول عبد الرحمن
الداخل الى غرطة سنة ١٢٨ / ٧٥٥ م ، وتزداد الثروات الأدبية ، وتكثر
الأيام الواردة في المصادر .

ومن أهم شعراء هذه الفترة : الأبر عبد الرحمن الداخل نفسه ، والذي
كان شاعرا جيدا ، وتأثرا بطيعة ، ولم يكن من الغريب أن يأتي شعر الداخل
عضورا لجون حياته الطيبة والطيبة ، تنظم في النوبة والحنين كما أنه
نظم في الفخر والحلمة وأثر بشعره وكناحه الفذ من أجل إقامة دولة الأموية
في الأندلس خلفا لذلك التي بلغت في دمشق . وأقرأ الداخل هذه الأبيات
المرقطة في حقيق الى الأمل :

أيها الزك الجيم أرقى

أقر من يقضى السلام ليغنى

من جنى كما تراء يسألنى

وقوالى ومالكيه يارقى

عز الدين بيتنا ظفرتنا

وعزى الدين عن جوتى غمضى

ت قضى له يفرق عينا

تسمى تاجنا سوق يقضى (١١١)

وهو الذى حاف تلك الصلاة النورية بين فحة زرعيا العرب في ارقى
أطلى تجلت دية زرعيا هناك غريبة : وبين حاله غامد غالا :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تقاعت بأرض الغرب عن باد النخل

فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنى وعن اهلى

نشأت بأرض انت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والتناهى مثلى (٣٤)

ولعبد الرحمن الداخلى اشعار اخرى مدونة فى المصادر التاريخية ، منها
ماقاله حين كتب اليه بعض من وفد عليه من قريش يستقصرونه فيما يجربه
عليه ، ويسال الزيادة ، ويستطيل عليه بدالة القرابة • وكتب عبد الرحمن
قائلا :

شتان من قام ذا امتعاض
منتضى الشفرتين تصلا
فجاب قفرا وشق بحرا
ساميا لجة ومحلا

فبز ملكا وشاد عزا
ومنبرا للخطاب وفصلا (٣٥)

وهذاك من ينسب اليه هذه الأبيات مع اختلاف فى الكلمات حين ذكروا له
تفاخرا ما كان من الغمر بن يزيد مع عبد الله بن على بن عبد الله العباسى (٣٦)

وذات يوم كان عبد الرحمن خارجا الى الثغر فى بعض غزواته ، فوقعت
غرائيق (طيور مائية بيضاء اللون ، طويلة السيقان ، لها قنارع ذهبية اللون)
فى جانب عسكره ، واتاه بعض من كان يعرف كلفه بالصيد يعلمه بوقوعها .
ويشبهه بها ، ويحضه على اصطيادها ، فأطرق عنه قليلا ثم جاوبه :

دعنى وصييد وقلع الغرائق
 فان همى فى اصطيد المارق
 فى نفق كان أو فى حالق
 اذا التظت هواجر الطرائق
 النخ (٣٧)

وحين قتل صبيحة حيوة بن ملامس الحضرمى ، وكان اثيرا لديه قال
 يرثيه :

فلا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها

اذا غاب عنها حيوة بن ملامس

اخو السيف قارى الضيف حقايرهما

عليه وناقى الضيم عن كل بائس (٣٨)

ولم يكن الداخل بالشاعر الأموى الوحيد ، لأننا نرى قريبه عبد الملك
 بن عمر الروانى ، تنسب اليه أبياتا شبيهة بأبيات الداخل التى قالها فى
 النخلة سواء من حيث المعنى أو أسلوب البناء ، ومطلع هذه الأبيات :

يا نخل انت فريدة مثلى

فى الأرض نائية عن الأهل

تبكى وهل تبكى كممة

عجبا لهم تجبل على جبل

...

...

(٣٩)

...

ومن شعراء هذه الفترة أيضا عاصم بن زيد العبادي المعروف باسم
« أبو المخشي » ، وكان والده ممن وفدوا على الاندلس في فترة الولاة ، ونزل
منطقة البيرة ونشأ أبو المخشي في المنطقة ، وقرض الشعر حتى أصبح من
المع شعراء عصره ، بل وصل الى كونه شاعر الدولة المروانية في الاندلس .

واشعار هذا الرجل التي وصلت اليها قليلة ، وتروى المصادر ميته لعبد
الرحمن الداخل ومدحه له ، وكذلك انحيازه لسليمان بن عبد الرحمن مما عرضه
لغضب هشام بن عبد الرحمن ، وكان بين الأخوين بعض المنافسة ، ويقال
بان هشاما تمكن من لشاعر فقطع طرف لسانه وسمل عينيه ، وكانت تجربة
قاسية صاغها الشاعر أبياتا جارة مؤثرة : حركت قلب عبد الرحمن الشعر
لواساته وأغضبتة على ابنه هشام ، ويقال ان الأمير هشام نفسه قد ندم
على فعله وحاول تفرييض الشاعر ما أمكن .

ويرى مؤرخو الأدب ان أبنا المخشي يمثل الشعر الاندلسي في فترة
التأسيس اصدق تمثيل ، فهو يمثل في ظهور بعض السمات الاندلسية الخاصة
من تجديد في الموضوعات ، ومحاولة التجويد ، كما انه يمثل في مسيرته
البدوية المحافظة المقلدة لاشعار عرب ما قبل الاسلام . ويستدلون بأبياته
التي حاول فيها معالجة تجربته الجديدة في فقدان البصر ، ومن أجمل ما قاله
هذا الرجل :

وهم ضافني في جوف ليل

كلا موجيهما عندي كبير

فبتنا والقلوب معلقة

وأجنحة الرياح بنا تطنيز

وله أبيات أخرى ذكرها وحللها الدكتور الحمد هيكل في كتابه عن « الأدب الأندلسي » (٤٠) ، وأورد له الدكتور محمود على مكي ترجمة كاملة ومعظم ما حفظ من أشعاره في رسالته عن المؤثرات الشرقية في الثقافية الأندلسية (٤١) ولن استطرد أكثر من ذلك في ذكر شعراء هذه الحقبة والذين أكثر عددهم أيشمن أمراء البيت الأموي من أمثال الأمير هشام وابنه الحكم الأول ، وليضم أيضا بعض الشخصيات المعروفة من أمثال عباس بن ناصح الجزيري ، والشاعر أبو الحسين وابنته حسانة التميمية ، ويكفي ذلك للدلالة على أن أسس الانطلاقة الشعرية قد توطدت وأن راحلة القوافي قد بدأت مسيرتها لتقش لل شعر الأندلسي مجاريه ضمن واحات الشعر العربي .

أما النثر فإن طبيعة الأمور تختم وجود ثروة نثرية كبيرة على الرغم من ندرة ما وصل إلينا من نصوص نثرية ، ونعتمد في قولنا بوجود ثروة نثرية ، على أساسين واضحين أولهما الحاجة الملحة إلى استخدام الكلمة الحسنة ، والأسلوب الواضح في مجال الدعوة إلى الإسلام ، وإقامة الشعائر الدينية وخاصة الصلاة الجامعة أيام الأعياد والجمع ، أما الأساس الثانى ، فهو الحاجة الماسة إلى استعمال الكلمة لها للحث على الحروب الأهلية أو شجبتها ، كما أن الكتابة كانت حاجة ملحة في هذه الفترة تتطلبها ظروف الفتح والحكم والإدارة ، كما تتطلبها مناسبات رسمية وأخرى شخصية مثل كتابة العهود ، أو وضع شروط الصلح أو توجيه بعض المكاتبات .

وأول نثر عربى ابتدعه خيال المؤرخين ليرتبط بأرض الأندلس يتمثل في تلك الخطبة الرائعة التى نسبت إلى طارق بن زياد ، والتى ألهاها لاشعال حماسه جنوده قبل اللقاء الحاسم فى معركة وادى لكة ، وتتلون تلك الخطبة فى صيغتها التى وصلت إلينا ، عن عبارات ذات صبغة عربية قحة ، ولكلماتها رنين قوى ، وأفكارها أفكار حربية ، تتشجع الجنود على النصر وتحذرهم الهزيمة . لكن هذا النص الأدبى رغم أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بأرض الأندلس ،

لا يمكن تضمينه هذه الدراسة وذلك للشك الكبير في صحته تاريخيا ، وعدم وجود أدلة قوية على نسبته لطارق بن زياد ، وأيضا لأن قائله ، وإن كان قد قاد عملية الفتح إلا أنه عاد إلى المشرق بعد ذلك ، وظل هناك حتى نهاية حياته ، وهناك أيضا بعض النصوص المنسوبة إلى موسى بن نصير وإلى مغيث الرومي ، لكن تلك النصوص مثلها مثل تص طارق بن زياد تتعرض لكثير من النقد ويعتقد أنها كتبت بعد عصرهم ونسبت إليهم .

ومن النصوص الفثرية الأولى التي وصلت إلينا ، صيغة الكتاب الذي قدمه عبد العزيز بن موسى بن نصير إلى تدمير حاكم منطقة مرسية ، وتحدد فيها نوع المعاملة التي يجب أن تسود بين الفريقين ، ويبدأ الكتاب بالصيغة التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد العزيز إلى تدمير ، إنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عن ملكه ولا أحد من التصاري عن أملاكه ، وأنهم لا يقتلون ، ولا يسبون أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون عبي دينهم . . . الخ ، (٤٢) .

أما النص الآخر الذي تتجلى فيه روعة الأسلوب مع وضوح الفكرة فهو المنسوب إلى صياغة القاضي مهدي بن مسلم قاضي عقبة بن الحجاج السلولي والذي تولى الاندلس في سنة ١١٦ هجرية وظل بها حوالي ٥ سنوات ، إلى أن استشهد في جهاده في أرض خاله ، والرسالة من صياغة القاضي ، والذي طنب منه وإليه لحجاج كتابة العهد فكتب رسالة ذات مستوى لغوي سليم ، موضحا بها بعض النقاط الهامة في « المساواة بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظة استماعه ، وأن يفهم من كل أحد حجته وما يدلي به ويستأنى كل عيبي اللسان ، ناقصي الإتيان ، فإن استقصاء الحجة ما يكون لحق الله تعالى عليه قاضيا ، وللواجب فيه راغبا ، فقد يكون الحجة بحجته وأبلغ في منطقته ، وأسرع في بلوغ المطلب ، والطف حيلة في المذهب وأذكي ذكاء ، وأحضر جوابا من بعض ، وإن كان غير الصواب مرماه ، وخلاف الحق منهاه » (٤٣) .

وكذلك احتفظت لنا المذونات بجزء من رسالة يوسف الفهرى آخر ولاية
الاندلس والتي وجهها الى عبد الرحمن الداخل حين نزل بأرض الاندلس يعرض
عليه بعض الشروط لكي يتجنب الحرب ، ولكن فشلت هذه الرسالة في احلال
الصلح بين الطرفين وذلك بسبب غرور كاتبها خالد بن يزيد ، ويروى لنا
صاحب كتاب اخبار مجموعة ، أن خالدا حمل كتاب يوسف الى عبد الرحمن
وكان « ادبيا عاقلا ، الا انه زنى ، وكان هو مملئ الكتاب فان له العجب والنفخ ،
وفديما ما أهلك دين الرجال ودنياهم ، فقال : يا ابا عثمان : لتعرقن ابطك
قبل ان تحير فيه جوابا » . فغضب أبو عثمان وسبه ، وفشلت الوساطة واخذ
خالد بن يزيد أسيرا (٤٤) .

ومن كتاب هذه الفترة لدينا أسماء خالد بن يزيد ، وأميه بن يزيد وكانا
من كتاب يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، ثم انتقلا بعد ذلك الى خدمة عبد
الرحمن الداخل .

وتصف الكتابات الأدبية نثر هذه الفترة الأولى من تاريخ الأدب
الاندلسى بأنه كان يحمل الخصائص الفنية للنثر الشرقى ، كما أنه نثر يميل
الى الایجاز ، ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ، ثم هو لا يعرف
تلك المقدمات الطويلة أو الالقاء المتعددة مثلما هو الحال فى العصور التالية .

وكما كان وصول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس علامة بارزة فى تطور
الشعر فهو كذلك أيضا فى مجال النثر ، لأن الأمير كان شاعرا جيدا وناثرا
مفلقا مفحما . ومما ينسب اليه قوله حين قتل المغيرة ولد أخيه الوليد :

يا عجبى الا من هؤلاء القوم ، سعيينا فيما يضاعفهم فى مهاد الأمن
والنعمة ، وخطرنا بحياتنا ، حتى اذا بلغنا منه الى مطلوبنا ، ويسر الله تعالى
به حتى آمنوا وردت عليهم أخلاق النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخرا بآثافهم ،
وسموا الى العظمى ، فنازعونا فيما منحه الله تعالى (٤٥) .

ولقد احتفظت لنا المصادر بالكثير من النصوص النثرية المتعلقة بعبد

الرحمن الداخل ، ومنها خطبة قالها بعد انتصاره في معركة المصاراة سنة ١٢٨ هـ ورسالة منه الى سليمان الاعرابي ، حاكم برشلونه الذي أعلن العصيان ، وتحالف مع شارلمان .

ولم تقتصر الحياة الفكرية في الاندلس خلال ذلك التاريخ البعيد على تلك الشواهد الأدبية شعرا أو نثرا ، وإنما بدأت العلوم الإسلامية التي كانت قد فضجت في الشرق في الانسياب نحو الاندلس ، فبدأت قلية تشق طريقها بثبات الى هناك الى أن حفرت مجرى واسعة انتقلت خلاله معظم هذه العلوم والآداب لتعيش على أرض الاندلس ، ولتصبح هناك بطبيعة الأرض وسجايا الناس ولتتحول الى جزء لا يتجزأ من الحضارة الاندلسية .

ومن أوائل من حملوا العلم الى الاندلس نجد زيادا بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٩٩ هـ وهو أول من أدخل الاندلس فقه مالك بن أنس ، وكانوا قبل ذلك على المذهب الأوزاعي ، (٤٦) وهو أول من دخل الاندلس بالفقه والحلال والحرام ، وهو أول من أظهر سنة تحويل الأودية في الاستسقاء ، (٤٧) .

وفي أيام عبد الرحمن بن معاوية دخل الغازي بن قيس الاندلس بالموطأ عن مالك بن أنس رحمه الله ، وبقرأة نافع بن أبي نعيم . وفي أيامه دخل أبو موسى الهواري عالم الاندلس ، وكان قد جمع علم العرب الى علم الدين ، وكانت رحتهما من الشرق الى الاندلس بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية الاندلس ، ودخل الاندلس قبل دخول الامام عبد الرحمن بن معاوية ، وكان من جلة أهل العلم ، ورواة الحديث ، وكانت له مكانة عظيمة ، لدرجة ان سئل محمد بن وضاح : هل جمع أهل الاندلس علم معاوية بن صالح ؟ فاجاب بالنفي فقيئ له : وما متعكم من ذلك ؟ قال : قدم بلدا لم يكن أهله يومئذ أهل علم فقيل له اضعتم والله علما عظيما (٤٩) .

وانتهت الى الى الاندلس امهات الكتب في النحو منذ اواخر القرن الثاني فادخل جودي بن عثمان العبسي المتوفى سنة ١٩٨ كتاب الكسائي ، وكان قد رحل الى الشرق ، واخذ عن الرياشي والفراء والكسائي (٥٠) .

كذلك بدأ استخدام علم التنجيم في هذه الفترة المبكرة من تاريخ
الأندلس حيث أن حسان بن عبد الرحمن الداخل حينما تولى بعث في طلب الضبي
المنجم بالجزيرة فقال له لست أشك أنك قد عنيت بأمرى إذ بلغك ، فناشدتك
الله إلا أخبرتنى بما ظهر لك ، فقال له الضبي : ناشدتك الله اعفيتنى من هذا
فأعفاه فلما كان بعد أيام كشف عنه ، فقبل له خاطر بعث فبعث فيه وقال له :
إن الذى أسألك ، لست الله أصدق به على الحقيقة ولكن أريد أن أسمعك ولئننى
أوردت على ما يغمنى لا أعاقبك ولا أكسونك ولأحبونك ، وأكافئك كما كنت
أكافئك على أن تور على ما يسرنى ، فقال له الضبي : ما بين الستة والسبعة ،
فأطرق عنه ساعة ، ثم رفع رأسه إليه فقال له : يا ضبي والله لو أنها سجدة
في سبيل الله لهانت (٥١) .

المجال التربوي والتعليمي :

لا شك أن عملية التطور الثقافى والفكرى التى أشرنا إليها قد مضت في
طريقها معتمدة على انتشار اللغة العربية والإسلام ، وتعمقهما في نفوس أهل
الأندلس ، كما أنها قد صاحبها نشاط تربوي وتعليمي يحسن بنا أن نشير إليه
باعتباره مظهرا هاما من الحضارة الأندلسية كما أنه الأساس الراسخ الذى
بنيت عليه هذه الحضارة .

بدأت الحياة التعليمية في الأندلس بعد الفتح مباشرة ، وتمثلت في
بداية الأمر تعليم اللغة والدين الإسلامى ، وقام بهذه المهمة مجموعة من العلماء
الذين رافقوا الجيوش الإسلامية في عبورها إلى أرض شبه الجزيرة
الإيبيرية أو من هاجر إلى هناك بعد الفتح .

اتجه للتعليم - كما هو طبيعى ومنطقى - في بداية الأمر إلى الكبار
سواء من سكان الأرض الإسبانية أو من البربر حديثي العهد بالإسلام ، وهو
أمر كان يحرص عليه الذين اهتموا بتعلم لغة الفاتحين من أجل مصاحهم الخاصة
أو ممن اعتنقوا الإسلام ، وحاولوا معرفة لغة دينهم .

وفي نفس الوقت فإنه لم تنتقض مدة طويلة حتى بدأت في الظهور أجيال جديدة من أبناء الفاتحين وزوجاتهم الأسبانيات ، ومع هذه الأجيال تجلّت الحاجة الى تعليم الأطفال اللغة العربية والقرآن الكريم .

ولدينا من البيانات التاريخية ما يثبت وجود الكتب في الاندلس على عهد الولاة حيث يحكى أن الصخيل بن حاتم قد مر يوما بمعلم يعلم الصبيان وهو يقرأ هاتلك الايام بداولها بين الناس ، ودار بينه وبين المعلم جدل غريب ، يمكن أن نفسره بأكثر من معنى . (٥٢) . كما أن الزبيدي في كتابه طبقات النحويين ، ينقل لنا نصا قيما عن الغازي بن قيس ، المتوفى سنة ١٩٩ هـ ٨١٤ م . يمكن لنا ان نستنتج منه أنه في أيام دخول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس كان الغازي يمارس التأديب ، بل ان هذه المهنة كانت شائعة ، ويمارسها عدد كبير من الناس وان هؤلاء كانوا يشعرون بأنهم يمارسون حرفة معينة ، يجب أن يتقاضوا في مقابلها اتعابا ، ويتجمعون للدفاع عنها (٥٣) .

وما من شك في أن عدد الذين تعلموا خلال هذه الحقبة كان كبيرا وبعض هؤلاء هم الذين اتيح لهم على عهد عبد الرحمن الداخل القيام بالرحلة الى الشرق ، وعادوا - كما اشترنا - حاملين معهم مزيدا من الثقافة الى الاندلس مما دفع بهذه الحضارة خطوات على طريق التطور والارتقاء .

في دجل الأهوان :

مما يلفت النظر في دراسة هذا الجانب من جوانب الحضارة الاندلسية عدم قيام المسلمين هناك بتأسيس مدن خاصة بهم رغم أهمية هذا العمل في الاستقرار في البلد الجديد وتحويله الى العربية لغة والاسلام دينا ، وتفسر ذلك تفسيراً علمياً يتطلب دراسة مستقلة عن دور المدينة الإسلامية في تعريب الاوطان الجديدة ونشر الاسلام بها ، وخاصة ان الامثلة السابقة لا تحدد لنا بالضبط لماذا تم بناء هذه المدن . ففي العراق ، وهو بلد كثيف السكان تم بناء البصرة والكوفة ، أما بلاد الشام فلم تبين بها مدن جديدة ، ومصر حظيت ببناء القسطنطينية ، وأفريقية بالقيروان أولا ثم تونس بعد ذلك .

وجاء بناء المدن في الاندلس فيما بعد في فترة الازدهار الحضارى وتمش
في اقامة اماكن خاصة للخلفاء مثل الزهراء والزهرة ، أو اقامة مدن بحرية مثل
مدينة المرية .

أما أول مظاهر العمران التي قام بها المسلمون هناك فتتمثل في انشاء
المساجد حيث تجمع المصادر التاريخية على أن أول شيء أقامه موسى بن نصير
هو مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء التي يقول عنها الإدريسي : أنها أول
مدينة افتتحت في ذلك الوقت وبها على باب البحر مسجد « مسجد الرايات »
ويقال أنه هناك اجتمعت رايات القوم للرأى ، (٥٤)

كما أن حنش بن عبد الله الصنعاني - أحد التابعين الذين لاخلاف
حول دخولهم الاندلس مع الفتح - قد قام بتأسيس عدة مساجد هناك ،
فيذكر الحميدى حين يترجم له أنه : غزا الاندلس مع موسى بن نصير وله بها
آثار ، ويقال : أن جامع مدينة سرقسطة من ثغور الاندلس من بنائه ، وأنه
أول من أخطه . (٥٥) ويشير الدكتور عبد الرحمن على الحجى نقلا عن
المصادر الاندلسية الى تأسيس حنش الصنعاني ، بالتعاون مع غيره مساجد
مدن : آلبيرة وقرطبة وسرقسطة وربما غيرها . (٥٦)

وإذا كانت هذه المساجد قد اقيمت خلال مرحلة الفتح نفسها ، فإنها
استمرت بعد ذلك طوال التاريخ الاندلسي ، فاهتم الولاة والامراء والافراد بها
ومثالنا على ذلك قيام عبد العزيز بن موسى بن نصير أول وال في الاندلس ،
ورغم أنه لم يحكم إلا عدة شهور ، ببناء مسجد بأشبيلية أمام داره ، وهو
المسجد الذي قتل فيه حين خرج لامامة المسلمين . (٥٧)

وما يقوله « التباهي » عن معاوية بن صالح أنه « من القضاة المتقدمين
خرج من الشام الى الاندلس فوصلها سنة ١٢٣ هجرية ، فاستوطن مدينة
مالقة ، وبنى بأسفل قصبتها مسجدا هو منسوب حتى الآن له . (٥٨)

وإذا لم تكن متوفرة لدينا الطرقات الفنية عن مصالح هذه الفترة البيعية من التاريخ الأندلسي ، إلا أن لولادة الله لم تفسد أن تحرمها من الخلود حين هيا لها عبد الرحمن الداخل لكي يبدأ في بناء مسجد قرطبة الجامع ، والذي أصبح فيما بعد مفخرة في البناء الدني في الأندلس ، وكان وما زال مرة غالية في مجال فن البناء الإسلامي والحضارة الأندلسية خاصة والإسلامية عامة .

بدأ عبد الرحمن بقاء هذا المسجد في عام ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) ، وجلب إليه الأعمدة والنخام النقوش بالذهب والفضة ، وتوفي قبل إتمامه ، واكمل ابنه هشام ، وكان فيه أمراء بنو أمية وخلفاؤهم من بعد حتى عدا أعظم مصالح الأندلس وبلغ ما أنفقه عليه عبد الرحمن الداخل وحده زهاء ثمانين ألف دينار ، (٥٢)

واتجه اهتمام المسلمين أيضا إلى تحسين المرافق القائمة ، فقد تبنى الوالي السمع بن مالك الخولاني إلى تيدم قنطرة قرطبة بعد أن استشار الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أمر بتجديد بنائها من صخر سور المدينة ، وأن يبنى سور المدينة باللبن إذ لا يجد له صخرا ، فوضع - أي السمع - بدأ فبنى القنطرة في سنة إحدى ومائة (٦٠) ، وعمت هذه القنطرة والمسجد الجامع من أهم معالم مدينة قرطبة ، وإذا كان عذان البناء من وضع فترة التأسيس الحضاري ، فإن المدينة لم تصف إليها بعد ذلك إلا الزهراء وتميزها بالعلم حيث يقول الشاعر عن هذه المدينة الخالدة :

بأربع فاق الأبصار قرطبة

منهن قنطرة الولدي وجامعتها

ماتان ثقتان والزهراء الثالثة

والعلم أفضل شيء وهو رايها (٦١)

وشهد عصر عبد الرحمن الداخل اهتماما بالمدينة ، وركزا اهتمامه على

قرطبة التي حاول أن يجعل منها صورة لمدينة دمشق حيث مجد أجداده .

« فحصنها وزينها بالمخشات الفخمة والرياض اليبانة ، وكان أول ما أنشأ بها على عهد منية الرصافة التي أنشأها في شمال غربي قرطبة وأنشأ بها قصرا تحيط به الحدائق ، وجلب إليه مختلف الغروس والبذور والنوى من الشام وأفريقية وأسماها الرصافة تخليدا لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بالشام ، واتخذها مقاما ومنزها ومقرا للامارة ، وكانت حدائق الرصافة أما لحدائق الاندلس ، ومنها انتشرت بالاندلس غروس الشام وأفريقية . »

وفي سنة ١٥٠ هـ بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة الكبير واستمر العمل فيه مدى اعوام ، كما أنشأ في قرطبة وباقى مدن الاندلس مساجد محلية عديدة ، (٦٢)

وهكذا وضعت الأسس التي تطور عليها فن المعمار في الاندلس لكي يثمر لنا بعد ذلك عقودا من الاعمال الفنية المعمارية الخالدة والتي انتظمتها كتب تراث المسلمين الفني والمعماري . (٦٣)

شهدت هذه الفترة أيضا من مرحلة تكوين الحضارة الاندلسية جوانب أخرى حضارية لا يتسع المقام هنا لذكرها والحديث عنها ، وذلك بسبب ضيق المساحة ، ومن هذه الجوانب النظام القضائي والتنظيم الإداري ، الى جانب مسلك المسلمين في المجال الاقتصادي .

نشأة المدرسة التاريخية في أنطلس

الدكتور محمد عبد الحميد عيسى صفر

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية التربية — جامعة عين شمس

أشرت في دراستي عن الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين والتي نشرت ضمن أعمال ندوة «التاريخ الإسلامي والوسيط»^(١) إلى المستوى الراقي الذي تبوأته الحضارة الأندلسية ضمن إطار الحضارة الإسلامية بل والحضارة الإنسانية بعامتها.

ومن اللافت للإنتباه حقا تلك المكانة السامقة لحضارة الأندلس ومجالاتها المتعددة والتي تتسع لتشمل جميع مناحي النشاط البشري. وما هو أكثر من ذلك أنها قد تميزت ضمن أقاليم العالم الإسلامي بالنبوغ والتفوق في مختلف جوانب ذلك النشاط.

ولم يقتصر الأمر على المنافسة من الناحية الكلية فقط وإنما تعدتها في ذلك إلى المنافسة والتفوق حتى في المجالات الفرعية.

ويكفي للدلالة على ذلك تلك الدراسة القيمة التي كتبها الأستاذ الدكتور حسين مؤنس عن علم الجغرافية عند الأندلسيين حيث أوضح الملكات الخلاقة لهذا الشعب معبرا عن ذلك بالإبانة عن ملكة عقلية واحدة عند المسلمين الأندلسيين.

وتهدف دراستي هذه إلى الإبانة عن ملكة علمية أخرى عند المسلمين الأندلسيين ألا وهي ملكة التاريخ التي ضرب الأندلسيون فيها بسهم وافر حين أدركوا أهمية التاريخ فعكفوا على مجاله يسجلون فيه روائع خالدة من المؤلفات العامة أو كتب التراجم والأنساب أو تواريخ الأقاليم والمدن، أو سير الرجال والعظماء حتى أصبحت المدرسة التاريخية في الأندلس عميقة الجذور ثابتة الجذوع شاحخة الغصون والفروع.

(١) ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط : دار المعارف، المجلد الثاني 1983 الصفحات 265 — 298.

وكما حاولت في دراستي السابقة عن الحضارة الأندلسية الاقتصار على مرحلة التكوين فإنني هنا أيضا سأقتصر على النشأة والتأسيس لأهمية عامل التأصيل والكشف عن الأسس والقواعد التي انطلق منها البناء.

ومما حفزني إلى الكتابة في هذا الموضوع قلة إن لم نقل ندرة في العناية بهذا الجانب الحضاري الهام من جوانب حياة المسلمين الثقافية في الأندلس.

ونظرة سريعة على المؤلفات التي اهتمت بعلم التاريخ عند المسلمين تبين لنا ذلك ومن الأدلة على ذلك أن ابن النديم في فهرسته لم يشر إلى أحد من مؤرخي الأندلس ولا إلى أي كتاب من مؤلفاتهم⁽²⁾.

ولا تظهر أسماء المؤرخين الأندلسيين أو أسماء مؤلفاتهم عند السخاوي إلا على استحياء شديد فهو يشير مثلا إلى «الحافظ أبي عمر بن عبد البر» وكتابه الاستيعاب⁽³⁾ وتاريخ الدولة اللمتونية لأبي بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المتوفى سنة 557 هـ (1162م)⁽⁴⁾.

ويهمل ما كتبه الأندلسيون في مجال الطبقات سواء الفقهاء أو الأدباء أو الأطباء أو الشعراء وغيرهم ممن سجل على الأرض الأندلسية.

وتابع المؤرخون المحدثون في هذا أعمال من سبقهم من المؤرخين القدامى والأمثلة على ذلك كثيرة جدا فعند «قواد سركين» الذي خصص الجزء الثاني من المجلد الأول للتدوين التاريخي وجعله في حوالي 300 صفحة لم يكن نصيب الأندلس منها إلا صفحات أشار فيها إلى بعض المصريين الذين تناولوا التاريخ الأندلسي ثم عددا من مؤرخي الأندلس منهم «عبد الملك بن حبيب، وابن القوطية، والرازي، والخنشي»⁽⁵⁾.

(2) انظر فهرست ابن النديم، المقالة الثالثة في أخبار الاخباريين والنسبين وأصحاب الأحداث، ص 131 وما بعدها.

(3) انظر السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، المطبوع ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لفرانز روزينثال، ترجمة الدكتور صالح العلي، ط 8، بيروت 1983 ص 541.

(4) نفس المصدر : ص 549.

(5) قواد سركين : تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الثاني، ترجمة الدكتور محمود فهمي حجازي، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عام 1983، ص 247 — 253.

ورغم أن الأستاذ الدكتور «السيد عبد العزيز سالم» من كبار المتخصصين في التاريخ الأندلسي وله في هذا المجال قدم راسخ وباع مديد إلا أن كتابه «التاريخ والمؤرخون العرب» لم يعط مؤرخي الأندلس ما يستحقونه من رعاية واهتمام وتركزت إشارات على مؤرخي الطبقات من أمثال ابن الفرضي والحميدي، والجغرافيين من أمثال الرازي والبكري⁽⁶⁾.

ولم ترد أية إشارة إلى دور الأندلسيين في تشكيل المدرسة التاريخية العالمية عند الأستاذ الدكتور حسين مؤنس في كتابه القيم عن «التاريخ والمؤرخين» ربما لأنه لم يقصد تأريخا للتاريخ وإنما جعله بحثا في فلسفة التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ⁽⁷⁾.

ونهج نفس المنهج عدد من الباحثين في مجال الحضارة الإسلامية فلم يرد عند الدكتور «أبو زيد شلبي» في تاريخه للحضارة الإسلامية إسم أي مؤرخ أندلسي رغم إشارته إلى الكثيرين من المؤرخين المسلمين⁽⁸⁾.

وحين يتحدث الأستاذ «أحمد علي الملا» في كتابه «أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية» فإنه يبتعد تماما عن دور المؤرخين الأندلسيين وينسى دور الرازي في الكتابة التاريخية الإسبانية وكذلك دور ابن حيان وغيرهما من المؤرخين المسلمين الذين سجلوا أخبار الممالك النصرانية مما دفع بعض المؤرخين الإسبان المحدثين إلى إعادة تصحيح بعض الأفكار التاريخية اعتمادا على ما جاء في المصادر العربية⁽⁹⁾.

ونرى نفس الموقف عند الدكتور «عز الدين فرج» في كتابه «فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية» فهو لا يذكر فضلا لعلماء الأندلس المؤرخين

(6) السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب : مؤسسة شباب الجامعة عام 1981 ، الصفحات 179 وما بعدها.

(7) حسين مؤنس : التاريخ والمؤرخون : دراسة في علم التاريخ دار المعارف بالقاهرة 1985 .

(8) أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ط 6 ، القاهرة 1984 م.

(9) أحمد علي الملا : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية الطبعة الثانية ، دار الفكر ، دمشق

على مجال الكتابة التاريخية الأوربية رغم وجود مثل ذلك التأثير ويمكن أن يكون موضع دراسة مستقلة⁽¹⁰⁾.

ولن أمضي طويلا في سرد الكتب والمؤلفات التي لم تلق كثيرا أهمية إلى المدرسة التاريخية في الأندلس، وانتقل إلى الدراسات التي ركزت على هذا المجال باعتبار أن لأصحابها سابق فضل وهذه الدراسات هي :

أولا — الدراسة القيمة للدكتور محمود علي مكّي والتي قدمها في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمريد باللغة الإسبانية تحت عنوان «مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسي»⁽¹¹⁾، وقدم فيها بحثا أصيلا عن أثر المؤرخين والمحدثين المصريين في الحصول على المادة الأولى لتكوين التاريخ الأندلسي، فأشار إلى أهمية موقع مصر الجغرافي بالنسبة لغرب العالم الإسلامي علاوة على اهتمام المسلمين الشديد بعلم التاريخ مما جعل المدرسة التاريخية المصرية مطمحا للمتعطشين لعلم التاريخ من المغاربة والأندلسيين.

وبين الدكتور مكّي في هذه الدراسة إلى جانب الأسباب التي جعلت من مصر أما للدراسات التاريخية الأندلسية، دور كل من الشخصيات الفكرية المصرية من أمثال التابعين الذين شاركوا في الفتوحات الأندلسية كعلي بن رباح وحش الصنعاني وغيرهما، والفقهاء من أمثال الليث بن سعد وعبد الله بن هبة ومن بعدهم عبد الملك بن مسلمة، ويحيى بن عبد الله بن بكر 131 هـ/745 م، وعبد الله بن وهب 197 هـ/212 م، وعبد الله بن عبد الحكم 214 هـ/729 م والد المؤرخ المصري عبد الرحمان بن عبد الحكم صاحب كتاب «فتوح مصر وأفريقية والأندلس».

وأشار الدكتور محمود مكّي بإفاضة إلى عبد الملك بن حبيب أول المؤرخين الأندلسيين المعروفين وكتابه المعروف باسم «تاريخ عبد الملك بن حبيب».

(10) عز الدين فرج : فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية دار الفكر العربي بيروت — دون تاريخ.

(11) Mahmud A. Makky : Egipto y los orígenes de la Historiografía árabe-Española. Revista del Instituto Egiptio de estudios Islámicos en Madrid. Nº 5 , PP157-247. El año 1957. Madrid.

مصر والمصادر الأولى لتاريخ الأندلس، وسوف نشر فيما يلي إلى هذه المقالة بعنوانها العربي.

وخص الكاتب الأهمية للكاتبين المصريين الليث بن سعد وعبد الله بن وهب باعتبارهما المصدر الأصلي لكتابات عبد الملك بين حبيب إلى أن يشير إلى كتابات عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى عام 257 هـ/870 م، صاحب فتوح مصر وأبو سعيد بن يونس الصديقي المتوفى عام 336 هـ/947 م، والذي يعتبر آخر مؤرخ مصري شارك بشكل فعال في كتابة التاريخ الأندلسي⁽¹²⁾.

ثانياً — الدراسة التي قام بها المستشرق الإسباني الكبير أنجيل غونثالث بالثيا بعنوان *Historia de la literatura Arabigo-Espanôla* وترجمها الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بعنوان «تاريخ الفكر الأندلسي»⁽¹³⁾، ولقد خص الدكتور بالثيا التاريخ بالفصل الخامس ثم قسم الدراسة إلى جزئيات فرعية مثل التاريخ العام وفيه أشار إلى ابن حبيب وأهميته في مدرسة تدوين التاريخ في الأندلس وتأثره بالمدرسة التاريخية المصرية⁽¹⁴⁾ ثم انتقل إلى آل الرازي وعميدهم في كتابة التاريخ أحمد بن محمد موسى الرازي المتوفى 325 هـ/936 م.

وتناول المؤلف في هذا المجال إلى كتاب أخبار مجموعة المجهول المؤلف وإلى كتاب افتتاح الأندلس لمحمد بن القوطية.

كما أشار المؤلف إلى فترات أخرى اهتم بها المؤرخون الأندلسيون مثل عصر ملوك الطوائف وهو عصر العظمة الثقافية للمسلمين في الأندلس رغم تدهور الأوضاع السياسية والعسكرية، كما أنه العصر الذي برز فيه كبار المؤرخين من أمثال ابن حزم وابن حيان وابن بسام وغيرهم كثيرون.

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى دراسة المؤلفات التاريخية التي ظهرت على عصري المرابطين والموحدين ودولة بني نصر بغرناطة وخاصة شيخ المؤرخين بل والمثقفين الأندلسيين عامة «ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب».

وختم المؤلف دراسته بتناول كتب السيرة والتراجم والتي تمثل المدرسة

(12) محمود علي مكي : المصدر المشار إليه ص 174 وما بعدها.

(13) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي — ترجمة الدكتور حسين مؤنس نشر بالقاهرة 1955 م.

(14) Palencia : Historia de la literatura arabigo-Española, 2ª Edicion, Madrid 1975. P. 141

الأندلسية فيها نموذجاً رائعاً ثرياً بالتأليف ويتم بالتواصل من مؤرخ إلى آخر⁽¹⁵⁾.

ثالثاً — الدراسة التي كان يمكن أن تكون مستوعبة وكاملة في هذا المجال فهي دراسة الدكتور شاكر مصطفى بعنوان «التاريخ العربي والمؤرخون دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام». ولقد صدر من هذه الدراسة مجلدان هما الجزء الأول والثاني، ولقد قرأتها في طبعتهما الثانية الصادرة في عام 1980 م. وفيها دراسة رائعة عن تطور علم التاريخ ومناهج المؤرخين ومؤلفاتهم في معظم أنحاء العالم الإسلامي إلا إقليم المغرب والأندلس، حيث أعلن أنه سيخصص المجلد الرابع من هذا المؤلف القيم لبلاد المغرب والأندلس بعنوان «في التاريخ والمؤرخين في الأندلس والمغرب»⁽¹⁶⁾.

ولقد بحث ما أمكنني عن هذا المجلد فلم أوفق في الحصول على أية إشارة تفيد صدور هذا المجلد الرابع متصفحاً الدراسات الحديثة وخاصة في مجال رسائل الماجستير والدكتوراه فلم أجد في مصادرها ومراجعتها إلا هذين المجلدين الصادرين في عام 1980 م والأرجح أن الحالة الصحية لاستاذنا الدكتور شاكر مصطفى — عافاه الله — لم تسمح باستكمال باقي المجلدات.

رابعاً — دراسة إسبانية قديمة عن المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين قام بها بونس بويجس Pons Boigues بعنوان : Ensayo bio- bibliografico sobre los historiadores y geograficos Arabigos- Espanòles, ed- Madrid 1898. ولقد تعهدتها الدراسات الحديثة بما قدمت من معلومات أوفر وأدق حول تطور علم التاريخ في الأندلس دون إهمال لما جاء بها من حقائق وآراء.

خامساً — أما أحدث الدراسات في هذا المجال فقد كتبها الدكتور عبد الواحد دنون بعنوان «نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس»⁽¹⁷⁾، وهي دراسة مبسطة جداً تحاول أن توجز تاريخ التاريخ في الأندلس من الفتح حتى القرن الرابع الهجري

(15) Palencia : op cit, PP.144.

(16) د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ط 2 ، بيروت 1980 و ج 2 ص 461.

(17) عبد الواحد دنون طه : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة، وزارة الثقافة والاعلام بغداد 1988.

ولا يستبعد الدكتور مكّي أن يكون من بين مصادر المؤرخ المصري عثمان بن صالح المتوفى 219 هـ/734 م، بعض الأندلسيين الذين كانوا يمرون بمصر ويروون جزءاً من تاريخ بلادهم⁽²⁸⁾.

البدايات الأولى لتدوين تاريخ الأندلس :

أصبح من البين التمييز بين وجود مناخ فكري على أرض الأندلس يسمح بأن يكون من مكوناته عناصر نشأة مدرسة التدوين الأندلسية وبين البدء في تسجيل تاريخ الأندلس كإقليم من أقاليم العالم الإسلامي الشاسعة الأرجاء ولقد سبق المصريون إلى النهوض بهذه المهمة الجليلة وتضافرت عدة عوامل جعلت مصر هي الإقليم المهيأ لتحمل أعباء هذه المسؤولية.

العوامل التي جعلت من مصر مهداً لبداية التدوين الأندلسي :

أولاً — الموقع الجغرافي المتميز لمصر الذي وهبه الله سبحانه وتعالى لهذا الإقليم فجعله يمتد على أراضي قارتين كبيرتين هما آسيا وأفريقيا، كما جعله ظهيراً ثابتاً للقارة الأوربية فأصبحت مصر بذلك قلب العالم القديم ونقطة العبور الأساسية التي تربط بين مشرق الدنيا في آسيا ومغربها في أفريقيا والعكس.

وكان للنيل فضل عظيم على أرض مصر مما جعلها مهد الحضارة الإنسانية ومكاناً ملائماً للإقامة فأماها الناس من كل قطر ومن ثم سكنها عدد كبير من صحابة رسول الله ﷺ، واستقرت بها جموع كبيرة من علماء التابعين وأبناء الصحابة حتى أصبحت القسطنطينية أحد المراكز الثقافية الأساسية في العالم الإسلامي في ذلك الوقت⁽²⁹⁾.

ثانياً — كان لمصر نوع من الهيمنة السياسية على بلاد المغرب الإسلامي عامة تجلت تلك الهيمنة في دور مصر الكبير في الفتح الإسلامي لهذه البلاد وفي دور ولاية مصر بعد ذلك في السيطرة على مجريات الأحداث في تلك البلاد والتعامل معها من هنا كانت مصر هي مركز العلاقات السياسية والعسكرية التي تربط

(28) مكّي : مصر والمصادر، ص 173.

(29) شاكر مصطفى : المرجع السابق، ج 2 ص 182.

ومن البديهي أن يكون لهؤلاء التابعين فضل سبق في وضع البذور الأولى لفكرة كتابة التاريخ على أرض الأندلس بما روه عن حياة رسول الله ﷺ ومغازيه وسير الخلفاء الراشدين والفتوحات الإسلامية التي شاركوا فيها وأخبار المسلمين في المشرق، فإذا كان علي بن رباح له فضل في نشر أخبار الأندلس في مجالس مصر الأدبية والدينية⁽²²⁾، فلا شك أنه قد تحدث في الأندلس عن الصحابة الذين عرفهم وعاشهم وعن الدين الذي يدين به مما يدفعنا إلى القول بوجود رواية شفوية تاريخية تتردد في المجالس العلمية في الأندلس قبل بداية التدوين التاريخي، وذلك قياساً على باقي العلوم الأخرى الأدبية منها واللغوية، ولعلنا فيما أشير إليه أخالف من سبقني في الكتابة في هذا المجال بتوضيح نقطة غاية في الأهمية ألا وهي الفرق بين تدوين تاريخ الأندلس كأقليم من أقاليم العالم الإسلامي وبين نشأة الفكر التاريخي على أرض الأندلس.

أعتقد أننا يمكننا التسليم بسبق وجود الفكر التاريخي على أرض الأندلس لمسألة تدوين التاريخ الأندلسي، كما يمكننا التسليم بضرورة معرفة الأندلسيين منذ سنواتهم الأولى على أرض الأندلس وعلى امتداد القرن الثاني الهجري كله لأخبار رسول الله ﷺ ومغازيه وأخبار الخلفاء الراشدين وكيفية انتشار الإسلام في بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية حتى وصل إليهم في الأندلس.

كما أننا يمكننا أن نفترض وجود مناخ فكري تروى فيه أحداث فتح الأندلس بل وبعض أخباره قبل الفتح، لأنه وإن أعوزنا النص المكتوب إلا أننا لا نفتقد الأفراد والجماعات التي شاركت في الفتح وروت بطولاتها ومآثرها لأبنائها وأصدقائها، كما لن نفتقد الأسرة الإسبانية التي عايشت العصرين القوطي والإسلامي وفي ذاكرتها وحكاياتها ومآثرها الكثير مما يمكن أن تتناقله الشفاه من جيل إلى آخر خاصة في تلك الفترة الزمنية التي لعبت فيها الرواية الشفوية دوراً مهماً في نقل العلوم.

ومما يؤكد وجود هذه الرواية الشفوية عند الأندلسيين ما يورده كل من ابن الفرضي والحميدي من أن شبيب الأندلسي كان ضمن من روى منهم في الأخبار

(22) محمود علي مكّي : المصدر السابق، الملخص العربي، ص 228.

سعيد بن كثير بن عفير المصري المتوفى 226 هـ/840 م⁽²³⁾، وهو من أوائل المؤرخين الذين ألفوا كتباً مستقلة في تاريخ الأندلس، ولد عام 146 هـ أي بعد فتح الأندلس بحوالي خمسين عاماً فقط، وتلمذ على عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد، وكان من أعلم الناس بالفقه والأنساب والأخبار وأيام العرب والتواريخ، وكان أديباً فصيحاً، مليح النظر، ولقد أشار ابن عبد الحكم إلى كتاب له بعنوان أخبار الأندلس، ونقل عنه بعض المقتبسات⁽²⁴⁾، وكذلك أورد الحميدي اسم إبراهيم بن أبان بن عبد الملك بن عمر بن مروان الأندلسي، ويكنى أبا عثمان، ممن روى عنهم ابن عفير المشار إليه⁽²⁵⁾.

أما أقدم من نسب إلى الأندلس وله رواية في الحديث، وتلمذ على يد التابعين الأوائل الذين شاركوا في الفتح فهو أحمد بن خازم المعافري الأندلسي الذي كان أستاذاً لأبي عبد الرحمن عبد الله بن عقبة بن لهيعة الحضرمي المصري المتوفى 174 هـ/790 م والذي ولي قضاء مصر 155 هـ بأمر الخليفة جعفر المنصور، فكان أول قاض يعينه الخليفة وقد آتى التاريخ عن طريق الحديث، وكان مكثراً من الحديث والأخبار والرواية ولهذا كان مصدر كثير من الأخبار التي سجلها مؤرخو مصر منذ ابن عبد الحكم حتى السيوطي عن أيامها الإسلامية الأولى⁽²⁶⁾.

وكذلك فإن معاوية بن صالح الحضرمي قاضي الجماعة في الأندلس كان أستاذاً لكل من الليث بن سعد وعبد الله بن وهب ومحمد بن عمر الواقدي وغيرهم، ومن المحتمل أنه نقل إليهم إلى جانب ما يرويه من حديث، بعض أخبار الأندلس التاريخية والتي قدم منها إلى مصر مباشرة⁽²⁷⁾.

(23) ابن الغرضي: تاريخ علماء الأندلس، طبعة الدار المصرية للترجمة والنشر عام 1966 ج 1، ص 199، الترجمة رقم 597.

الحميدي: جذوة المقتبس، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ص 222.

(24) فؤاد سزكين: أخبار التراث العربي م 1، ج 2، ص 361.

(25) الحميدي: المصدر المشار إليه، ص 144.

(26) شاکر مصطفى: المرجع المشار إليه، ج 2، ص 156، وانظر ترجمة وافية جداً لأحمد بن خازم عند الحميدي في جذوة المقتبس، ص 112 - 113.

(27) جذوة المقتبس: ص 318، الترجمة 796.

تقريبا ولذلك جاءت مختصرة وتقع في حوالي 64 صفحة من الحجم الصغير، لكنها مع ذلك لها فضل الريادة والتنبيه إلى أهمية الموضوع.

ولقد دارت دراسة الدكتور طه حول المحاولات الأندلسية الأولى لتدوين التاريخ الأندلسي، وعبد الملك بن حبيب ومحمد بن حارث الخشني وابن القوطية وآل الرازي ثم التدوين بعدهم وابن أبي الفياض وأحمد بن عمر العذري.

الفترة الشفوية في تطور المدرسة التاريخية في الأندلس :

تجمعت مجموعة من العوامل الاقتصادية والسياسية والدينية ساهمت في سرعة تحويل الأندلس إلى العروبة والإسلام بأكثر مما كان متوقعا، وتجمع المصادر التاريخية على سرعة هذه العملية بصورة لافتة للنظر⁽¹⁸⁾، بحيث نجد أنه حين حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز إخلاء الأندلس من المسلمين خوفا عليهم أو «خشية تغلب العدو عليهم» كما يقول ابن القوطية⁽¹⁹⁾، أو لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين على ما يقول صاحب الأخبار المجموعة⁽²⁰⁾، رد عليه السمع بن مالك بقوة الإسلام وكثرة مدانينهم، وشرف معاقليهم، وذلك في عام مائة من الهجرة، أي بعد خمس سنوات فقط من انتهاء عملية الفتح وعودة القائدين موسى وطارق إلى المشرق.

وبدأت عملية إكساب أهل الأرض الجديدة اللغة العربية والديانة الإسلامية ومن ثم بدأت الخطوات الأولى للتعليم على أرض الأندلس مع بداية الوجود الإسلامي نفسه على هذه الأرض، وبدأ المعلمون يقومون بواجبهم اعتبارا من العقد الأول الإسلامي في الأندلس وقام بهذه المهمة عدد من التابعين ورجال الدين ممن شاركوا في الفتوحات الإسلامية لهذه البلاد⁽²¹⁾.

(18) انظر تحليلا لهذه الظاهرة في كتابي الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس - مطبعة سعيد رأفت بالقاهرة 1985، ص 173.

(19) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، طبعة ابراهيم الأبياري، القاهرة 1982 ص 38.

(20) مجهول : أخبار مجموعة، طبعة ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري القاهرة 1982، ص 30.

(21) انظر في ذلك كتابي «تاريخ التعليم في الأندلس» طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة عام 1982، الصفحات 73 وما بعدها.

بين مركز الدولة الإسلامية في المدينة المنورة أو دمشق أو بغداد وبين بلاد المغرب والأندلس، وكانت مصر هي منطلق الطرق التجارية سواء البرية منها أو البحرية المنطلقة إلى تلك البلاد الإسلامية وكما يرى الدكتور شاكر مصطفى أن مصر كانت منطلق الثقافة الإسلامية دينا وفقها وعقيدة ولغة وفكرا وأدبا إلى المغرب والأندلس⁽³⁰⁾، أو كما يرى الدكتور محمود مكّي أن المتبع للثقافة الأندلسية منذ الفتح العربي وحتى نهاية عصر الخلافة الأموية يلاحظ أن كل ثقافة شرقية جازت إلى الأندلس إنما مرت عبر مصر، وتناولتها اليد المصرية بالتشكيل والتهديب حتى انتهت إلى الأندلس، ومعنى ذلك أن مصر كانت أشبه بمصفاة كبيرة تمر خلالها ألوان الفكر المشرقية إلى الغرب الإسلامي كله⁽³¹⁾.

ويذكر المؤرخون أن اهتمام رواة التاريخ المصريين بالأندلس إنما يرجع إلى فترات زمنية بعيدة حتى قبل الفتح الإسلامي لهذه البلاد فأول ذكر للأندلس بين المشاركة هو ما جاء عنها مرويا عند بعض العلماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام وملأوا كتب التاريخ والحديث الإسلامية بأخبار مستمدة من مصادر الثقافة اليهودية القديمة مما اصطلاح على تسميته بالإسرائيليات مثل الأحاديث المنسوبة إلى كعب الأحبار ووهب بن منبه، وهي أحاديث احتفظت بها كتب التاريخ المصري، وتناقلها المؤرخون المصريون منذ قديم، وعلى ما يضيف الدكتور مكّي فإنه ليس من المستبعد أن يكون الكثير من هذه الأحاديث موضوعا، على أنه من الثابت أن المحدثين المصريين تأثروا إلى حد بعيد بهذه الروايات، كما نجد في بعض الأخبار الخاصة بالمغرب والأندلس مما يروى عن الصحابي المصري المعروف عبد الله بن عمرو بن العاص الذي توفي في 65 هـ/674 م أي قبل فتح الأندلس بحوالي ربع قرن⁽³²⁾.

عامل آخر غاية في الأهمية أن عددا كبيرا من التابعين الذين شاركوا في الفتح الإسلامي للأندلس قد عادوا إلى الاستقرار في مصر أو أنهم كانوا من أصل مصري

(30) المصدر السابق، ج 2 ص 183.

(31) مكّي: مصر والتاريخ الأندلسي - المصدر المشار إليه - الملخص، ص 326.

(32) المصدر المشار إليه، ص 327، وانظر أيضا التاريخ والمؤرخون لشاكر مصطفى، ج 2،

ويؤكد الدكتور مكّي أن جميع هؤلاء التابعين ممن ثبت دخولهم إلى الأندلس إنما كانوا من أصل مصري، ويكاد أن يكونوا جميعا من تلاميذ الصحابي المصري عبد الله بن عمرو بن العاص، ولا شك أنهم قد تحدثوا ورووا لطلابهم وأصدقائهم وأسروهم أخبار الفتح الإسلامي وما شاهدوه على أرض الأندلس، وهكذا كان هؤلاء وغيرهم ممن عادوا مع موسى بن نصير واستقروا في مصر المصدر الأول لمعرفة أخبار بلاد الأندلس بصورة عامة ومن أهم الشخصيات التي يمكن أن ننسب إليها تلك البدايات الأولى للتاريخ الأندلسي موسى بن نصير قائد جيوش المسلمين في هذا الميدان، وعلي بن رباح وحش بن عبد الله الصنعاني وأبو عبد الرحمان الحلبي، وحبان بن أبي جبلة القرشي وبكر بن سودة الجذامي، ويؤكد الحميدي نقلا عن ابن حبيب أنه قد دخل الأندلس من التابعين — سوى من لا يعرف — نحو عشرين رجلا بهؤلاء وغيرهم أتى موسى بن نصير⁽³³⁾.

تمتع هؤلاء الرجال من التابعين بمكانة طيبة لمكانتهم الدينية وكان نصيبهم من الاحترام عظيما سواء في مصر أو شمال أفريقية أو الأندلس ولهذا فإنه ليس من المستغرب أن يتبع الأندلسيون أخبار بلادهم لدى هؤلاء أو لدى من بقي في مصر من أبنائهم، وكل هذا زاد من مكانة العلماء المصريين في نظر تلاميذهم من أهل الأندلس حتى أصبحت مصر هي المصدر الأول لأخبار الغرب الإسلامي كله.

ومنذ ذلك الوقت نجد أن أخبار الأندلس قد أصبحت مادة متداولة في المجالس الأدبية والدينية في مصر، ويشغل بها المحدثون والفقهاء المصريون الذين تردد عليهم الأندلسيون منذ عصر مبكر، ولعل هذا هو السبب في أننا نرى أن أول من اهتم بقصة الفتح كانوا هم الفقهاء ومؤسسي المدارس الفقهية بمصر ممن كان لهم أكبر الفضل في وضع أسس التشريع بالأندلس⁽³⁴⁾.

وبعد هؤلاء التابعين تأتي مجموعة أخرى من طلابهم واصلت اهتمامها بتاريخ

(33) الحميدي : جذوة المقتبس، ص 6.

(34) مكّي : المرجع المشار إليه، ص 328، أنظر أيضا شاكر مصطفى في كتابه المشار إليه، ص 182.

الغرب الإسلامي عامة والأندلسي خاصة وأشهر أعلام هذه المجموعة موسى بن علي بن رباح اللتوقي 163 هـ/779 م، وهو ابن علي بن رباح أحد التابعين الذين شاركوا في فتح الأندلس وروى موسى عن والده الكثير من الأخبار، كما كان يروي أيضا بعض الأخبار قولا عن زملاء والده عن شارك في فتح الأندلس.

وعن موسى بن علي بن رباح نقل عدد من تلاميذه أخبار الأندلس ومن أشهر هؤلاء عبد الله بن ليحة اللتوقي 174 هـ/790 م، والذي تولى قضاء مصر على أيام أبي جعفر المنصور، الخليفة العباسي والذي سبق أن أشرنا إلى وجود إسم أحمد بن حازم المعافري الأندلسي من بين من نقل عنهم عبد الله بن ليحة.

أما أشهر المصريين تأثيرا في المدرسة الأندلسية فهو الليث ابن سعد اللتوقي 175 هـ/791 م، عاش الليث في مصر وتمتع بشهرة كبيرة واحترام عميق حتى رقب أن يكون واليا على مصر من قبل المنصور العباسي، كما مكته ثروته وكثرة ماله من أن يكون على اتصال واسع بالعلماء والفقهاء وكان هو عللا جليلا مطلقا على أخبار مصر والغرب الإسلامي، بل وصل به علمه ومكانته إلى أن يكون صاحب مذهب وتلمذ على يديه عدد كبير من المصريين والأندلسيين، ولطفا لم يكن غريبا أن تحوي المؤلفات عن تاريخ مصر والأندلس تلك الكمية الواقعة من الأخبار اللروية عن الليث وألف كتابا في التاريخ أثار إليه ابن التميمي⁽³⁵⁾ سجل فيه لأول مرة المعلومات التاريخية التي جمعت حتى ذلك الوقت لدى أهل طليقة من مصر وأفريقية والأندلس ورجالها⁽³⁶⁾.

ومن أبرز تلاميذ الليث بن سعد محمد بن سعد بن عبد الله بن وهب بن مسلمة اللتوقي 197 هـ/812 م، وهو تلميذ مالك بن أنس وأحد أعمدة المذهب المالكي وقبوعه في مصر، اتصل بالتاريخ عن طريق الحديث، وقد روى أشياء كثيرة عن أستاذه الليث بن سعد وغيره منها ما هو متعلق بتاريخ مصر، ومنها ما هو متعلق بالغرب والأندلس، وكان تأثيره واضحا عند ابن حبيب الأندلسي⁽³⁷⁾.

(35) ابن التميمي: المعجم، طبع دار المعرفة بيروت، ص 281.

(36) شاعر مصطفى: المرجع السابق، ج 2، ص 157.

(37) انظر ترجمة وافية لعبد الله بن وهب عند ابن قرقون المالكي في كتابه الدياج الذهب، طبعه دار الكتب العلمية بيروت، ص 132.

وعبد الله بن عبد الحكم المتوفى 214 هـ/839 م، والذي انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي في مصر، كما أنه كان ممن تحدث في الأخبار التاريخية المتعلقة بمصر وغرب العالم الإسلامي، وكانت تلك الروايات هي الأساس الذي استقى منه المؤرخ المصري المشهور ابن عبد الحكم كتاباته التاريخية وخاصة كتابه فتوح مصر وأفريقيا والأندلس، ويرى الدكتور مكّي أن عددا كبيرا من الأندلسيين قد تتلمذ على عبد الله بن عبد الحكم، وأن كتب الطبقات الأندلسية قد احتفظت لنا بالكثير من أسماء هؤلاء الطلبة وأن من بينهم عبد الملك بن حبيب⁽³⁸⁾. ويشي عليه ابن فرحون ويصفه بأنه كان رجلا صالحا ثقة متحققا بمذهب مالك فقيها صدوقا عاقلا وإليه أفضت الرئاسة بمصر بعد أشهب⁽³⁹⁾.

عبد الملك بن مسلمة، وكان أكثر أصحاب الليث ارتباطا بمروياته من الحديث والأخبار على السواء، ورد اسمه كثيرا عند ابن الحكم وإن كان المؤرخ المصري سعيد بن يونس قد نبه إلى ضعف ما يرويه من أحاديث⁽⁴⁰⁾.

أما يحيى بن عبد الله بن بكير المتوفى 231 هـ/445 م، فقد تمتع بشهرة عالية واحترام كبير وقد درس على الليث بن سعد وعلى مالك بن أنس وعبد الله بن لهيعة، ولذلك كان يحيى بن بكير ممن تردد اسمهم في مرويات ابن الحكم لكن شهرته الأساسية إنما جاءت كمحدث حيث اعتبر أحد أعمدة المذهب المالكي، وإن كان قد روى عددا من الأخبار المتعلقة بالأندلس وصلت إلينا في كتاب ابن عبد الحكم⁽⁴¹⁾.

أما عثمان بن صالح أبو يحيى، المتوفى 219 هـ/834 م، فقد درس على يد مالك بن أنس والليث بن سعد وابن لهيعة وعبد الله بن وهب، ولعثمان بن صالح أهمية أساسية في الروايات التاريخية المتعلقة بالأندلس والواردة عند ابن عبد الحكم،

(38) مكّي المقالة المشار إليها، النص الإسباني، ص 181.

(39) ابن فرحون : المصدر المشار إليه، ص 134.

(40) شاطر مصطفى : التاريخ العربي...، ج 2، ص 159.

(41) عن يحيى بن بكير : انظر ابن فرحون في الديباج، ص 350، وعمود علي مكّي النص الإسباني، ص 162 وما بعدها.

ويرى الدكتور مكى أنه مع عثمان بن صالح فقد خطت كتابة التاريخ الأندلسي خطوات نحو النضوج فقد نحت جانبا الأساطير والحكايات الخرافية، ومن ثم كان هناك مكان أكثر اتساعا للروايات التاريخية الصحيحة إلى حد ما، كما أنه يورد رأي بعض المؤرخين الأوربيين بأن روايات عثمان بن صالح إنما هي تنقية كاملة للروايات المصرية التقليدية، ويختتم د. مكى حديثه عن عثمان بن صالح بأن هذا المؤرخ قد ابتعد بقدر الإمكان عن الأساطير والخرافات وأن رواياته مثلا عن فتح الأندلس هي أول رواية عربية دقيقة إلى درجة ما⁽⁴²⁾.

ونصل إلى أبي عثمان سعيد بن عفير المتوفي 226 هـ/841م، وقد درس أولا على ابن لهيعة والليث وابن وهب في مصر ثم درس على يد مالك بن أنس في المدينة ثم أتم دراسته في الأدب واللغة والشعر في بغداد فلما عاد إلى مصر كان من أبرز وجوهها الفكرية وكان من أعلم الناس بالفقه والأنساب والأخبار والتواريخ.

والأهمية الكبرى لسعيد بن عفير أنه كان أول تلاميذ الليث بن سعد في كتابة مؤلف تاريخي، حيث تذكر له المراجع الأندلسية كتاب بعنوان «تاريخ الأندلس»⁽⁴³⁾، وعلى هذا الكتاب اعتمد كثير من مؤلفي تاريخ مصر وغرب العالم الإسلامي، كما يروي الحميدي أنه استقى أخباره من أحد الأندلسيين اسمه شبيب الأندلسي⁽⁴⁴⁾.

ويورد ابن الفرضي اسم سمك مولى موسى بن نصير كأحد مصادر سعيد ابن عفير في أخبار الأندلس⁽⁴⁵⁾.

ويبين الدكتور محمود علي مكى الطريق الذي وصلت منه معلومات سمك المشار إليها إلى سعيد بن عفير وذلك بتنبيهه إلى ترجمة لابنه عمر بن سمك ضمن

(42) مكى : مصر والمصادر الأولى للتاريخ، النص الإسباني، ص 184.

(43) ابن الفرضي : انظر علماء الأندلس، الترجمة ص 587.

(44) الحميدي : جذوة المقتبس، ص 222، وابن الفرضي، الترجمة رقم 597.

(45) ابن الفرضي : علماء الأندلس، الترجمة 587.

ما ورد في كتاب طبقات علماء أفريقية لأبي العرب تميم⁽⁴⁶⁾، وأن عمر هذا كان تلميذاً لمالك بن أنس في نفس الوقت الذي كان يدرس فيه أيضاً سعيد بن عفير في مجلس مالك بن أنس ومن ثم أصبح من المؤكد قيام عمر بن سمك بنقل أخبار والده إلى سعيد بن عفير⁽⁴⁷⁾.

وأخيراً يشير الدكتور مكّي إلى أحد مصادر سعيد بن عفير باسم زمعة ابن غرابي ولم أتمكن من الإطلاع على ترجمة هذا الشخص في المصادر الأندلسية ويرى الدكتور مكّي أنه ربما كان أفريقياً⁽⁴⁸⁾.

ونصل إلى المؤرخ الذي نال أكبر شهرة في هذا المجال وحظي باحترام كبير من المؤرخين وأصحاب الطبقات الأندلسيين وهو عبد الرحمان بن عبد الله بن الحكم المتوفى 257 هـ/870 م، صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس وهو من أقدم النصوص التي وصلتنا عن الفتح الإسلامي للأندلس بعد كتاب تاريخ ابن حبيب الأندلسي.

ولد بمدينة الفسطاط عام 187 هـ/803 م لأسرة عرفت بالعلم والبراء وكان والده عبد الله بن الحكم — سبقت الإشارة إليه — أحد أعمدة المذهب المالكي في مصر وإن تعرضت الأسرة بعد ذلك لمشاكل سياسية.

كتب ابن عبد الحكم كتابه عن فتوح مصر معتمداً في الدرجة الأولى على تلاميذ الليث بن سعد ومنهم والده عبد الله وعثمان بن صالح. ولقد اعتمد على ابن عبد الحكم معظم من جاء بعده من مؤرخي مصر والمغرب والأندلس وفي هذا دليل على شدة الحرص قديماً وحديثاً على هذا المؤلف الذي وضع في الواقع أساس المدرسة المصرية في التاريخ كما وضع لها عدداً من التقاليد من بينها مثلاً: قبول الأخبار الخرافية عن تاريخ مصر القديم وغير ذلك⁽⁴⁹⁾.

ويرى الدكتور مكّي أن كتاب ابن عبد الحكم قد انتشر انتشاراً واسعاً في

(46) أبو العرب تميم طبقات علماء أفريقية، طبعة دار الكتاب اللبناني، ص 97.

(47) مكّي: مصر والمصادر الأولى، ص 188.

(48) مكّي: نفس المصدر، ص 187.

(49) شاکر مصطفى: التاريخ العربي، ج 2، ص 165.

الأندلس، وأن هناك بعض الأندلسيين ممن تلقوا العلم مباشرة من ابن عبد الحكم مثل أحمد بن عمر بن منصور من أهل البيرة ويعرف بابن عمريل المتوفى 312 هـ/924 م، كما يبدو أنه هو أول من أدخل كتاب ابن عبد الحكم إلى الأندلس⁽⁵⁰⁾، وإن لم أجد في ترجمته الواردة عند ابن الفرضي والحميدي ما يؤكد روايته لبعض الأخبار التاريخية بينما ينص الحميدي على كونه «صاحب صلاة البيرة وخطيبها، فقيه، محدث، عالم صالح يفهم الحديث، ويعرف الرجال، ويحفظ وهو من موالى بني أمية». ثم يورد الحميدي ضمن سلسلة من الأسناد ما يرويه أحمد بن عمرو عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب رأي الإمام مالك في رفع اليدين عند الركوع. وأن فقيهما هذا قد صلى جوار ابن عبد الحكم وراه يرفع يديه عند كل خفض ورفع⁽⁵¹⁾.

أما عبد الله بن عبد الرحمان بن عثمان الصدي، المعروف بالطليطلي فإن الضبي يشير إلى روايته كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم نقلا عن بعض طلاب ابن عبد الحكم⁽⁵²⁾. كما استفاد من هذا الكتاب كل من ابن الفرضي والحميدي، وحتى ابن خير في فهرسته⁽⁵³⁾.

ونصل إلى آخر الكبار ممن اهتموا بتاريخ الأندلس من المصريين ألا وهو أبو سعيد بن يونس الصدي المتوفى 336 هـ/937 م، والذي يعد آخر من شارك في الاهتمام بالتاريخ الأندلسي مشاركة فعالة، ولم يكن لمن جاء من بعده دور يذكر في هذا المجال، وإنما تحمل مسئولية تدوين تاريخ الأندلس، أندلسيون كبار أمثال الرازي وعريب بن سعد والخشني وابن القوطية، وهم خطوة أخرى كبيرة في مجال التدوين التاريخي الأندلسي.

التاريخ على أرض الأندلس :

- إن الحديث عن دور مصر في تدوين التاريخ الأندلسي، وتولي أهل مصر عبء
- (50) مكى : مصر والمصادر الأولى...، ص 201، وانظر ترجمته أيضا عند ابن الفرضي الترجمة رقم 76، والحميدي الترجمة رقم 237.
- (51) انظر الحميدي : الترجمة رقم 237، ص 130، وهي أوفى كثيرا مما أورده ابن الفرضي.
- (52) الضبي : بغية الملتبس، طبعة دار الكتاب العربي عام 1967، الترجمة 929.
- (53) انظر ما يؤكد هذا الكلام في مقالة الدكتور مكى المشار إليها ص 201.

تدوين تاريخ الأندلس لا يعني أنه لم يكن هناك مسارا آخر موازيا يجري على أرض الأندلس نفسها ولقد سبقت الإشارة إلى ضرورة نشأة الفكر التاريخي والرواية التاريخية على أرض الأندلس ذاتها وتطور تلك النشأة تطورا طبيعيا حتى انتهى إلى ظهور المؤرخين الكبار من آل الرازي والحشني وابن القوطية وغيرهم من أعلام المدرسة التاريخية الأندلسية التي ازدهرت تماما في القرن الخامس الهجري ويمكن أن نتبع هذا التطور لمدرسة التدوين التاريخي على أرض الأندلس في المراحل التالية :

أولا — نشاط التابعين والعلماء من رجال الفتح الإسلامي، ولقد بينت ضرورة أنهم لابد تناولوا سيرة رسول الله ﷺ، وأخبار الخلفاء، وأحكام الإسلام والقضايا التي ارتبطت بالأحداث التاريخية كالغزوات والفتوح وآراء صحابة رسول الله ﷺ في الفقه والغنime والجزية والخراج... إلخ

ثانيا — يمكن لنا أن نفترض دون الخوف من الوقوع في الخطأ وجود الرواية التاريخية ضمن نشأة الحياة الفكرية عامة على أرض الأندلس، ولا شك أن العلماء الأوائل على عصر الولاة وعلى عصر كل من الأمراء عبد الرحمان الداخل وهشام بن عبد الرحمان والحكم بن هشام أي خلال القرن الأول للوجود الإسلامي على أرض الأندلس وهو القرن الثاني الهجري.

ومن هؤلاء العلماء عدد كبير رحل إلى المشرق حاجا ومتعلما، ومنهم من نقل إلى العلماء المشاركة سواء في مصر أو غيرها كالشام والحجاز بعض ما كان يدور على أرض الأندلس من روايات تتعلق بالفتح وأخبار الرجال وأحوال البلاد إلى غير ذلك من القضايا.

ومن أبرز هؤلاء العلماء الذين رحلوا في تلك الفترة نشير إلى معاوية بن صالح الحضرمي قاضي الأندلس، ولقد دخل الأندلس في عام 125 هـ/743 م وعاش بها وارتفعت مكانته على عهد عبد الرحمان الداخل الذي أرسله في مهمة إلى بلاد الشام لإحضار بعض أهله، وحينما عاد إلى الأندلس ولاه قضاء الجماعة بالأندلس ولقد سمع منه الليث بن سعد، وعبد الله بن وهب ومحمد بن عمرو الواقدي وجماعة من أهل المدينة ومصر والأندلس وغيرهم.

وسماع الليث بن سعد وعبد الله بن وهب من معاوية بن صالح يعد نقطة هامة جدية بالملاحظة على اعتبار أن الليث بن سعد يعد واحدا من أهم مصادر تدوين التاريخ الأندلسي على ما تبيننا في الصفحات السابقة ويعيدنا هذا إلى تأكيد وجود مصادر أندلسية للرواية المصرية المتعلقة بتاريخ الأندلس⁽⁵⁴⁾.

ونجد من أساتذة عبد الله بن وهب الأندلسيين الشمر بن نمر مولى بني أمية ويكنى أبا عبد الله والذي عاد إلى الأندلس على عهد الأمير هشام فضمه إلى تأديب ولده وأنزله الدار المعروفة بشبلار بدار ابن الشمر⁽⁵⁵⁾ وطلب بن كامل اللخمي، ويكنى أبا خالد وهو أندلسي سكن الأسكندرية وروى عنه عبد الله بن وهب على ما يقول الحميدي⁽⁵⁶⁾.

ومن أساتذة بن لهيعة نجد من الأندلسيين أحمد بن جاسم المعافري الأندلسي الذي سبقت الإشارة إليه⁽⁵⁷⁾، كما سبق التنويه بمن روى عنهم سعد بن غفير في كتابه أخبار الأندلس مثل سمك مولى موسى بن نصير وابنه عمر الذي كان زميلا لسعد في حلقة مالك بن أنس وهو الذي نقل إليه أخبار والده سمك ومولاه موسى بن نصير⁽⁵⁸⁾. وشبيب الأندلسي، وإبراهيم بن إبان بن عبد الملك.

ولا يقتصر الأمر على هذه الأسماء القليلة التي أشير إليها كمصادر للمؤرخين المصريين والمشاركة ممن اهتموا بتاريخ الأندلس لأننا لا نستطيع أن نحصى عدد هؤلاء العلماء سواء من رحل منهم أو من لم يرحل والذين نفترض أنهم كانوا يتداولون فيما بينهم بعض الأخبار المتعلقة بالأحداث على أرض الأندلس بل كان بعضهم يشارك فيها ومن ذلك ما يؤكد الخشني في كتابه قضاة قرطبة من وجود للروايات التاريخية على ألسنة الناس واعتماد الفقهاء والمحدثين والرواة على ما يتناقلوه

(54) الحميدي : الجذوة، الترجمة 796، ص 318، وترجمات القاضي معاوية كثيرة جدا.

(55) ابن الفرضي : علماء الأندلس الترجمة 595، ج 1، ص 198، والحميدي : الجذوة 505، ص 221.

(56) الحميدي : الجذوة، الترجمة رقم 521، ص 231.

(57) نفس المصدر، الترجمة 204، ص 112، وانظر أيضا ص 9 من هذا البحث.

(58) انظر مقالة الدكتور مكّي، ص 185 و186، وكذلك كتاب ابن الفرضي، ج 1 ص 195، وطبقات علماء أفريقية لأبي العرب نعيم ص 97.

كثيرا. ومن ذلك ما ينقله عن الفقيه الأندلسي محمد بن وضاح المتوفى 286 هـ/899 م، فيقول: قال محمد: وما يحكيه الناس ويدور على ألسنتهم من أخبار محمد بن بشير أنه...⁽⁵⁹⁾، كما أنه يروي بعض أخبار الغزوات وما كان يجري فيها مثل حديثه عن وجود بعض العلماء ضمن الغزوة التي شنت على أربونة، وما كان يرسل إليهم من صلوات أو هدايا، والخلاف الذي كان يمكن أن ينشأ بينهم، إلى غير ذلك من الأخبار الدقيقة التي كان الناس يتداولونها ومن ثم كانت مصدرا هاما بعد ذلك للمؤرخين⁽⁶⁰⁾.

ومن الأسماء البارزة في ذلك المجال نشير أيضا إلى القاضي مهدي ابن مسلم مولى عقبة بن الحجاج السلولي والي الأندلس خلال المدة من 116 هـ/734 م إلى 121 هـ/739 م، والقاضي يحيى بن زيد التجيبي، والقاضي مصعب بن عمران ومحمد بن بشير المعافري وكلهم من أبناء القرن الثاني الهجري أول قرن للإسلام على أرض الأندلس⁽⁶¹⁾.

ومن العلماء نشير إلى صمصعة بن سلام الأندلسي المتوفى 192 هـ أو قبل ذلك حسب قول الحميدي وهو فقيه من أصحاب الأوزاعي، وهو أول من أدخل الأندلس مذهب الأوزاعي⁽⁶²⁾.

ومنهم زياد بن عبد الرحمان اللخمي، المعروف بسبطون، ويكنى أبا عبد الله وكان فقيه الأندلس على مذهب مالك، بل ينسب إليه المقري أنه أول من أدخل مذهب مالك إلى الأندلس وأنه رفض القضاء على عهد الأمير هشام، وتوفي زياد 204 هـ/819 م، وينافسه في حمل مذهب مالك إلى الأندلس وكذلك في المكانة العلمية الغازي بن قيس المتوفى 199 هـ، الذي كان أستاذا لعبد الملك بن حبيب أشهر أوائل مؤرخي الأندلس⁽⁶³⁾. ويروي المقري أنه رحل في ذلك العصر جماعة

(59) الخشنى: فضاء قرطبة، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة عام 1966، ص 32.

(60) نفس المصدر، ص 39 وما بعدها.

(61) نفس المصدر، الصفحات 15 وما بعدها.

(62) الحميدي: الجذوة، ص 227، الترجمة رقم 510.

(63) نفس المصدر، ص 35، الترجمة 748، وانظر كتابي: التعليم في الأندلس، ص 82.

من أمثال شبطون كفرغوس بن العباس، وعيسى ابن دينار وسعيد بن هند وغيرهم ممن رحل إلى الحج أيام هشام بن عبد الرحمان والد الحكم، فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس، فانتشر يومئذ رأيه وعلمه بالأندلس⁽⁶⁴⁾. كما يورد القاضي عياض أسماء ثمانية من علماء الأندلس تعاصروا جميعا في تلقي العلم على يد مالك بن أنس⁽⁶⁵⁾.

ولقد لعبت أحداث العصر السياسية دورها في إذكاء الحركة الفكرية على أرض الأندلس، فسقطت الدولة الأموية في المشرق وقامت الخلافة العباسية كما أقام عبد الرحمان الداخل دولة الأمويين في الأندلس، وإليه هاجر كثيرون من أنصار الأمويين في المشرق مما أذكى الحياة الفكرية ومن ثم بالضرورة الأخبار التاريخية وتمخض عن ذلك بدء وجود المدونات التاريخية المكتوبة على أرض الأندلس⁽⁶⁶⁾.

ثالثا - عبد الملك بن حبيب :

تمخض ذلك الجو العلمي عن عبد الملك بن حبيب أول مؤرخ أندلسي قام بتأليف كتاب في التاريخ عرف بعد ذلك باسم تاريخ ابن حبيب ووصلت إلينا نسخة وحيدة من مخطوطة هذا الكتاب.

هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جناهمة بن عباس بن مرداس السلمي، يكنى أبا مروان، ونقل بن حظ الحاكم المستنصر بالله أنه عبد الملك بن حبيب بن ربيع بن سليمان السلمي من أنفسهم العصار كان يعصر الأدهان ويستخرجها، أصله من طليطلة، وانتقل جده سليمان إلى قرطبة وانتقل أبوه أبو حبيب وإخوته في فتنة الربض إلى البيرة⁽⁶⁷⁾.

ولد عبد الملك في عام 174 هـ/790 م، وتلقى تعليمه على كبار أساتذة عصره منهم صعصعة بن سلام والغازي بن قيس وزيايد بن عبد الرحمان.

(64) المقرئ : نفح الطيب، ج 3، ص 256.

(65) القاضي عياض : ترتيب المدارك، طبعة وزارة الأوقاف بالمغرب، ج 1، ص 8.

(66) راجع في تطور الحياة الفكرية على عهد عبد الرحمان الداخل كتاب التعليم في الأندلس، ص

(67) ابن فرحون : الديباج ص 154.

رحل إلى المشرق في عام 208 هـ/823 م، حيث استمع إلى كبار المعلمين والعلماء والشيوخ في مصر والحجاز منهم ابن الماجشون ومطرفا وإبراهيم ابن المنذر الحزامي وعبد الله بن عبد الحكم وأصبغ بن فرج وأسد بن موسى وجماعة سواهم، وانصرف إلى الأندلس سنة ستة عشر — بعد المائتين — وقد جمع علما عظيماء فنزل بلده البيرة وقد انتشر سموه في العلم والرواية فنقله الأمير عبد الرحمان بن الحكم إلى قرطبة وجعله في طبقة المفتين فيها فأقام مع يحيى بن يحيى الليثي زعيمها في المشاورة والمناظرة، وكان الذي بينهما شين جدا، ومات يحيى، فانفرد عبد الملك بعده بالرياسة⁽⁶⁸⁾.

كان عبد الملك بن حبيب نحويا عروضا شاعرا، حافظا للأخبار والأنساب والأشعار، طويل اللسان، متصرفا في فنون العلوم على ما يرى ابن الفرضي⁽⁶⁹⁾ وهو فقيه مشهور متصرف في فنون الآداب، وسائر المعاني، كثير الحديث والمشايخ على ما يرى الحميدي⁽⁷⁰⁾، درس الفقه على مذهب مالك وتبحر في هذا المجال حتى عرف بعالم الأندلس وألف الواضحة التي تعد أحد الشروح الرئيسية لموطأ مالك بن أنس⁽⁷¹⁾.

ألف ابن حبيب عددا لا يحصى من الكتب، وأشهر مؤلفاته الواضحة التي شهد العتبي حين ذكرها فقال «ما أعلم أحدا ألف على مذهب أهل المدينة تأليفه ولا لطالب علم أنفع من كتبه ولا أحسن من اختياره»⁽⁷²⁾ ويورد ابن فرحون قائمة طويلة بمؤلفاته في الفقه والتاريخ والأدب يحتملها بقوله كان الفقهاء يحسدون عبد الملك لتقدمه عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها ولا يسرعون فيها⁽⁷³⁾.

وتجمع المصادر على أن وفاة عبد الملك بن حبيب كانت في عام 238 هـ/852 م بعد أن ملأ الأندلس علما وفقها وأدبا.

(68) نفس المصدر : ص 154.

(69) ابن الفرضي : علماء الأندلس، ج 1، ص 269، الترجمة 816.

(70) الحميدي : الجذوة، ص 263، الترجمة رقم 628.

(71) بالنشأ : تاريخ الفكر الأندلسي، ص 141 «النص الأصلي الإسباني».

(72) ابن فرحون : الدياج، ص 155.

(73) نفس المصدر : ص 157.

ولقد فقدت جميع مؤلفات ابن حبيب إلا ما ورد منها في نقول المتأخرين ولم يصل إلينا ككتاب كامل إلا مؤلفه في التاريخ والذي حفظت منه نسخة وحيدة في مكتبة «البودليانا» بأكسفورد رقم 127».

لا أستطيع أن أؤكد الآن إذا كان الكتاب قد نشر بنصه الكامل حتى الآن أم لا، لأنني لم أطلع على أية نسخة مطبوعة من الكتاب سوى ما نشره الدكتور محمود علي مكى في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديره في المجلد الخامس عام 1957 م كملحق لمقالته القيمة عن مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسي والتي أشرنا إليها كثيرا في هذه الدراسة.

ينقل لنا الدكتور مكى أن أول من نبه العلماء إلى كتاب ابن حبيب كان العلامة الهولندي دوزي المستشرق المعروف وإن صب عليها نقدا لاذعا لأنها ربما خيبت أمله فيما كان يرجوه من العثور على مصدر أصيل عن أخبار الأندلس الأولى لكنه وجد الكتاب حافلا بالقصص الأسطوري والحكايات الخيالية والتي ليست من التاريخ في شيء، ولقد رد الدكتور مكى على ذلك منصفاً ابن حبيب وكتابه الذي يعد الأول في هذا المجال بقلم مؤلف أندلسي⁽⁷⁴⁾. ويبدو أن المستشرق الإسباني أنخيل غونثالث بالنثيا قد درس الكتاب وأشار إلى الموضوعات الرئيسية التي يتناولها وهي أولوية خلق الدنيا وما خلق الله سبحانه وتعالى منذ خلق السموات والبحار والجبال والجنة والنار، وخلق آدم وحواء وما حدث بينهما وبين الشيطان، وتاريخ الأنبياء جميعاً حتى يصل إلى نبي الإسلام محمد ﷺ والكتب المقدسة والخلفاء الراشدين حتى الفتح الإسلامي للأندلس وما وجده المسلمون على أرضها من الذهب والفضة والزمرد والماس والأحجار الكريمة ثم قص سيرة حكامها من الأمراء والملوك ومن غزاها من الفاتحين، والأحاديث التي قيلت في بعض أقاليم الأندلس، الزمن الذي مضى منذ خلق الكون وما بقي حتى تقوم الساعة... إلخ.

كما يرى أن هذه النسخة من الكتاب ليست هي التي وضعها ابن حبيب بنفسه وإنما يعزوها إلى أحد طلابه المسمى بابن أبي الرقاع حيث تنتهي سلسلة الأمراء الواردة بها بالأمير عبد الله بن محمد المتوفى 300 هـ/912 م، والذي تولى الحكم

(74) مكى : مصر والمصادر الأولى، ص 190 وما بعدها.

عام 275 هـ/888 م، أي بعد وفاة ابن حبيب بحوالي سبع وثلاثين عاما⁽⁷⁵⁾. وفي هذه النقطة بالذات فإن الدكتور مكّي يرى أن لا يعزى هذا العمل في طبعته الحالية إلى ابن أبي الرقاع فحسب وإنما إلى يوسف ابن يحيى المغمي المتوفى 288 هـ/900 م، والذي يشير إليه الكتاب في أكثر من موضع، كما تذكره كتب التراجم على أنه أكثر طلاب ابن حبيب نشاطا وإيجابية، وأنه الذي نشر أعمال ابن حبيب ليس فقط في الأندلس وإنما أيضا في بلاد المغرب، كما أنه من المحتمل أن يكون حفيدا لابن حبيب⁽⁷⁶⁾.

ولقد بينت دراسة الدكتور مكّي والتي اعتمد عليها كل من كتب عن كتاب ابن حبيب بعد ذلك أن ما وصل إلينا من كتاب ابن حبيب لا يمكن أن يكون النسخة الأصلية وذلك لغياب فقرات كاملة من النسخة الموجودة ومع ذلك أشار إليها المؤرخون الأندلسيون مثل ابن القوطية والأفارقة كالمالكي في مؤلفاتهم على أنهم نقلوها من كتاب ابن حبيب ومن ثم نستنتج أن ما وصل إلينا ليس إلا ملخصا للكتاب الأصلي.

ويؤكد الدكتور مكّي ردا على آراء «دوزي» أن المخطوط الذي بين أيدينا ليس إلا مذكرات كتبها بعض طلاب ابن حبيب وليس الكتاب كاملا إنما هو مختصر شديد الاختصار، ومن ثم فإن الآراء والأحكام التي صدرت على كتاب المؤلف الأيبيري ابن حبيب من قبل «دوزي» وغيره من الباحثين إنما هي أحكام متعجلة حكمتها فكرة مسبقة للتقليل من شأن كتاب تاريخ ابن حبيب، ولكي نتحدث عن الكتاب الأصلي — وليس عن الملخص الذي بين أيدينا — تنقصنا الكثير من المعلومات التي اختفت من هذا الملخص وليس ذلك مسئولية ابن حبيب ومع ذلك، ومع تسليمنا بأن ما بين أيدينا ليس إلا ملخصا فإن هذا الملخص لا يخلو من قيمة تاريخية حقة، ويكفي أنه أول مؤلف تاريخي وضعه أندلسي على أرض الأندلس⁽⁷⁷⁾.

(75) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، ص 143.

(76) مكّي : مصر والمصادر، ص 193.

(77) مكّي : مصر والمصادر الأولى، ص 194 — 197.

ويبدو أن كتاب ابن حبيب في نسخته الأصلية قد فقد منذ وقت طويل لأن ابن عذاري المراكشي 695 هـ/1295 م، عند تأليفه لكتابه القيم «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» يقول أنه نقل في كتابه هذا والله ولي التوفيق من تاريخ الطبري والبكري والرقيق، والقضاعى، ومن كتاب الذيل لابن شرف، ومن كتاب ابن أبي الصلت، ومن مجموع المقترق، ومن كتاب بهجة النفس وروضة الأنس، ومن كتاب المقياس والمقتبس والقبس، ومن مختصري عريب وابن حبيب (78).

ويستمد الكاتب قيمته التاريخية من قدمه وقدم صاحبه الذي ينتمي إلى القرن الأول من وجود الإسلام على أرض الأندلس والثلث الأول من القرن الثاني للمسلمين في الأندلس، لكن محتوى الكتاب قد تعرض لنقد شديد من المؤرخين المحدثين لكثرة ما في الكتاب من أساطير وخرافات حتى بدت الأخبار التاريخية فيه وكأنها جزء من خيال قصص ألف ليلة وليلة فيذكر لنا على سبيل المثال ما رآه طارق في نومه من الرؤى، ويطلق في وصف حصار المسلمين لمواقع يعمرها الجن ويقومون بالدفاع عنها، ويطنب في الحديث عن الكنوز التي كانت في قصر طليطلة وذكر مائدة سليمان وأساطير أخرى كثيرة يوردها على أنها قصص تاريخية حقيقية (79).

ويقول المستشرق الإسباني «بالنثيا» أنه على الرغم من قدم الكتاب تاريخياً إلا أن قيمته التاريخية قليلة جداً وتبدو روايته عن الفتح الإسلامي للأندلس وكأنها حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، رؤى طارق بن زياد، الحملات على قلاع تحرسها الجن والشياطين المحبوسة في قماقم من النحاس بواسطة سيدنا سليمان عليه السلام، الغنائم الهائلة التي كانت بقصر طليطلة بما في ذلك مائدة سليمان وغير ذلك من العجائب.

ويرجع المستشرق الإسباني ذلك — معتمداً على رأي دوزي — إلى المصادر التي استقى منها ابن حبيب وهي ولا شك ما كان يرويها العلماء المصريون الذين

(78) ابن عذاري : البيان المغرب ، تحقيق لفي بروفنسال، طبعة دار الثقافة بيروت، ص 2.

(79) عبد الواحد ذو النون طه : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، ص 8 — 9.

أخذ عنهم ابن حبيب وصرح بأسمائهم في أكثر من موضع من أمثال الليث بن سعد المتوفى 175 هـ/791 م، وعبد الله بن وهب المتوفى 197 هـ/812 م، وإلى جانب هذين العالمين فإن ابن حبيب ينقل من آخرين دون أن يصرح بأسمائهم قائلا : حدثنا بعض مشايخ أهل مصر أن موسى بن نصير انتهى إلى نهر...

ويمضي غونثاليث بالثيا قائلا كان الطلاب الأندلسيون يميلون إلى الفقهاء المصريين أكثر من ميلهم إلى بني جلدتهم الأندلسيين فرحلوا إليهم يلتمسون عندهم أخبار بلادهم مما جعل علماء مصر وفقهائها يشعرون بالتعالي والأستاذية بالنسبة لهؤلاء القادمين من الغرب ومع اعترافي بأنهم كانوا مبرزين في علوم الحديث إلا أنهم كانوا يجهلون كل شيء عن الأندلس وإسبانيا لكنهم حينما كانوا يتعرضون لأسئلة طلابهم الأندلسيين حول الفتح الأندلسي وحتى لا يفقدوا مكانتهم فقد رووا لطلابهم حكايات مصرية نسبوها إلى الأندلس وحلوها بالكثير من الأعاجيب، فتحدثوا عن الأندلس وكأنه بلد في بحر الظلمات تسكنه الجن، وتقوم فيه القلاع المسحورة والأصنام، وتعيش فيه الشياطين في قماقم حبسها فيها النبي سليمان بن داود عليهما السلام ولهذا نجد أن كتاب ابن حبيب قد امتلأ بهذا النوع من الروايات⁽⁸⁰⁾.

ولقد حاول الدكتور مكى أن يفند بعضا من هذا الهجوم الذي تعرض له ابن حبيب لأن كتاباته لا تخلو من قيمة تاريخية فهي تمثل مرحلة هامة في تطور التاريخ الأندلسي، وهي علامة على دخول الموروثات المصرية التي تظهر بوضوح فيما كتبه ابن حبيب، ومؤرخ مصري من المؤكد أنه هو الذي كتب الجزء المتعلق بالأندلس في كتاب الإمامة والسياسة.

ويشير إلى الجزء الخاص بالحكايات فيرى أنها وإن كانت غير ذات فائدة تاريخيا إلا أن لها قيمة أدبية كبيرة فالكثير من هذه الحكايات التي ألفها المصريون حول الفتح الإسلامي للأندلس قد تركت أثرا عميقا في الأدب القشتالي، وفي نفس

(80) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، ص 144، انظر أيضا : نشأة التدوين التاريخي العربي في الأندلس، ص 9.

الوقت أثرت الأدب الشعبي المصري، وأخيرا فقد دخلت ضمن حكايات ألف ليلة وليلة⁽⁸¹⁾.

وأضيف إلى ذلك أن ابن حبيب لم يكن ناقلا فحسب بل أننا نلمح عنده صفات المؤرخ التي يتميز بالدقة والحساسية في رؤية الأشياء وصياغتها ومن ذلك مثلا ما نقله إلينا ابن حارث الخشني عن خالد بن سعيد عن محمد بن فطيس عن يحيى بن يوسف بن يحيى المعافري أنه سمع عبد الملك بن حبيب يذكر القاضي محمد بن بشير فقال : كان من خيار المسلمين، وذكر عدله. قال عبد الملك : وكان يصلي بنا الجمعة وعليه قلنسوة خبز⁽⁸²⁾.

هذا وسوف ألحق بنهاية هذا البحث نص الفصلة التي نشرها الدكتور محمود علي مكى كملحق لبحثه من كتاب تاريخ عبد الملك بن حبيب.

وهكذا خطت مدرسة التاريخ الأندلسية خطوة أخرى كبيرة تدعمها المدرسة المصرية، وظهرت إلى الوجود أول محاولة أندلسية لكتابة تاريخ الأندلس — رغم الإشارة إلى تاريخ العالم كمقدمة — على الرغم مما شاب الكتاب من نقص أو تعرض له من انتقاد.

معارك بن مروان من آل موسى بن نصير :

يورد الحميدي عند ترجمته لموسى بن نصير فاتح الأندلس نصا يقول فيه «وقد ألف في أخباره — أي أخبار موسى — في فتوح الأندلس، وكيف جرى الأمر في ذلك، رجل من ولده يقال له معارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ابن معاوية⁽⁸³⁾. ومع أن الحميدي لم يذكر تاريخا لوفاة معارك هذا، إلا أن معظم الدراسات تنسبه دون تأكيد إلى القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، ولقد اختلف المؤرخون في نسبته فجعله بعضهم أندلسي الموطن ومنهم بويجس الإسباني والدكتور عبد الواحد ذنون طه⁽⁸⁴⁾. لكن الدكتور محمود علي

(81) مكى : مصر والمصادر...، ص 200.

(82) الخشني : قضاة قرطبة، ص 30.

(83) الحميدي : الجذوة، ص 317 الترجمة 793.

(84) ذنون طه : نشأة تدوين التاريخ العربي، ص 11.

مكي قدم دراسة ضافية خلص منها إلى أن معارك بن مروان لا بد وأن ينسب إلى المدرسة المصرية في الكتابة التاريخية⁽⁸⁵⁾.

وترجع أهمية معارك بن مروان هذا إلى تخصيصه كتابا عن أخبار جده الأعلى موسى بن نصير وجهوده في الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، وما جرى له من أمور.

ويرى الدكتور مكي في بحثه المشار إليه أن الجزء الخاص بالأندلس والوارد في كتاب الإمامة والسياسة إنما هو من وضع معارك بن مروان هذا موردا عددا لا بأس به من الأدلة والبراهين التي ترجح وجهة نظره⁽⁸⁶⁾.

بقي بن مخلد الأندلسي المتوفى عام 276 هـ/889 م :

هو أبو عبد الرحمان بقي بن مخلد من أهل قرطبة ولد في حدود 201 هـ/816 م، وطلب العلم عند محمد بن عيسى المعافري القرطبي المتوفى 222 هـ/837 م، المحدث الأندلسي المعروف ولقد ترك هذا المعلم أثرا كبيرا على تلميذه بقي بن مخلد خاصة وأن محمد ابن عيسى كان رجلا عاقلا سريا جوادا يمكن أن يترك أثرا واضحا على طلابه⁽⁸⁷⁾.

رحل بقي بن مخلد إلى المشرق في حدود سنة 224 هـ/839 م فحمل عن أهل مصر والشام والحجاز والجزيرة والبصرة والكوفة وواسط وبغداد وخرسان علاوة على القيروان وتونس.

وكان بقي موفقا في رحلته جدا حيث التقى بالثقات من الشيوخ في هذه البلاد وأخذ عنهم كما تحمل رواية المؤلفات النفيسة من أصحابها مباشرة وبلغت عدة رجاله الذين تلقى عنهم العلم مائتين وأربعة وثمانين رجلا.

(85) Makky: De nuevo sobre el autor de la parte relativa a España de la obra anonima titulada Al Imama Wal Siyasa. R.I.E.E.I Madrid.

من جديد حول كاتب الجزء الخاص بالأندلس في الكتاب المجهول المؤلف والمسمى «الإمامة والسياسة» مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرد، العدد الخامس لعام 1957 م، الصفحات 210 — 220.

(86) مكي : نفس المصدر، ص 215 وما بعدها.

(87) انظر ترجمة محمد بن عيسى عند ابن الفرضي، ج 2، ص 5، الترجمة 1102.

عاد الفقيه إلى الأندلس من رحلته الأولى بما جمع من العلوم الواسعة والروايات العالية، والاختلافات الفقهية حتى كان سببا في إغاظه فقهاء قرطبة وإثارة حسدهم⁽⁸⁸⁾.

تمتع بقي بن مخلد بمكانة كبيرة في الأندلس على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمان الأوسط ثم عاد إلى الرحلة مرة أخرى طوف فيها لمدة أربعة عشر عاما في الشرق الإسلامي عاد بعدها إلى الأندلس حيث شهد تولي الأمير المنذر الإمارة عام 273 هـ/886 م، وكان لبقی بن مخلد خاصة بالإمام المنذر بن محمد بن عبد الرحمان قبل ولايته الملك، فقد بشره بقي بالخلافة لرؤيا رآها بقي في حياة والده، فلما ولي المنذر الحكم زاد في إكرامه، حتى أنه عندما دخل عليه يوم البروز في المصلی منعه من تقبيل يده، وأجلسه على جانب من فراشه على رؤوس الناس⁽⁸⁹⁾.

ولبقی بن مخلد أثر لا يمحي في انتشار دراسة الحديث بالأندلس بعد أن أنصفه الأمير محمد فمن يومئذ انتشر الحديث بالأندلس، ثم تلاه ابن وضاح، فصارت الأندلس دار حديث وإسناد، وإنما كان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأي مالك وأصحابه⁽⁹⁰⁾.

بقي بن مخلد مؤرخا

وإلى جانب تلك المكانة العالية في مجال الحديث فإن للفقيه الأندلسي بقي بن مخلد دور في غاية الأهمية في الجانب التاريخي حيث كان أول من أدخل إلى الأندلس «تاريخ خليفة ابن خياط المتوفى 240 هـ/854 م، وكتاب الطبقات لنفس المؤلف وكذلك كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله للدورقي⁽⁹¹⁾.

(88) انظر قصة الفقيه بقي بن مخلد مع فقهاء قرطبة وترجمته في معظم كتب التراجم الأندلسية كما يمكنك الرجوع لكتابي: تاريخ التعليم في الأندلس، ص 96.

(89) الحشني: قضاة قرطبة، ص 7. والنباهي: قضاة الأندلس، ص 18، وأكرم ضياء العمري: بقي بن مخلد، ص 56.

(90) ابن الفرضي: علماء الأندلس، ج 1، ص 92.

(91) ابن الفرضي: نفس المصدر، ص 92، وابن حيان في المقتبس، تحقيق مكي بيروت 1973، ص 264، انظر أيضا أكرم ضياء العمري: مسند بقي بن مخلد، ص 52، وكذلك مقدمته لتحقيق تاريخ خليفة ص 31.

ولم يكتب ابن مخلد بنقل تاريخ ابن خياط وطبقاته إلى الأندلس فحسب إنما وصل تاريخ خليفة من رواية، وأضاف إليه بعض الروايات التي أخذها عن بعض شيوخه وهم: محمد بن عبد الله بن نمير وهو من علماء الحديث بالبصرة، وقد نقل عنه بعض روايات مقتضبة تتصل بمقتل الحسين وثورة ابن الزبير وتواريخ بيعة بعض الخلفاء الأمويين، وفي سائرهما لم يصرح باسمه بل يقول: «ابن نمير» لكنه ذكر اسمه كاملاً مرة واحدة فعرف أن المقصود محمداً وليس أباه عبد الله وكلاهما من المحدثين البصريين.

كذلك أضاف بقى ثلاث روايات عن اسماعيل بن عياش تتعلق بثورة ابن الزبير وإكرام آل المهلب في خلافة عبد الملك بن مروان.

إن معظم إضافات بقى إلى تاريخ خليفة أخذها من مصدرين، أولهما: الليث بن سعد الذي نقل عنه بقى عن طريق يحيى بن عبد الله بن بكير، وكانت روايات الليث مدونة تقرأ على ابن بكير وبقى يسمع، وقد صرح بقى بذلك فقال «قرأ علي ابن بكير وأنا أسمع عن الليث» في سائر ما نقله عنه، وقد كان ابن بكير يثق ببقى ويدنيه في مجلسه، بل سمع ابن بكير سبعة أحاديث من بقى بعد رجوعه من العراق، وكان مع بقى إثر زيارته العراق كتاب التاريخ لخليفة بن خياط، فأضاف إليه ما سمعه في مجلس ابن بكير من روايات الليث بن سعد، ومعظمها يتصل بأحداث مصر حيث عاش الليث بن سعد، وبأحداث شمال أفريقيا خلال العصر الأموي، كما يتصل بعضها بأحداث بارزة في الشرق كمقتل الحسين وفتنة ابن الزبير.

أما المصدر الثاني لإضافات بقى فهو: محمد بن عائد الدمشقي (150 — 233 هـ) الذي صنف في المغازي، اهتم بما يتصل بالشام وأحداثها حيث أن معظم المقتطفات تناول غزو المسلمين للروم خلال العصر الأموي، وقد أخذ بقى روايات محمد بن عائد عن طريق بكار بن عبد الله بن بشر الذي سمع منه بقى بدمشق، لكن ما أورده عنه في تأريخه لم يكن مما سمعه منه بدمشق، وهو يصرح بطريقة التحمل فيقول «كتب إلى بكار بن عبد الله»⁽⁹²⁾.

(92) انظر في ذلك أكرم ضياء العمري في مقدمته الإضافية لتحقيق تاريخ خليفة ابن خياط، ص 32 و 33، وانظر كذلك تحقيقه لمسند بقى، ص 53 وما بعدها.

ومن الجدير بالذكر أن تاريخ ابن خياط الذي وصل إلينا إنما هو رواية بقي بن مخلد عنه بينما فقدت الروايات الأخرى التي أخذت عن ابن خياط⁽⁹³⁾.

ولقد روى ابن مخلد كتاب ابن خياط لتلاميذه وعن طريقه تسربت بعض الأخبار المتعلقة بالأندلس إلى المؤرخين الأندلسيين اللاحقين ومن ذلك ما ينقله إلينا ابن الفرضي نقلاً عن بقي بن مخلد عن خليفة بن خياط قال : في سنة 92 هـ وجه موسى بن نصير مولاة طارقاً، فأتى طنجة وهي على ساحل البحر، وعبر إلى الأندلس فلقية ملكها، فقتل وسبى وأسر، فقتل النصاري وقتل ملكهم⁽⁹⁴⁾.

ولم يكتف بقي بن مخلد بالرواية التاريخية عن غيره بل إننا نلمس له اهتماماً مباشراً يتجلى في محاولته الإطلاع على الوثائق والمقارنة، ومن ذلك اهتمامه بأخبار القضاة السابقين، فقد وصف القاضي محمد بن بشير المتوفى 198 هـ/814 م، — قبل مولد بقي بيسير — بأنه كانت له في قضاياها مذاهل ودقائق لم تكن لأحد من قبله في الأندلس، ولا يقاس إلا بمن تقدم في صدر هذه الأمة، وقال أنه اطلع على سجلات هذا القاضي فوجدها مختصرة جداً، محتوية على نص المعنى من غير إكثار، فهي أسطر قليلة خلافاً للتقاليد التي كانت تميل إلى الإطناب في عصر بقي بن مخلد⁽⁹⁵⁾.

يحيى بن الحكم الغزال الأندلسي :

نتناول هنا شخصية بارزة لها دورها في التاريخ الحضاري الأندلسي عامة وفي مجال التاريخ خاصة، لأنه في حد ذاته يمثل سجلاً تاريخياً حياً، فقد عاش الغزال ما يقرب من قرن كامل عاصر خلاله خمسة من أمراء بني أمية هم عبد الرحمن الداخل وهشام والحكم وعبد الرحمن الأوسط وأخيراً الأمير محمد بن عبد الرحمن ويؤرخ في ذلك شعراً بقوله :

أدركت بالمصر ملوكاً أربعة وخامساً هذا الذي نحن معه

(93) انظر المقدمة المشار إليها لأكرم العمري.

(94) ابن الفرضي : علماء الأندلس، ج 2 ص 146، الترجمة 1456، ولقد وردت العبارة بالفعل في تاريخ ابن خياط، ص 304.

(95) انظر القاضي عياض : ترتيب المدارك، ج 3، ص 332، وكذلك أكرم العمري في مسند بقي بن مخلد، ص 59.

ولد يحيى بن الحكم الغزال في إمارة الأمير عبد الرحمان الداخل في حدود سنة 156 هـ/773 م⁽⁹⁶⁾، وهناك من جعل مولده في عام 150 هـ/770 م، استنادا إلى بعض أشعاره والوقائع التي عاشها ومنها قوله :
ومالي لأبلى لتسعين حجة وسبع أت من بعدها ستان⁽⁹⁷⁾

وتجمع كافة المصادر على وفاته عام 250 هـ/864 م، وعلى ذلك يكون قد عاش قرنا كاملا تقريبا وعاش خمسة من الأمراء كما سبق أن أشرنا.

كان يحيى بن الحكم الغزال يتمتع بشخصية فذة طبقت شهرتها الآفاق استطاع بحكمته وذكائه وروح الفكاهة والدعابة أن يحتل مكانة بارزة في المجتمع الأندلسي وخاصة في عصر الأمير عبد الرحمان الأوسط حتى استحق ثناء كل من تناولوا ترجمته بعد ذلك.

تولى الخلافة الأمير عبد الرحمان الأوسط وتوثقت بينهما عرى الصداقة واتخذهُ الأمير سفيرا له إلى كل من أمبراطور القسطنطينية وملك النورمان وهما سفارتان حظيتا باهتمام المؤرخين المسلمين وغير المسلمين لما لهما من أهمية تاريخية كبيرة. تميز بن الحكم الغزال بملكة شعرية رائعة منذ صغره وله في ذلك موقف مع الشاعر عباس بن ناصح الثقفي يدل على تمكن الغزال من الشعر منذ حادثته⁽⁹⁸⁾. ولذلك فإنه صاغ نتاجه التاريخي في أرجوزة كبيرة أشار إليها المؤرخون الأندلسيون فيقول المقرئ وليحيى بن الحكم الشاعر المعروف بالغزل في فتح الأندلس أرجوزة حسنة مطولة ذكر فيها السبب في غزوها نظما، وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها، وعداد الأمراء عليها وأسماءهم، فأجاد وتقصى وهي بأيدي الناس موجودة⁽⁹⁹⁾.

(96) الحميدي: الجنوة، ص 252، الترجمة 887، وذلك ما ورد أيضا عند كثير المؤرخين.

(97) محمد صالح البنداق : يحيى بن الحكم الغزال، منشورات دار الأفاق الجديدة ببيروت، الطبعة الأولى 1979 م، ص 20.

(98) المقرئ : نفح الطيب، ج 3، ص 27 — 28، وكذلك التعليم في الأندلس، ص 323.

(99) المقرئ : نفح الطيب، ج 1، ص 268، وانظر أيضا كتاب البنداق عن الحكم بن الغزال ص 29.

وينقل عن بروكلمان أن الغزال قد نظمها عندما حط الرحال في بلدة شنت يعقوب حيث أقام شهرين عائدا من سفارته إلى بلاد النورمان⁽¹⁰⁰⁾.

ولقد كان الغزال سباقا في هذا المجال من النظم الشعري ويعد أول مؤرخ أندلسي صاغ تدوينه شعرا.

تمام بن عامر الثقفي :

ولد تمام بن عامر بن أحمد بن غالب بن تمام بن علقمة في عام 184 هـ/800 م، وتلقى تعليمه في الأندلس حتى أصبح وزيرا للأمير محمد بن عبد الرحمان الأوسط وولديه الأميرين المنذر وعبد الله، فانتظمت وزارته لثلاثة من الخلفاء، وعمر عمرا طويلا زائدا إلى أن توفي 283 هـ/896 م.

ولقد ألف تمام أرجوزة تاريخية تناول فيها تاريخ الأندلس من الفتح إلى عصر الأمير عبد الرحمان بن الحكم، يؤكد ذلك قول ابن الأبار «وله الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولائها والخلفاء فيها ووصف حروبها، من وقت دخول طارق ابن زياد مفتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمان بن الحكم»⁽¹⁰¹⁾.

ومما يشد الانتباه هو تزامن أرجوزتي الغزال وتمام حيث عاش الرجلان تقريبا معظم عمرهما معا، وعملا معا في بلاط الأمير محمد وكانا معا من كبار رجال الدولة وبالطبع كان للغزال فضل السبق والريادة في هذا المجال.

ومما يؤسف له فقد هذين العاملين اللذين كان يمكن أن يكون لهما نفس أهمية كتاب ابن حبيب حيث يماثلانه من ناحية الأقدمية الزمنية، وهما أيضا نتاج الجو العلمي الذي ساد الأندلس مع مطلع القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي.

كما أن هاتين الأرجوزتين أصبحتا نموذجا سار على دربه بعض الشعراء المؤرخين في الأندلس مثل أديب الأندلس ذائع الصيت ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى 328 هـ/939 م.

إلى جانب هذه القنوات الأندلسية التي بدأت تشق طريقها لكي تكون بعد

(100) صالح البنداق : الحكم الغزال، ص 27.

(101) ابن الأبار : الحلة السيرة، تحقيق د. حسين مؤنس، ج 1، ص 144.

ذلك نهرا فياضا من الاهتمام بالتاريخ والكتابة الأندلسية يمكن أن نشير إلى وجود بعض الروافد المشرقية التي كانت تساهم في تعميق هذه القنوات الأندلسية ومن ثم في تطوير مدرسة التاريخ الأندلسية بعد ذلك، ومن هذه الروافد نشير إلى وثيقة بن موسى بن الفرات الفسوي أبو زيد المتوفى 237 هـ/851 م، أصله من فارس، وخرج منها إلى الأندلس تاجرا، وكان يتجر في الوشي، وصنف كتابا في أخبار الردة وجود وعاد من الأندلس إلى مصر وكتب عنه (102).

محمد بن موسى الرازي :

أما أهم الروافد التي أسرع بتيار نهر التاريخ في الأندلس فقد قدم مع محمد ابن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط الكناني الرازي وهو رأس تلك الأسرة المشهورة التي نبغ منها بعد ذلك ابنه أحمد وحفيده عيسى وهما مؤرخا الأندلس الشهيران.

وينقل لنا ابن حيان عن الحفيد عيسى بن أحمد الرازي قصة جده محمد بن موسى ووفادته على الأمير محمد بن عبد الرحمان الأوسط حاملا إليه إلى جانب بضائع المشرق وغرائبه، رسالة من الأمير ابراهيم بن الأغلب حاكم أفريقية، سر بها الأمير محمد وأجزل لمحمد بن موسى الرازي عليها المكافأة، وأنزله إليه ألطف منزل وكلفه بعد ذلك بحمل رسالة منه إلى ابن الأغلب فسفر بينهما سفارة خير يمتري كل منهما الاستفادة مما عند الآخر، فأوثقها بينهما محكمة، واعتقد بها منهما أجزل المثوبة (103).

ثم يروي ابن حيان أيضا نقلا عن عيسى بن أحمد الرازي كيفية تردد جده محمد بين الأندلس والمشرق حاملا تجارته وهدايا والعلاقة الطيبة التي كانت تربطه بالأمير محمد بن عبد الرحمان وكذلك بابنه الأمير المنذر حيث يقول «وقد كان نزل من الأمير المنذر بالطف مكان، فكان يجالسه ويستنم إليه ويشاوره، فلما توفي عاجلا خرج جدي عن قرطبة ينوي الرجوع إلى بلده، فاعتل في طريقه

(102) الحميدي : الجذوة، ص 340، الترجمة 757.

(103) ابن حيان : المقتبس، تحقيق مكى، ص 265 وما بعدها.

بمحاضرة البيرة، وتوفي بها سنة سبع وسبعين ومائتين⁽¹⁰⁴⁾.

ترك محمد بن موسى الرازي ابنا اسمه أحمد في حوالي الثالثة من عمره، ونشأ أحمد هذا بالأندلس وأصبح فيما بعد واحدا من أشهر مؤرخي الأندلس في القرن الرابع الهجري نتاوله بالدراسة في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

أما المسألة التي ثار حولها جدل طويل فقد دارت حول مكانة محمد بن موسى الرازي في التاريخ وهل ترك مؤلفات تاريخية ؟

لا شك أن الرجل يمتلك مواهباً عقلية واضحة أهله لأن يكون سفيرا بين الأندلس وأفريقية كما أنه كان تاجرا والتاجر بطبيعته راويا للأخبار ومع ذلك فقد وقف الباحثون موقفا متباينا من هذه النقطة.

يعتقد ليفي بروفنسال الفرنسي وغارثيا غومس الإسباني بأن محمدا الرازي لم يكن له أي دور في كتابة التاريخ ودليلهم على هذا أن حفيده عيسى ابن أحمد الرازي لم يذكر لجدّه أي أعمال تاريخية⁽¹⁰⁵⁾.

لكن فرانز روزينثال في كتابه علم التاريخ عند المسلمين يشير إلى احتمال أن الرجل قد ألف «كتاب الرايات» المفقود اليوم وهو تاريخ الأندلس الذي تعالجه كتب أخرى⁽¹⁰⁶⁾. ويوافقه على ذلك أنجيل غونثالت بالنشيا الذي يقر وجود الكتاب الذي يشير إلى دخول موسى إلى الأندلس، وعدد رايات القرشيين التي دخلت معه إلى الأندلس⁽¹⁰⁷⁾.

وينقل عبد الواحد طه أن هناك إشارات واضحة تدل على أن محمدا الرازي قد ألف كتابا في التاريخ يسمى بكتاب الرايات حيث يذكر الكاتب الأندلسي أبو بكر محمد بن عيسى بن مزين (كان حيا سنة 471 هـ/1078 م) أنه عثر على كتاب في إحدى مكتبات اشبيلية سنة 471 هـ اسمه كتاب الرايات من تأليف محمد بن موسى الرازي. وفي هذا الكتاب معلومات قيمة عن فتح الأندلس من

(104) نفس المصدر، ص 269.

(105) عبد الواحد طه : نشأة التدوين، ص 19.

(106) روزينثال : علم التاريخ، ص 224.

(107) بالنشيا : تاريخ الفكر، النص الإسباني، ص 114.

قبل القائد موسى بن نصير، وكيفية دخوله البلاد، وخططه في فتحها مع القبائل العربية التي رافقته، وفيه تفصيلات عن هذه القبائل وتجمعاتها، وراياتها التي تحارب تحت ظلها، وإلى هذه الرايات تعود نسبة الكتاب⁽¹⁰⁸⁾

أما الدكتور حسين مؤنس فإنه يميل إلى التأكيد المطلق لوجود كتاب الرايات ويرى في محمد بن موسى الرازي أنه أول من أوثر عنه التأليف في التاريخ إلى جانب الجغرافيا، ثم ينقل لنا نص عبارة المؤرخ الأندلسي محمد بن مزين والتي يقول فيها قال محمد بن مزين : وجدت في خزانة باشيلية سنة إحدى وسبعين وأربع مائة أيام الراضي بن المعتمد، سفرا صغيرا من تأليف محمد بن موسى الرازي سماه بكتاب الرايات، ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نصير، وكم راية دخلت الأندلس معه من قریش والعرب، فعدها نيفا وعشرين راية، منها رايان لموسى بن نصير، عقد له إحداها الأمير عبد الملك بن مروان على أفريقية وما وراءها، والأخرى عقدها له أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك على أفريقية أيضا وما يفتحها وراءها إلى المغرب وراية ثالثة لابنه عبد العزيز الداخل معه، وسائر الرايات لمن دخل معه من قریش ومن قواد العرب ووجود العمال وذكر فيه سائر البيوتات ممن دخل دون راية ثم قال بعد ذلك : «... فقل إن اجتماعهم لهذا المشهد الكريم كان في الموضع الذي كان فيه مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء، وأنه باجتماع الرايات في ذلك اليوم سمي، وبها سمي الرازي كتابه. وقال أن موسى بن نصير رحمه الله لم يبرح موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذ مسجد»⁽¹⁰⁹⁾.

أما الدكتور محمود علي مكي فإنه بعد أن يستعرض آراء الباحثين المحدثين — ماعدا رأي الدكتور حسين مؤنس حيث كتبه بعد ذلك — فإنه يتوقف على إبداء رأي حاسم قائلا : أنه من العسير القطع في هذه المسألة برأي حاسم⁽¹¹⁰⁾.

(108) عبد الواحد طه : نشأة التدوين، ص 21.

(109) مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، العدد 7 و8، 1959 — 1960، ص 225.

(110) مكي : المقتبس لابن حيان، التعليق رقم 463، ص 579.

لم يعد في إمكاننا بعد تناول هذه الشخصيات أن نتحدث عن نشأة المدرسة، لأننا أصبحنا الآن على مشارف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وهو قرن شهد نموا وازدهارا رائعين في مجال التدوين التاريخي وظهرت فيه أيضا أسماء كثيرة لمن كتبوا في التاريخ وذلك ما ندعو الله أن يوفقنا لدراسته فيما بعد.

تاريخ التعليم في الأندلس
من القرن الخامس إلى سقوط الأندلس

للدكتور محمد عبد الحميد عيسى

تاريخ التعليم في الأندلس من القرن الخامس إلى سقوط الأندلس

الدكتور محمد عبد الحميد عيسى *

أهمية فترة الدراسة :-

تعرضت بلاد الأندلس - منذ مطلع القرن الخامس للهجرة - لمجموعة من الأحداث الكبرى والتطورات التاريخية الحاسمة التي كان لها دورها في اختلاف تلك الحقبة الزمنية عما سبقها، لا في المجال السياسي وحسب، وإنما أيضاً في جميع مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية... الخ.

ولقد شهد مطلع القرن الخامس للهجرة سقوط دولة الخلافة في الأندلس على ما كان لها من بهاء وعظمة، وتناثر الدولة الأندلسية الموحدة في ممالك صغيرة، عرفت بالطوائف، أضاعت هيبتها في قلوب أعدائها وتسببت في اندثار بلادهم أيضاً.

ومن أبرز أحداث القرن الخامس أيضاً، سقوط مدينة طليطلة الإسلامية على أيدي ملك قشتالة الأذفونش (الفونسو السادس) Alfonso VI وتحولها إلى عاصمة للمملكة النصرانية. وقد لعبت تلك المدينة دوراً أساسياً في نقل المعارف الإسلامية والعلوم العربية إلى أوروبا وإلى اللغة اللاتينية، مما كان له أثره القوي في تقدم الخطوات الأوروبية بثقة أكبر نحو عصر النهضة.

وشهد هذا القرن كذلك، ظهور دولة المرابطين في بلاد المغرب؛ ثم عبورهم إلى الأندلس، وتحمل عبء الدفاع عن البلاد، ومجاهدة النصارى حماية لها، وتحقيق نصر الزلاقة ٤٨٩ هـ / ١٠٨٦ م، الذي أعاد للمسلمين ثقتهم في أنفسهم ومكنهم من البقاء هناك لعدة قرون تالية.

وظهرت في القرن السادس للهجرة دولة الموحدين التي تمكنت، من حكم بلاد المغرب والأندلس ما ينيف على المائة والخمسين عاماً، وتركت بصماتها الثابتة على تاريخ هذه المنطقة وحضارتها.

* قسم التاريخ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - القصيم.

أما القرن السابع للهجرة، فقد كان شاهداً على سقوط معظم القواعد الأندلسية العامة في أيدي النصارى، فتهافت قرطبة، واشبيلية ومرسية، وبلنسية، وجيان، وبطليوس وغيرها.

وقامت في هذه الفترة في جنوبي الأندلس دولة إسلامية عاصمتها غرناطة، أمكنها أن تقاوم الأمواج، وأن تدير شراعتها رغم شراسة أعدائها لتظل حية باقية إلى نهاية القرن التاسع الهجري ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م، وقد عرفت بالمملكة النصرية.

وترتبط دراسة تاريخ التعليم في هذه الحقبة بهذه التغيرات السياسية جميعاً، وما أعقبها وترتب عليها من تغيرات اقتصادية واجتماعية، لما لذلك من دور مؤثر في الحياة التعليمية والنشاط التعليمي، فمن ذلك مثلاً الاهتمام ببناء المساجد، أو تعمير ما كان قد وهى منها وتجديده، والاهتمام بمن يجلس فيها من المعلمين ورواتبهم، والحرص على أن تتوافق المناهج التعليمية التي تقدم فيها، وسياسة الحكام، أو على الأقل لا تتعارض والاتجاه العقائدي العام الذي قامت عليه دولهم كالمرابطين والموحدين مثلاً.

وكذلك فإن بناء المدارس قد ظهر إلى الوجود من المنحى نفسه، فانتشر في بلاد المغرب أولاً ثم عبر إلى الأندلس متأخراً حيث حملة الموحدون ضمن أنظمتهم. ومن ناحية أخرى فإن الأوضاع التي أحاطت بالدولة النصرية هي التي أثرت بلا شك على اشتداد الاهتمام بالعلوم النظرية دون العملية منها.

وكان أبرز تأثير لأحوال الأندلس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية اعتباراً من القرن الخامس على الناحية التعليمية: هو تأثير تلك الأحوال على مجال الرحلات العلمية لأنه إذا كان قد دخل الأندلس في العصور السابقة عدد من المشاركة النابغين الذين تركوا أثراً واضحاً فيها، فإننا لا نجد الكثير من المشاركة يدخلون الأندلس في القرنين السادس والسابع الهجريين، وحتى هؤلاء الذين دخلوها لم يكن بينهم عالم مشهور باللغة والنحو^(١).

وإذا كانت الرحلات إلى المشرق هي إحدى الروافد الغنية التي لعبت دورها في إمداد قنديل العلم في الأندلس بالجديد من الزيت، فإن الظاهرة التي نلمحها في تلك الفترة هي كثرة الهجرة والاستيطان في البلاد المشرقية، حيث حاز الكثيرون منهم شهرة وجاهاً، منهم الحميدي (٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م)، والشاطبي (٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م)، وابن دحية (٦٢٣ هـ / ١٢٢٥ م).

(١) رضا عبد الجليل الطيار، الدراسات اللغوية في الأندلس: ٤٣.

هـ / ١٢٣٥ م)، ومحيي الدين بن عربي (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م)، والقرطبي (٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م)، وابن مالك (٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م)، وابن سعيد (٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م)، والشاطبي اللغوي (٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م)، وأثير الدين ابو حيان (٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) وغيرهم كثيرون.

الفصل الأول: تطور الحركة العلمية وارتباطها بالظروف الاجتماعية والسياسية.

مضى على الوجود الاسلامي في الأندلس أكثر من ثلاثة قرون كاملة، وهي فترة كافية لكي تنضج ثمار الحضارة الاسلامية في هذه البلاد وتؤتي أكلها، لا في مجال الحياة العلمية وحسب، بل في مناحي الحياة الانسانية جميعها.

ولقد لعبت الجهود خلال هذه القرون دورها العظيم في التمازج بين الحياة الفكرية الاسلامية على أرض الأندلس والحياة الفكرية الاسلامية في الشرق الاسلامي، ومن ثم في التقارب والالتقاء، وكانت الرحلة بين الاقليمين طرداً وعكساً أحد هذه الجهود التي أدت دورها ببراعة في هذا المجال، وإن اختلف المقصد وتباينت الغاية بين الأولى والثانية، فبينما كان مقصد الرحلة الأولى طلب العلم والمعرفة والنهل من مصادر الثقافة والفكر في الشرق الاسلامي، كان غرض الرحلات إلى الأندلس طلب الشهرة العلمية والمال ورفاهية العيش. وكان للرحلة في الاتجاهين أثرها المباشر في التقارب الفكري والثقافي بين العقليتين، بل يمكننا القول بأنهما تماثلا «في حياة الترف العقلي، وتغير الحياة الاجتماعية وأثرها في النفوس والعقول» (١).

وكان عصر الخلافة في الأندلس، والتشجيع الذي منحه كل من عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر للعلم والعلماء أكبر رافد منح الأندلس في القرن الخامس الهجري عدداً ضخماً من المفكرين والأدباء والشعراء والأطباء ورجال العلم، وساعد على إثراء الحياة العلمية في الأندلس. وأعطى الفرصة للثقافة الأندلسية أن تنعم بنهضة عامة، كان من أبرز مظاهرها بروز الشخصية الأندلسية العلمية وقوتها واستقلالها إلى حد كبير بالابتكار والابداع في أكثر فروع المعرفة، وقد ساعدتهم على ذلك ما تمتعوا به من الحرية الفكرية مع إقبالهم على العلوم الفلسفية والطبيعية، والاتصال بينابيع المعارف الاغريقية واللاتينية.

ولقد أعطى ذلك كله ثماره على عهد ملوك الطوائف فمضوا يراعون هذه الهمم

(١) مصطفى محمد أحمد السبوي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس: ٦٩

ويشجعون هذه القرائح مما أشعل روح التنافس العلمي والثقافي بين أروقة هؤلاء الملوك، وليس أدل على ذلك من قول الشقندي في رسالته عن فضل الأندلس التي نقلها إلينا المقرئ: «وكان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد، إذ نفقوا سوق العلم وتباروا في المثوبة على المثور والمنظوم. فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول: العالم الفلاني عند الملك الفلاني. والشاعر ألفلاني مختص بالملك الفلاني» (١).

ولقد كان هؤلاء الملوك لفرط عنايتهم بالأدب يضمنون إلى مجالسهم غير ما تحويه هذه الصفوة الراقية من أساطين الفكر والعلماء الذين أينعوا وأورقوا في ذلك العصر الزاهر، والذين كانوا قدوة جمهور الأدب والعلم في تلك الفترة، وكانت مجالسهم المعين الذي تستقي منه الحركات العلمية والأدبية والخلقية.

ويكفي للدلالة على ذلك أن نضرب مثلاً بمجاهد العامري تاجكم دانية الذي يصفه ابن حيان بقوله: «كان مجاهد فتى أمراء دهره وأديب ملوك عصره، لمشاركته في علم اللسان، ونفوذه في علم القرآن... وكانت دولته أكثر الدول خاصة وأسراها صحابة لانتحاله العلم والفهم فأتمه جملة العلماء وأنسوا بمكانه، وخيموا في ظل سلطانه، واجتمع عنده من طبقات علماء أهل قرطبة وغيرها جملة وافرة، وحلية ظاهرة» (٢). ويتما يقال عن دولة بني المظفر أمراء بطليوس من أنه كانت أيامهم في غرب الأندلس أعياداً ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الآداب (٣).

والحق أن النهضة العامة في الأندلس في القرن الخامس الهجري كانت الثمرة البانعة للعلوم والآداب والفلسفة إلى جانب ثمرات أخرى لجنت آتت أكلها لا في ميدان الأندلس فقط، ولا في ميدان الحياة الإسلامية العقلية وحدها، بل في ميدان الحياة الإنسانية كلها (٤).

وجاء المرابطون وسيطروا على شؤون الحكم في الأندلس، ومهما قيل عن التغير الذي طرأ على الحياة الثقافية والفكرية فيها، فإنه من الصعب على الإنسان أن ينكر استمرار الحياة الفكرية، وإن عرف المرابطون بتشجيعهم جوانب معينة من هذه الدراسات، ولقد شهد

(١) المقرئ، نفح الطيب: ٣ / ١٩٠

(٢) ابن بسام، الذخيرة: ١ / ٢٣

(٣) المراكشي، المعجب: ١١٢

(٤) مصطفى السيوفي، ملامح التجديد: ٥٧

عصرهم اهتماماً نوعياً بالعلوم، حيث ازدهر بعضها واطمحل بعضها الآخر، ففي الوقت الذي اهتموا فيه اهتماماً كبيراً بالذهب المالكى، فإنهم قد اضطهدوا علم الكلام، وآثروا فقهاء المذهب المالكى إلى درجة كبيرة، وخاصة الأمير يوسف بن تاشفين الذي اشتد إثارته لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمراً في جميع أنحاء مملكته دون مشاورة الفقهاء... ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم، طول مدته، فعظم أمر الفقهاء، وانصرف وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم (١).

وزيدنا المراكشي تحديداً حين يقول: ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ومحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فتفتت في ذلك الوقت كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبت ما سواها (٢).

ولعل قصر فترة المرابطين التاريخية وانشغالهم بالحروب الكثيرة في تثبيت دعائم دولتهم ثم في المحافظة عليها، قد صيغ هذه الدولة بالطابع العسكري، ولم يعطها الفرصة الكبيرة لازدهار علوم أخرى كثيرة. أولعل أنشطتها العلمية حجبت عنا، فلم يصل إلينا الكثير من المعلومات عنها.

أما الموحدون فإننا نتمتع ببيانات وافرة ووثائق كثيرة عن اهتمامهم بالحياة العلمية، حيث أبدت هذه الدولة الموحدية اهتماماً كبيراً جداً بالتعليم، وذلك لقيام دولتهم على عقيدة دينية مميزة، مما حتم ضرورة الاهتمام بنوعية التعليم التي يمكن أن تساهم في إقناع الناس بهذه العقيدة (٣).

ولم يقتصر اهتمام الموحدين بما يتلاءم مع عقيدتهم فحسب، بل كان فضلهم على المعارف عظيماً، فإنهم حافظوا على ما اختلوه منها إلى حد كبير وشجعوها كما شجعوا كثيراً من العلوم التي لم تكن رائجة أو كان محظوراً رواجها في العهد المرابطي، وقد بلغ تشجيعهم للمعارف التي كانت شائعة في عهدهم مبلغاً عظيماً، وكان تشجيعاً مادياً وأديباً، تفتتوا فيه ما شاءت لهم همهم الكبيرة أن يفتتوا. فأسسوا المدارس، وعمروا المعاهد وجلبوا كبار

(١) المراكشي: المعجب: ٢٥٣. والزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع في كتاب محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس: ١٧٣ - ١٧٦

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٤

(٣) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ١٧٦

العلماء واقترحوا تدوين الكتب، وعقدوا المناظرات، وجمعوا المجامع العلمية المتنوعة، وأسسوا خزائن الكتب. وسبقوا إلى التعليم الاجباري وابتكروا التعليم المجاني، ووضعوا مناهج التعليم، ولرغبتهم في نشر العلم علموا حتى باللسان البربري (١).

ولقد كان لتسامح بعض خلفاء الموحدين مع العلوم الفلسفية أثره في بروز بعض القيم الفكرية في هذا المجال من أمثال ابن طفيل وابن رشد مما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأنه كان من رأي الموحدين - على العموم - أن لا يجبروا على الناس في حرية تفكيرهم، ولذلك فقد ازدهرت رؤوس المفكرين وارتفعت في كل زاوية، بل إن أفقهم كان لا يضيق عن سماع النقد، وهم مع هذا يحرصون كل الحرص على أن يحلوا رجال الفكر والعلم، يستقبلونهم في صدر ما يستقبلون، ويؤثرونهم على غيرهم في الولايات والتكريمات والمظاهر السامية (٢). وهو أيضاً العصر الذهبي لعلم الطب إذ نبغ فيه كثير من أطباء الأندلس (٣). ومن أشهرهم أسرة بني زهر وخاصة الحفيد أبو بكر بن زهر، وأبو الوليد بن رشد وأبو الحجاج يوسف بن موراطير (٤).

وحينما زار الرحالة المصري عبد الباسط مدينة غرناطة قبل سقوطها في أيدي النصارى بحوالي ٢٥ عاماً وصفها بأنها مجمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء، وأرباب الفنون والكمالات، ثم يستطرد كثيراً في الحديث عن علماء غرناطة، ومشايخها ورجال الأدب والفكر فيها مما يدل على مدى التقدم الثقافي الذي وصلت إليه هذه المملكة، وحافظت على وجوده، رغم نذر الفناء التي كانت تأخذ بخناقها وتطبق عليها بشدة (٥).

ولقد بدأ الازدهار في هذه المملكة الصغيرة على عهد ثاني أمرائها أبي عبد الله محمد الملقب بالفقيه ٦٣٣ - ٧٠١ هـ / ١٢٠٢ - ١٣٠٢ م الذي يصفه ابن الخطيب بقوله: «انه توفر على المزيد من الخلال الفاضلة بالإضافة إلى العلم وممارسة الشعر، وإيثاره مجالس الأدباء والفقهاء» (٦).

وواصل ملوك غرناطة عنايتهم بالعلم والتعليم واحتل يوسف الأول وابنه محمد

(١) محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين: ١٥ - ١٦.

(٢) عبد اخادي التازي: مقدمة تحقيقه كتاب ابن صاحب الصلاة: «المن بالإمامة». ٦٢، وبمحمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ١٧٨.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس: ٢٨٥.

(٤) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء: ٥١٧ - ٥٣٤.

(٥) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ١٨٢ - ١٨٣.

(٦) ابن الخطيب، الإحاطة: ١/ ٥٥٦.

الخامس مكانة بارزة في هذا المجال. حيث أجريا الجراية على العلماء والمعلمين. وأوليا إليهم وظائف كثيرة وأوكلا إليهم أعمالاً يتقاضون منها جراية. ثم لكي يقوموا في الوقت نفسه بالتدريس وتعليم الناس.

وعلى عهد السلطان يوسف الأول شهدت غرناطة حدثاً تاريخياً لعب دوراً أساسياً في الحياة التعليمية فيها، وهو تأسيس المدرسة النصرية (١).

ولقد كان لسقوط المدن الأندلسية الكبرى، قرطبة وبلنسية، واشبيلية ومرسية، وهجرة كثير من علمائها إلى غرناطة أثره الكبير في ارتفاع المستوى الثقافي لهذه المملكة إلى درجة تعيد إلى الأذهان الفترة التي كانت عليها مدينة قرطبة في عهد الحكم المستنصر بالله. ولعل ذلك الاستعراض السريع يبين لنا ما يقوله المقرئ (١٠٤١هـ / ١٦٣٦م) واصفاً أهل الأندلس بأنهم:

«في غاية الاستحضار للمسائل العلمية على البديهة، قال ابن مسدي: أملى علينا ابن المناصف النحوي بداهة على قول سيبويه «هذا باب الكلم من العربية» عشرين كراساً، بسط القول فيه على مائة وثلاثين وجهاً.

هذا وأمثاله يكتفيك في تبحر أهل الأندلس في العلم، وربما سئل العالم منهم عن المسألة التي يحتاج في جوابها إلى مطالعة ونظر، فلم يحتاج إلى ذلك ويذكر من فكره ما لا يحتاج معه إلى زيادة» (٢).

ويكرر في موقع آخر:

«وأما حال أهل الأندلس في فنون العلم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز. فاجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهل أن يتميز بصنعة هيرباً بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس ولأن هذا عندهم في نهاية التبجح.

والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار إليه ويحال عليه وينبه إلى قدره وذكره عتيد الناس. ويكرم في جوار أو ابتياح حاجة وما أشبه ذلك» (٣).

لقد كان الأساس لهذا التنوق الحضاري والفكري هو نظام التعليم الذي اهتم به

محمد عبد الحميد عيسى. تاريخ التعليم في الأندلس: ١٨٦.

المقرئ. نفع الطيب: ٤/ ١٤٠ - ١٤١.

المصدر نفسه: ٢٢٠/١.

الأندلسيون، وتدرجوا به من مراحله الأولى وواصلوا معه حتى سن متقدمة.

ولنلق نظرة على هذه المراحل التعليمية:

المرحلة التعليمية الأولى: *

يجمع المؤرخون المسلمون وغير المسلمين، على اهتمام الأندلسيين بالتعليم اهتماماً كبيراً إلى الحد الذي يجعل الأمية نادرة بينهم، والثقافة شائعة إلى حد كبير. كما يقول دوزي أحد المستشرقين الهولانديين البارزين، إنه كان في سوق قرطبة باعة عنب وتين يستطيع الواحد منهم أن يقرأ من الذاكرة أمامك كتاب معاني القرآن لأبي جعفر النحاس (١).

وأساس تلك النهضة العلمية - بلا شك - هو ذلك الأساس الأولي الذي كان يلقاه الأندلسيون في صغرهم، أي ما كانوا يتلقونه من تعليم أولي سواء في المنزل أو في الكتاب.

المنزل:

. يلعب المنزل الدور الأساسي في التكوين العقلي للطفل، والوالدان والأقربون بحكم ثقافتهم وعلمهم يتركون في نفوس أبنائهم حب العلم عامة أو الميل إلى دراسة معينة، وكثيراً ما أسادت كتب التراجم بدور المنزل في حياة عدد كبير من الشخصيات العلمية والأدبية الأندلسية مثل قولها عن أحمد بن محمد بن علي قاضي الجماعة بقرطبة المتوفى ٥٢١هـ / ١١٢٧م، إنه أخذ عن أبيه، وتفقه عنده، وهو من بيئة علم ودين (٢).

وأحمد بن محمد بن أحمد مخلص المتوفى ٥٣٢هـ / ١١٣٧م: فهو من بيت علم ونباهة وفضل وصيانة (٣).

وخليل بن إسماعيل بن عبد الملك المتوفى ٥٥٧هـ / ١١٦١م. فهو من بيت علم ودين وفقه سواء في ذلك رجالهم ونسائهم وخدمهم (٤).

والمنزل هو أساس تعلم اللغة، فالوالدان يقومان بتعليم الأبناء في مراحل التعليم

* استعملت مصطلح المرحلة الأولى والثانية والثالثة، وهو مصطلح لم يستعمل يومئذ. للدلالة على مرحلة المنزل والكتاب ثم مرحلة ما بعد الكتاب، أما الثالثة فتمثل تعمق الطالب وتخصصه.

(١) الطاهر أحمد مكي، حضارة الإسلام في الأندلس: ٩٧.

(٢) ابن بشكوال، الصلة: ٧٨/١.

(٣) المصدر نفسه: ٧٩/١.

(٤) السيوطي، بغية الرعاة: ٥٦١/١.

الأولى، وبعد ذلك كانا يقومان بتعليمه بعض سور القرآن القصار، ومن المؤكد قيامهما أيضاً بتعليم أبنائهما كتابة بعض الكلمات أو الأعداد.

المكتب:

المؤسسة التعليمية الأولى بلا منازع في العالم الإسلامي التي لعبت دورها في تعليم أطفال المسلمين منذ عصر الرسول ﷺ. وما زالت تمارس دورها التعليمي حتى اليوم.

ولقد سبق أن بينت بما لا يدع مجالاً للشك، أن المكتب قد ظهر في الأندلس في فترة باكرة جداً من الوجود الإسلامي على أرض الأندلس (١).

وحين أطل القرن الخامس على الأندلس كان انتشار تلك المكاتب في تلك البلاد انتشاراً واسعاً، تدل عليه كثرة أسماء المعلمين والمؤدبين الذين تشير إليهم كتب التراجم الأندلسية باسم «معلمي الكتاب» أو المعلم، ومن ذلك:

حمد بن شهاب بن عيسى الأموي. من أهل قرطبة كان مؤدب كتاب (٢)، وحيب بن إبراهيم المعلم، وكان معلم كتاب (٣)، وحمد بن قزلمان المؤدب: كان حافظاً للفقهاء على مذهب مالك، وكان يؤدب بالقرآن (٤)، وحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن المعلم (٥)، وعبد الله بن محمد بن الطفيل المعلم (٦). وتكفي الإشارة إلى كثرة انتشار المكاتب في الأندلس عند مطالع القرن الخامس الهجري إلى أنه في موقعة قشتل سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م (٧) أصيب من المؤدبين خاصة، ما ينيف على ستين، عريت سقائهم في غداة واحدة، وتعطل صبيانهم لعدمهم (٨).

وازداد انتشار المكاتب والاهتمام بها على عهدي المرابطين والموحدين، وذلك

(١) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ٢١٨ وما بعدها.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس: ٣١/١.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٣/١.

(٤) المصدر نفسه: ٥٣/١ - ٥٤.

(٥) المصدر نفسه: ٥٩/١.

(٦) المصدر نفسه: ٢٢٢/١.

(٧) هي إحدى معارك الفتنة الأندلسية الكبرى بعد سقوط أسرة ابن عامر، وقد دارت رحاها بين أهل قرطبة بزعامة محمد بن هشام الملقب بالمهدي، وبين البربر بزعامة سليمان بن أحمد بن عبد الرحمن الناصر. وكانت الدائرة على المهدي وأهل قرطبة ومن بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة. ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٧/٣ - ٩٠.

(٨) ابن بسام، الذخيرة: ٤٤/١.

لأهتمام الحكام بالقرآن الكريم وتعليمه للأطفال. فمما يذكر عن الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين أنه «كان يسير في أعماله فيفتقد أحوال رعيته في كل سنة، وكان عيًّا للفتهاء والعلماء والأصلحاء مقرباً خم. صادراً عن رأيهم مكرماً خم. أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طوال حياته» (١).

أما اللوحليون فقد اهتموا بالمكاتب وما يجري بها من تعليم اهتماماً كبيراً يتمثل في حلولاتهم لإدخال بعض الأفكار التربوية للإسلام القرآني وتطبيقها على نظام تعليم الشيء في بلادهم، ومن ذلك إدماجهم الرياضة في منهج التعليم. وفي مزج الأدب بالعطاء. كما كتبوا بالعون في اختيار المدرسين والاحتاحهم واختيارهم. ومن أمثلة ذلك ما كتب به عبد المؤمن بن علي إلى توابيه، فإنه أكد عليهم في اختيار مدرسين أئمة، وأن يكونوا من الذين يراقبون ومحافظون، ولا يراعون في حقوق الله، ولا يداهون (٢).

ويتجلى اهتمام المرابطين واللوحليين بالتعليم الأولي في المكاتب في ظهور آراء تربوية نافذة للقاضي أبي بكر بن العربي (٤٦٨هـ - ٥٤٣هـ) حيث وجه اهتمامه إلى المحتوى التعليمي بهذه المكاتب وقرنته بالشرق، وحلول أن يقع خم منهجاً علمياً جليداً استحوذ ابن خلدون وإن رأى أنه لا يتفق مع تقاليد المجتمع وعاداته (٣).

وفي الفترة التي شهلت تدهور دولة اللوحليين، تلمس اهتمام حكام الأندلس رغم مشاكلهم السياسية بالتعليم الأولي في تلك الولاية التي وجهها ابن هود التغلب يشرق الأندلس حيث يقول: «ومروهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله فإن تعليمه للأصغار يطنى غضب الرب، وتعم الشقيع يوم القيامة» (٤).

وعلى الرغم مما كان يحيط بالدولة النصرية من مشاكل إلا أن أهلها لم يهملوا شأن المكاتب وتورها في تعليم القرآن الكريم، وتشر كمثال على ذلك إلى ما جاء في رسالة من إنشاء ابن الخطيب اللخوي ٧٧٦هـ // ١٣٧٤م على لسان سلطانته العتي بالله حيث يقول عنه: «ويطلب الناس إلى تعليم القرآن لصياتهم، فذلك أصل أديانهم» (٥) كما أن هناك

(١) ابن أبي زرع. الأندلس النصرية في روض القرطاس: ٢٨.

(٢) التوقي. العنوم والأدب والفنون: ٢١ - ٢٨.

(٣) عمر الطائي. أوله أبي بكر بن العربي الكلامية: ١/ ٢٢١ - ٢٢٩. عنه عبد الحميد عيسى. تاريخ التعليم في الأندلس: ٢٢٨ - ٢٤١.

(٤) تقي: فتح القيب: ٥١٣/٧.

(٥) نصر الله: ٧/ ٢٨.

بعض الأدلة على بقاء المكتب حياً في الأندلس. بين المدجنين ومسلمي غرناطة حتى مارسوا الاضطهاد الديني النصراني دوره في القضاء على الإسلام والمسلمين بالأندلس (١).

أماكن وجود المكتب:

انتشرت المكاتب في الأندلس انتشاراً واسعاً بحيث لم تخل منه مدينة أو قرية أو ثغر أو حصن من الحصون أو نجع بدليل كثرة أسماء المعلمين والمؤدبين والمفكرين التي حفلت بهم كتب الترجمة الأندلسية. وكذلك كثرة إنشاء المساجد التي اتخذت في الأندلس في غالب الأحيان مكاناً للمكتب رغم التوصيات الواضحة الواردة في كتب الفقهاء بعدم اتخاذ المسجد مكاناً لتعليم الأطفال، وقد جعل الحكم المستنصر بالله حين أمر بإنشاء سبعة وعشرين مكتباً لتعليم اليتامى القرآن الكريم ثلاثة منها في المسجد الجامع بمدينة قرطبة والباقي بكل ريبض من أرباض المدينة، وفي ذلك يقول الشاعر ابن شخيص «بحر البسيط»:

وساحة المسجد الأعلى مكلمة مكاتباً لليتامى من نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك يا خير تاليتها وراعيها (٢)

ومن ذلك أيضاً إصرار ابن عبدون الإشبيلي على تذكير الناس بعدم اتخاذ المساجد مكاناً لتعليم الصبيان لأنها بيوت الله ومواضع الذكر، وأماكن العبادة مشهورة بالطهارة. ويجب أن لا يؤدب فيها الصبيان، فإنهم لا يتحفظون من النجاسات بأرجلهم ولا من ثيابهم».

وإذا رأى صعوبة تحقيق ذلك فإنه يواصل قوله: «فإن كان ولا بد ففي السقائف» (٣)، ولعل السبب في ذلك أن كثيراً من القائمين على شؤون المسجد كانوا يقومون أيضاً بتعليم الصبيان، فيروي ابن الأبار عند حديثه عن القاضي أبي عامر نذير بن وهب بن نذير الفهري (٥٥٨ - ٦٣٦ هـ) حيث يقول عن والده أنه كان لشميرية معلم كتاب يؤدبهم، ويؤم في مسجدين أحدهما يصلي فيه نهراً والثاني ليلاً (٤)، ومثله أحمد بن خلف الأموي ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م. من أهل قرطبة، كان معلم كتاب وصاحب صلاة (٥).

(١) ريبيرا، خوليان، التربية الإسلامية في الأندلس: ١٦٤.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤١/٢.

(٣) ابن عبدون، رسالة في الحبة، نشرها لفي بروفينسال: ٣١٤.

(٤) ابن الأبار، الحلة السراء ١١٣/٢ - ١١٤.

(٥) كريم عجيل حسن، الحياة العلمية في مدينة بلنسية: ٢٣١.

ولم يقتصر الأمر على رحبة المسجد أو العرائش المحيطة به، بل إن المكتب قد اتخذ في أماكن كثيرة، وحاترات ضيقة بعيدة مما جعل رجال الحسبة يوصون بعدم إنشاء تلك المكاتب إلا عند الأسواق العامرة، وفي الشوارع الكبيرة. وفي ذلك يقول أبو عبد الله محمد ابن أبي محمد السقطي المائكي الأندلسي: «ومعلمو الصبيان يكونون بالشوارع العامرة بالناس وأصحاب الحوانيت» (١).

ويجب أن نشير إلى حقيقة تاريخية هامة، وهي أن بلاد الأندلس بعد القرن الخامس الهجري كانت قد بدأت في التآكل والتقصان، وتمكن النصارى من الاستيلاء على كثير من أجزائها، ومن ثم كان انتشار المكاتب يتناقص تبعاً للظروف السياسية التي تمر بها دولة الإسلام في الأندلس، وللقارئ أن يتصور أن الحدود السياسية بين الدولة الإسلامية والدول النصرانية شماخاً لم تكن ثابتة على الإطلاق، وأن الاستيلاء على المدن والقرى الإسلامية كان قد بدأ في التزايد منذ عصر المرابطين، وإذا كانت هذه الحركة قد هدأت نوعاً ما خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري والقرن السادس بكامله نتيجة وجود المرابطين والموحدين، فإن القرن السابع الهجري قد شهد تآكلاً سريعاً لجسم الدولة الإسلامية في الأندلس بعد معركة العقاب عام ٦٠٩ هـ. فسفطت الخواضر وانقرضت ولم يبق من الأندلس إلا مملكة غرناطة الصغيرة. وتناقصت لذلك أعداد المؤسسات التعليمية في الأندلس عامة سواء المكاتب أو المساجد أو غيرها.

سن الذهاب إلى المكتب:

سار الناس في الأندلس على عاداتهم في انعصوم السابقة، وهي أن يبدأ الأولاد في الذهاب إلى المكتب في سن السادسة عادة أو قبل ذلك إن أمكن، ولدينا الكثير من الأمثلة على بدء مرحلة السماع وهي الثانية لرحلة المكتب في الخديعة عشرة، فابن مريون من حجاج ابن حاتم (توفي ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م) يذكر أنه بدأ بالسماع وعمزه لا يتجاوز إحدى عشرة سنة (٢)، ولكن العادة هي أن يبقى الأطفال في مكتب إلى سن الثالثة عشرة أو أربعة عشرة تقريباً لأن القابسي يوصي المعلمين أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فسادهم ويناهز الاحتمال (٣).

-
- (١) السقطي، آداب الحسبة: ٦٨.
 (٢) ابن بشكوال، الصلة: ٢٨٠: ٢٩.
 (٣) أحمد فؤاد الأهواني، التربية الإسلامية: ١٣٠.

صبيان المكاتب:

يبدو من دراستنا للمصادر الأندلسية أن صبيان المكاتب كانوا من أبناء جميع الناس في الأندلس، غنيهم وفقيرهم، وباستثناء أبناء اخلفاء والأمراء - الذين كانوا يختصون بتعلمين يؤدبونهم في منازلهم، فإنني لم أجد تبايناً في المستوى الاجتماعي للصبيان عند إرساخهم لتعلم القرآن والقراءة والكتابة في المكاتب.

المعلمون:

يرى المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا، معتمداً على بعض أقوال ابن خلدون أن التعليم بين الشعوب الإسلامية قد بدأ من أعلى، بين أنبل الشخصيات، ومضى هابطاً مع الزمن إلى أن انتهى به المطاف بين يدي أدنى طبقات المجتمع^(١)، ثم يواصل القول في موضع آخر بأن حرفة التعليم كان من الممكن أن تضم كل من شاء أن يتسبب إليها من شروط معينة^(٢).

والحقيقة التاريخية أن الأمر لم يكن كذلك في الأندلس على الأقل، لأن ارتفاع المستوى الثقافي العام لأهل الأندلس إلى حد أن باعة التين في الأسواق كان يمكنهم أن يقرأوا المصنفات الكبيرة إن لم يحفظوها، هذا الارتقاء في المستوى الثقافي العام لم يكن يسمح أن يتولى التعليم - حتى ولو كان تعليم الصبيان - رجال ليسوا على درجة عالية من الثقافة والعلم، وبإلقاء نظرة متأنية على كتب التراجم الأندلسية نجد أن لقب «معلم كتاب» و«معلم» كان من الألقاب التي يوصف بها أصحابها ثم يلحق بها ما كانوا يتمتعون به من علم ومن زهد ومن خلق، وتكفي في هذا المجال الترجمة التي أوردها أبو الوليد بن الفرضي لميكايل بن هارون الباهلي، وكان مؤدب كتاب، فإنه يصفه بأنه كان مجاب الدعوة، ومن أهل الجنة، وحدثه أحدهم عنه، فأثنى عليه، ووصفه بالورع والفضل^(٣).

وقوله عن حسن بن شهاب بن عيسى الأموي: كان مؤدب كتاب وكان زاهداً قاضلاً^(٤). ويدل على ثقافة معلم الكتاب ما ورد أيضاً في بعض تراجمهم، ومنها ما يقوله ابن الفرضي عن حمد بن قزلمان المؤدب كان حافظاً للفقهاء على مذهب مالك وأصحابه وكان يؤدب بالقرآن، وكان رحمه الله من العباد المتبتلين^(٥).

(١) ريبيرا، خوليان، التربية الإسلامية في الأندلس: ٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ٤٨.

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس: ١٥٢/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٣١/١.

(٥) المصدر نفسه: ٥٣/١ - ٥٤.

وقد رثه عن إبراهيم بن عبد الرحمن الكلاعي المعلم . كان يجتمع إليه للثقة ويقرأ عنده (١) وحسين بن فتح كان مؤدباً بالقرآن ، وكان له بصر بالغريب والنحو والشعر (٢) ، بل إن ابن الخطيب ، وهو ذو الوزارتين ، وصاحب السيف والقلم في مملكة غرناطة يضم كتابه الكتبية الكامنة (في أعيان المائة الثامنة) ، ترجمة لأحمد بن عبد الملك العدوي قائلاً : «وهو اليوم من معلمي الكتاب (٣)» .

المنهج التعليمي :

تشابه التعليم في المرحلة الأولى في كل أنحاء العالم الاسلامي تقريباً مع اختلاف بسيط فرضته طبيعة السكان أو الاقليم ، فقد اعتمد في هذه المرحلة على تعليم القرآن الكريم قراءة وكتابة ، ولقد كان تعليم القرآن أهم الواجبات التي يجب القيام بها في المرحلة الأولى لأسباب هامة ورئيسية ذكرها العلامة ابن خلدون بقوله :-

«واعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده ، من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات ، وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخاً ، وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للمكان ، على حسب الأساس وأساليبه يكون خال ما ينبنى عليه» (٤) .

وبهذا يتعلم الصبي نطق العربية بدقة ، لأن القراءات القرآنية وإن اختلفت صورها ، هي أفضل ما ينطق ويقرأ في كل العالم الاسلامي ، وتعد الذاكرة بجمل عربية جيدة الفصاحة ، تهيء التلميذ لدراسة النحو التي ستجيء فيما بعد ، فيتخذ من القرآن المثل والشاهد (٥) .

ويؤكد ابن خلدون وجود اختلاف بين الأمصار الاسلامية في اعتمادها على القرآن الكريم كأساس للتعليم الأولي فيقول : واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات (٦) .

(١) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس : ٥٩/١

(٢) المصدر نفسه : ١١٣/١

(٣) ابن الخطيب ، الكتبية الكامنة : ٢٧٨

(٤) ابن خلدون ، المقدمة : ٤٤٧

(٥) ربيعاً خوليان ، التربية الاسلامية في الأندلس : ٤٤

(٦) ابن خلدون ، المقدمة : ٤٤٧

وكان التعليم الابتدائي في الأندلس أكثر تنظيماً من كثير من أقطار العالم الإسلامي الأخرى. لأن المعلمين لم يقتصروا على تعليم القرآن فحسب، وإنما - كما ذكر ابن خلدون كانوا يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتابة (١).

واهتم الأندلسيون في تعليمهم الأولي بجانب آخر وهو العمل على تدريب الأولاد على الكتابة بخط حسن ما أمكن، وكانت عنايتهم بهذا الأمر لا تقل عن اهتمامهم بتعليم القرآن، وفي ذلك يقول ابن خلدون:

«ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها» (٢). وبذلك يحقق الأندلسيون من تعليمهم الأولي نتائج طيبة يتميز بها صبيانهم عند انتهائهم من هذه المرحلة، ويمكن أن نجعلها فيما يلي:-

١ - يبرز الصبي وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر وتبصر بهما.

٢ - يبرز الصبي في الخط والكتابة ويتميز به.

٣ - حفظ القرآن الكريم الذي هو الأساس للكثير من الدراسات التالية.

واهتم الموحدون بالتعليم الأولي اهتماماً بيئاً وتأثروا في ذلك بآراء الامام الغزالي (رحمه الله) وخاصة ما جاء في كتابه الاحياء، ومن ذلك ادماج الرياضة البدنية في بعض المؤسسات التي أنشأها للتعليم الأولي، وفي مزج الأدب بالعباء، وغير ذلك (٣).

وشهد عصر الموحدين أيضاً ظهور الآراء التربوية للقاضي أبي بكر بن العربي الذي حاول أن يخرج القرآن عامة من الدراسة في المرحلة الأولية، ويضع منهاجاً مختلفاً يجب أن تقوم عليه الدراسة في الأندلس على الشكل التالي:

«ينبغي ان ينشأ الطفل على تعليم العربية ومقاطع الكلام، ويحفظ أشعار العرب وأمثالها، ثم ينتقل من ذلك إلى تعلم الحساب والتمرن عليه إلى أن يدرك قوانين الرياضيات والمعاني المجردة، لأن الحساب دستور علم الميراث وعمدة استخراج المجهول من المعلوم، ففيه منفعة للدين وتمرين للأفهام».

(١) ابن خلدون، المقدمة: ٤٤٨. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ٥٠٠.

(٢) ابن خلدون، المقدمة: ٤٤٨.

(٣) المتوني، العلوم والآداب والفنون: ٣١ - ٣٨.

وإذا أخذ الطفل حظه من هذه الوسائل اللغوية والحسابية ودرس خلال ذلك شيئاً من معضل القرآن، واشتد ساعده في هذه العلوم التي تعتبر مقدمة لدراسة القرآن، انتقل إلى دراسة القرآن نفسه، وذلك لأن اللغة والشعر، ومعرفة الكتابة بمثابة وسائل ميسرة لتعليم القرآن وفهمه (١).

ورغم إعجاب ابن خلدون بهذه الطريقة تربوياً، إلا أنه رأى أن العوائد لا تساعد عليها وهي «أملك بالأحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إثارة للتبرك والثواب». وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات، والقواطع عن العلم فيفوته القرآن، لأنه ما دام في الحجر، انقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربة القهر، فرجما عصفت به رياح الشبهة، فألقته بساحل البطالة، فيفتنمون في زمان الحجر، وربقة الحكم، تحصيل القرآن، لئلا يذهب خلوا منه ولو حصل التيقن باستمراره في طلب العلم، وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى مما أخذ به أهل المغرب والمشرق. ولكن الله يحكم ما يشاء ولا معقب لحكمه (٢).

الأجر على التعليم في المرحلة الأولى :-

كان التعليم الأولي في غالبته يتم على نفقة الأهالي، حيث يتفق الوالدان أو ولي الصبي مع المعلم على شروط دفع الأجر، وما سيتعلمه الصبي من موضوعات، ويحرر العقد لمدة عام، ابتداء من الشهر الذي يتم فيه، وكان المقابل أجراً أو هدايا. يقدم مالا في جانب منه، ويدفع مع كل شهر، وجانب آخر يقدم عينا. ويكون عادة «أروبتين» أو ثلاثاً من القمح، ونصف «أروبة» من الزيت.

وفي بعض الأحيان يتفق الطرفان على أجر محدد مقابل أن يتعهد المدرس مثلاً بتعليم الصبي هذه المادة أو تلك (٣).

وفي حالات أخرى كان الحكام يقومون بالانفاق على التعليم الأولي، ولقد ضرب الخليفة عبد المؤمن بن علي المثل الأكبر في ذلك، حين أدخل نظام التعليم الاجباري الذي سبق به عصره، فسن التعليم المجاني بأوسع معانيه، وكان يقوم زيادة على قيامه بنفقات

(١) عمّار الطالبي، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية: ٢٥٩/١ وما بعدها، رضا عبد الجليل الطيار، الدراسات اللغوية في الأندلس: ٣٠

(٢) ابن خلدون، المقدمة: ٤٤٩

(٣) ريبيرا خوليان، التربية الإسلامية في الأندلس: ٤٨

التعليم، بنفقة التلاميذ، ومؤونتهم وخيلهم وعددهم (١).

ويرى الأستاذ كريم عجيل أن الأجر الذي كان يتقاضاه المعلمون في هذه المرحلة كان ضئيلاً نوعاً ما متخذاً من ترجمة أبي بكر الصقلي المتوفى بعد (٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م).
دليلاً على أن المعلمين - وإن كان أجورهم غير محدد - إلا أنهم كانوا يرضون بما يعطيه آباء الصبيان من أجر، وما يقدمونه من هدايا عندما يجتاز أولادهم المرحلة الخاصة (٢).

وإذا ختم صبي القرآن فإن الأجر الذي يقدم للمعلم في هذه الحالة الحذقة، ويعرفها الزبيدي بأنها «ما يقدم للمؤدب حين يحذق صبيه تعليمه، ويقال لليوم الذي يختم فيه الصبي القرآن: هذا يوم حذاقة» (٣).

تعليم البنات في المكتب:

كان للبنات حظ من التعليم، وإن سكنت المصادر عن توضيح الكيفية التي تعلمن بها بشكل محدد، ولكن دراستنا لأراء الفقهاء الذين تكلموا في المجالات المتعلقة بالتعليم كابن سحنون والقاسبي، التي تبين أن من صلاح المتعلمين ومن حسن النظر ألا يخلط الذكران والابنات، تسمح بالقول بتعلم البنات في المكتب، وإن كان اختلاط الجنسين في التعليم من المسائل الشائكة التي واجهها العالم قديماً وما زال.

ولقد جعلت هذه الخشية من فساد البنات الكثيرين يعلمونهن على حدة، قال القاضي عياض: «وكان من سيرة عيسى بن مسكين في غير مدة قضائه: أنه كان إذا أصبح قرأ حزه من القرآن ثم يجلس للطلبة إلى العصر، فإذا كان العصر دعا ببناته وبنات أخيه يعلمهن القرآن والعلم» (٤).

ومن المؤكد أن الفتيات قد تلقين قسطاً وافراً من التعليم في المرحلة الأولى سواء عن طريق الآباء أو الأقارب أو في الكتاب وخاصة قبل البلوغ، ولذلك كان من الطبيعي أن تبرز إلى الوجود شاعرات نابغات، وعروضيات متمكنات، وأديبات يعترف بأدبهن

(٢) المنون، العلوم والآداب والفنون: ٣٣

(٣) كريم عجيل حسن، الحياة العلمية في مدينة بلنسية: ٢٢٩

(٤) الزبيدي، طبقات النحويين: ٢٧٨

(٥) السيد محمد أبو العزم، الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال افريقية حتى قيام دولة المرابطين: ٤٢٦ -

المؤرخون ورجال الأدب، وعلماء ينقل الرجال عنهم الروايات الصحاح. (١)

أما دورها كمعلمة في هذه المرحلة فالتصوص الواردة نادرة وقليلة ومنها مثلاً ما ورد عن ابنة حزم المعلم التي كانت تؤدب مع والدها وأخيها في دار واحدة.

وأخرى عرفت باسم غالبية بنت محمد - المعلمة الأندلسية على حد ما يسميها ابن بشكوال (٢).

الفصل الثالث: المرحلة المتوسطة في الأندلس:

علينا ان نوضح منذ البداية أن التسمية، وإن طابقت الكثير من النظم السائدة حالياً في الوطن العربي، إلا أنها لم تكن تحمل ذلك الاسم بين المسلمين في الأندلس لأنهم لم يلجأوا إلى نظام تقسيم المراحل على غرار ما هو متبع حالياً، لكن الصبيان بعد الانتهاء من مرحلة الكتاب كان عليهم الالتحاق بحلقات التعليم لبدء مرحلة جديدة في حياتهم التعليمية ربما لا تتوقف إلا بانتهاء الأجل، اللهم إلا إذا قطع طريق العلم شاغل العمل أو الانصراف إلى دروب الحياة المتعددة المناحي والتي تحول بين الناس وبين مواصلة تعليمهم.

أماكن التعليم في هذه المرحلة:

تنوعت أماكن الدراسة في هذه المرحلة تنوعاً كبيراً بحيث أصبح أي مكان يمكن أن يجلس فيه المعلم أو الشيخ إلى طلابه، ولقد احتل المسجد المكانة الرئيسية في هذه الفترة وإلى جواره ظهرت المدرسة ومنازل العلماء والمكتبات والرباطات وحوانيت الوراقين، حتى المزارع وحوانيت العامة شاركت بدورها كمكان للتعليم، وبما أن غرض البحث ليس التاريخ للمؤسسات التعليمية في الأندلس فإنني سأقتصر على الإشارة إلى أهمها باختصار. المسجد:

عندما أطل القرن الخامس الهجري على بلاد الأندلس، كان انتشار المساجد فيها عظيماً يصعب على الحصر، ويكفي ان نشير إلى أن مساجد العاصمة فقط قد وصلت في تقديرات بعض المؤرخين إلى عدة آلاف (٣). بينما جعل منها أقل تقدير أربعمئة وواحدة وتسعين مسجداً غير مساجد المقابر وهي كثيرة (٤).

(١) محمد المنتصر الريسوني، الشعر النسوي في الأندلس: ٦٩ وما بعدها

(٢) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ٢٦١ - ٢٦٢

(٣) السيد عبدالعزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية: ١٨٢/١ - ١٨٣.

(٤) أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي: ١٨٦ - ١٨٧.

ولم تخل قرية أو مدينة من المساجد التي شارك في بنائها الحكام والعلماء والأثرياء والتجار والعامة باعتبار بناء المساجد عملا من أعمال البر والتقرب إلى الله .

وعلى الرغم من شدة الظروف السياسية التي أحاطت بعصر ملوك الطوائف، إلا أن بناء المساجد لم يتوقف، ومثال ذلك ما قام به زهير العامري من إصلاح المسجد الجامع في المرية وتوسيعه^(١). وكذلك قيام السيدة أم المعتضد بن عباد ببناء مسجدها في إشبيلية الذي عين فيه الفقيه فرج بن جديدة للإقراء وأجرى عليه الراتب ونفقة من الأعباس^(٢).

ولقد أدت الظروف السياسية المحيطة بعصر الطوائف والمتمثلة في سقوط الكثير من المدن والقرى والحصون في أيدي النصارى أن كثرت الهجرة إلى المدن والقرى الإسلامية وزاد عمرانها مما أدى إلى زيادة بناء المساجد وانتشارها خلال هذه الحقبة .

وزاد الاهتمام بالمساجد على عصر المرابطين، فعمروا مساجد المدن التي سبق للنصارى تدميرها مثل مساجد مدينة بلنسية، وزاد في المساجد الجامعة الموجودة من قبل، وأمر ببناء جامع سبتة وزاد فيه وتولى ذلك القاضي محمد بن عيسى^(٣).

أما الاستقرار السياسي الذي عاشته الأندلس تحت ظلال الموحدين وطول مدته التي نيفت على قرن من الزمان فقد سمح للمساجد بالانتشار، فقد أمر الخليفة عبد المؤمن بن علي في عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م بإصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده^(٤). كما قام الخليفة أبو يعقوب يوسف ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م. ببناء جامع الموحدين في إشبيلية إلى جوار المسجد الجامع السابق المعروف باسم جامع ابن عديس^(٥). ولقد بلغ جامع الموحدين في إشبيلية حدا كبيرا من الاتساع والعظمة لا يضارعها إلا المسجد الجامع في مدينة قرطبة، وكانت منارته التي رفعها الأمير أبو يوسف يعقوب ٥٩٣ هـ / ١١٦٩ م. وزينها بأربع تفاحات من الذهب بعد انتصاره في معركة الأرك لم يكن «في بلاد الاسلام أعظم بناء منها»^(٦) وقد بقيت المنارة وبعض أجزاء المسجد حتى اليوم شاهدا على عظمة هذا المسجد الجامع^(٧).

(١) د. السيد عبدالعزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس: ٥٣٨ - ٥٣٩.

(٢) المراكشي، الذيل والتكملة: السفر الأول ٥٣٨/٢ - ٥٣٩.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٨/٤.

(٤) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب في روض القرطاس: ١٥٤.

(٥) عبدالعزيز سالم، في تاريخ وحضارة الاسلام في الأندلس: ١٧١.

(٦) شاك فون: الفن العربي في أسبانيا وصقلية: ٧٦.

(٧) المصدر نفسه: ١٧٢.

وشارك الأهالي باستمرار في بناء المساجد مشاركة فعالة، وتحفل كتب التراجم بأسماء من بنوا المساجد وجلسوا للتدريس فيها ومنهم - على سبيل المثال - أبو الحجاج يوسف بن محمد ابن عبدالله البلوي الذي عاش من ٥٢٧ - ٦٠٤ هـ / ١١٣٢ - ١٢٠٧ م. وهو صاحب كتاب «ألف - باء». وقد عرف بالورع والتصوف والزهد في الدنيا، ومن ذلك أنه «بنى ببلدة بالقة خمسة وعشرين مسجدا من صميم ماله، وعمل فيها بيته» (١).

وقام أمراء بني نصر بغرناطة بدورهم أيضا في بناء المساجد، وخاصة المسجد الجامع في قلعة الحمراء، الذي أصبح قاعدة علمية طيبة في مدينة غرناطة إلى جانب المسجد الجامع بغرناطة. ويصف لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه بأنه كان يتفقد المساجد تفقدا يكسو عاريها، ويتم منها المآرب تسميا يرضي باريها.

المدارس :-

يرى كثير من المؤرخين أن المدارس قد ظهرت في بلاد المغرب في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه في بلاد المشرق الاسلامي مع اختلاف بسيط من ناحية الشكل أو الهدف (٢). ويؤكد الدكتور عبد الهادي التازي أنه «بعد ثلاث سنوات فقط من تأسيس المدرسة النظامية في بغداد عرفت مدينة فاس مدارس احتضنت الطلبة المغتربين الذين يردون بقصد الدراسة من سائر البلاد، وحدد وجود مدرسة للمرابطين عام ٤٦٢ هـ / ١٠٩٦ م. بناها الأمير يوسف ابن تاشفين بعد دخوله المدينة في حوالي التاريخ المذكور، وأن طلاب هذه المدرسة قد قاوموا الموحدين مقاومة شديدة حتى قتلوا جميعا، ولذا سميت بمدرسة الصابرين، وأن أطلال هذه المدرسة ما زالت ماثلة إلى الآن» (٣). ويؤكد ذلك أيضا د. حسن علي حسن بقوله: «واجه ولاية الأمر بالمغرب الأقصى اهتمامهم إلى التعليم، ونشأ عن ذلك أن بنوا عدة مدارس في أجزاء متفرقة من البلاد، وذلك لتخريج المتعلمين، وكانت أولى المدارس التي أنشئت في عهد يوسف بن تاشفين تسمى مدرسة الصابرين» (٤).

وكذلك اهتم الموحدون ببناء المدارس، وأول من فعل ذلك هو الخليفة عبد المؤمن ابن علي حين بنى مدرسة ملحقة بقصره لتخريج الحفاظ، وقام المنصور الموحدي ببناء عدة

(١) رشيد رضا الطيار، الدراسات اللغوية في الأندلس: ٥٧.

(٢) سعيد إسماعيل علي، معاهد التربية الإسلامية: ٣٧٩.

(٣) عبد الهادي التازي، مسجد القرويين: ١٢١/٢، محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ٢٧٧.

(٤) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ٤٠٠ - ٤٠١.

مدارس في أنحاء متفرقة من البلاد يقول عنها ابن أبي زرع: «وبني - أي المنصور - المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس» (١).

ولعب بنو مرين دوراً أساسياً في نشر المدارس والاهتمام بها في جميع أنحاء المغرب وكانوا أكثر نشاطاً وأوفى همّة في ذلك المجال (٢).

وشارك الأهالي الحكام في بناء المدارس، كما شاركوا في بناء المساجد، فترى أن علي ابن محمد بن علي بن يحيى بن عبد الله الغافقي - كان رجلاً جماعة للكتب، منافساً فيها، مغالياً في أثمانها وربما أعمل الرحلة في التماسها، حتى اقتنى منها بالابتياح والانتساخ كل علق نفيس ثم انتقى منها جملة وافرة فحبسها في مدرسته التي أحدثها بقرب باب القصير، أحد أبواب بحر سبتة، وعين لها من خيار أملاكه، وجيد رباعه وقفا صالحا، سالكا في ذلك طريقة أهل الشرق، وقعد بها بعد اكملها لتروية الحديث وإسماعه في رجب من عام خمس وثلاثين وستمائة (١٢٣٧ م) (٣).

وليس من المعقول أن تقف بلاد الأندلس بمعزل عن ذلك التطور الهام في مجال الحركة التعليمية رغم تأكيد ابن سعيد أن «ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة» (٤). حيث نجد بعض الإشارات الدالة على ظهور المدارس في الأندلس في فترة باكرة ومنها قول ابن فرحون المتوفى ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م عند حديثه عن أبي علي الصدي المتوفى ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م: «ثم عاد إلى الأندلس - وذلك عام ٤٩٠ هـ. ١٠٩٦ م - واستقر بمدرسة مرسية، ورحل إليه الناس» (٥)، كذلك رواية ابن أبي زرع عن السلطان الموحيدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م، فقد ذكر أنه: «حصن البلاد، وضبط الثغور وبني المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس» (٦). كما بدأت كلمة مدرسة تظهر ضمن أشعار الأندلسيين خلال القرن السابع وخاصة في رثاء المدن واستصراخ الهمم لإنقاذها، ومن ذلك قول ابن الأبار في

(١) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ٤٠١. (نقلا عن ابن أبي زرع، الأنيس المطرب في روض القرطاس: ١٥٧).

(٢) سعيد اسماعيل علي، معاهد التربية الإسلامية: ٣٨١.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة: ١٨٨/٤.

(٤) المقرئ، نفع الطيب: ٢٢٠/١.

(٥) ابن فرحون، الدياج المذهب: ١٠٥.

(٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب في روض القرطاس: ٢١٧.

قصيدته المشهورة التي مطلعها:

أدرُكْ بخيلك خيل الله أندلسا إن الطريق إلى منجاتها درسا
يقول :

يا للمساجدِ عادت للعدا يعا وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها مدارس للشان أصبحت درسا (١)
ويقول شاعر آخر لم يسمه المقري :-

بأبي مدارس كالطلول دوارس نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كسف الضلال صباحها فيخاله السرائي إليه مساءها (٢)

ثم بدأت الأمور تتضح بالنسبة لمدارس الأندلس في القرن السابع حيث ظهرت المدارس المؤكدة ومنها :-

مدرسة مرسية : وهي مدرسة أقامها الأمير المسيحي الفونسو العاشر بعد استيلائه على المدينة عام ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م للعالم المسلم الشهير محمد بن أحمد الرقوتي المرسى ، لكي يعلم فيها أبناء الديانات الثلاث ثم أغلقت هذه المدرسة بانتقال الفقيه المسلم إلى غرناطة قبل نهاية القرن السابع (٣) .

مدرسة غرناطة الأولى :-

أقام هذه المدرسة السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) . للفقيه محمد بن أحمد الرقوتي بعد أن استقدمه من مرسية وأسكنه في أعدل البقع بحضرته . وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له ، فيتعلمون عليه الطب والتعاليم وغيرها ، إذ كان لا يجارى في ذلك ، وكان قوي المعارضة ، مضطلعا بالجدل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابي حضرته ممن يقدم متحلا صناعة أو علما ، فيظهر عليهم لتمكنه ونبالته (٤) .

(١) المقري . نفع الطيب : ٤٥٧/٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٨٠/٤ .

(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة : ٦٧/٣ - ٦٨ . المقري ، نفع الطيب : ١٣٠/٤ .

(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة : ٦٨/٣ .

مدرسة مالقة :

من المحتمل أن تكون مالقة قد شهدت أكثر من مدرسة (١). ولكن الوثائق تشير إلى مدرسة صوفية أنشأها الفقيه محمد بن محمد بن عبدالرحمن الأنصاري المعروف بأبي عبدالله الساحلي ٦٧٨ - ٧٥٤ هـ / ١٢٧٩ - ١٣٥٣ م حيث بناها من مال أعطاه إياه بعض الأغنياء من وزراء الدول بالمغرب وأقامها في الجانب الغربي من المسجد الأعظم وأوقف عليها الرباع، وابتنى غيرها من المساجد (٢) بوترى الدكتور ماريا خيسوس ريبيرا، أنه ربما كانت هذه المدرسة هي أول مكان في الأندلس يمارس فيه التعليم بعيدا عن المسجد (٣).

المدرسة النصرية بغرناطة :

أشهر مدارس الأندلس والمغرب عامة بناها السلطان الغرناطي أبو الحجاج يوسف الأول عام (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م)، وأشرف على بنائها الحاجب رضوان النصري المعظم، واجمع المؤرخون على مكانتها وعظمتها التي غطت على ما كان قبلها، وما زالت بعض أجزاء هذه المدرسة بنقوشها الإسلامية الرائعة باقية في مدينة غرناطة حتى يومنا هذا بجوار الكاتدرائية الكبرى (٤).

ومن الحقائق المعروفة أن العلم يمارس أينما يوجد العالم والمتعلم، ولذلك لم يقتصر الأمر على هاتين المؤسستين الرئيسيتين بل تعداهما إلى أماكن أخرى كثيرة كالديكاكين والأسواق والمراصد والمستشفيات والربط وسكك الرحلة بين المدن والفنادق (٥).

تمويل المؤسسات التعليمية :-

انقسم تمويل المؤسسات التعليمية إلى قسمين أحدهما كان على كاهل الدولة ويمثل في بناء المساجد الجامعة والانفاق عليها، فمن ذلك مثلا قيام عبد المؤمن بن علي، الخليفة الموحد عام (٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م). بإصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاد (٦).

(١) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس : ٣٨٧.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة : ١٩١/٣ - ١٩٣.

(٣) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس : ٣٨٨.

(٤) عن المدرسة والحاجب رضوان كتب المصادر التالية :

ابن الخطيب، الإحاطة : ١ / ٥٠٦ - ٥١٢.

محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس : ٣٩٠ وما بعدها.

محمد كمال شبانة، يوسف الأول : ٩٨.

(٥) كريم عجيل حسن، الحياة العلمية في مدينة بلنسية : ٤٠٣.

(٦) ابن أبي زرع، الانيس المطرب في روض الفطرطرس : ١٥٤.

وكان الاتفاق على هذه المساجد العامة إما من بيت مال المسلمين مباشرة، أو من الأحباس التي خصصتها الدولة لهذه الناحية.

ولقد كثرت هذه الأحباس جداً اعتباراً من القرن الخامس حيث أصبحت تتطلب إدارة خاصة عرف صاحبها بصاحب الأحباس^(١)، وفي مملكة غرناطة زادت الأحباس على المساجد زيادة كبيرة أشار إليها ابن الخطيب على أساس أنها تمثل مصدراً هاماً من مصادر الدخل في مملكة غرناطة^(٢).

أما مساجد الأهالي فلقد تولى أصحابها الاتفاق عليها، كما وجد الكثيرون ممن حبس داره أو أرضه على مسجد معين للاتفاق عليه كما فعل البلوي^(٣).

أما المدارس فلقد تولتها الدولة، وخصصت لها الأوقاف المناسبة، فحينما بنى رضوان النصرى مدرسة غرناطة لسلطانه أبي الحجاج يوسف الأول «سبب إليها الفوائد، ووقف عليها الرباع المغلة، وجلب الماء الكثير إليها من النهر»^(٤).

أعمار الطلاب في هذه المرحلة:

يبدأ الطلاب الدراسة في هذه المرحلة فور الانتهاء من الدراسة في الكتاب، ومن الصعب تحديد سنة معينة كبداية للالتحاق بهذه المرحلة. فابن مريوال (٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م)، بدأ بالسماع وعمره إحدى عشرة سنة^(٥)، وابن حزم بدأ هذه المرحلة بعد الخامسة عشرة تقريباً^(٦).

المنهج الدراسي:

لم يكن المنهج الدراسي في هذه المرحلة محدداً مثلما كان عليه الأمر في المرحلة الأولى، بل تميزت هذه المرحلة بإتاحة الفرصة أمام الدارسين لكي ينهلوا من عدد واسع من العلوم. وتبين لنا دراسة كتب التراجم والفهارس والبرامج أن المواد التعليمية التي كانت في متناول يد الدارسين قد تباينت واتسعت لتشمل كل مناحي الحياة التعليمية، وأن بعض المربين وضع منهاجاً أولياً يجب أن يسير عليه الطلاب بعد انتهائهم من الكتاب، فيرى أبو بكر بن

(١) ابن بشكوان، الصلة: ٥٧٩/٢

(٢) ابن الخطيب، الاحاطة: ١٣٢/١ - ١٣٣

(٣) رضا عبد الجليل الطبار، الدراسات اللغوية في الأندلس: ٥٧

(٤) ابن الخطيب، الاحاطة: ٥٠٧/١

(٥) ابن بشكوان، الصلة: ٣٨/١ - ٣٩

(٦) أحمد هبكل، الأدب الأندلسي: ٣٥٣

العربي أن الخطوة التالية لدراسة القرآن النظر في أصول الدين، ومعرفة أدلة العقائد، والاحتجاج لها ثم النظر في أصول الفقه ثم الجدل ثم يختم بدراسة الحديث وعلومه ومنهجها، ويحدثنا ابن خلدون شارحاً ذلك بقوله: ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه (١).

ولم تخل طريقة ابن العربي من دراسة العلوم إذ أنه أوصى بتعليم أصول الطب وأوصى أيضاً بتعليم تعبیر الرؤيا، ومعرفة الأنساب. وينقل لنا عمار الطالبي آراء أبي بكر بن العربي على الوجه التالي: «والذي يجب على الولي في الصبي المسلم إذا عقل، أن يلقنه الايمان، ويعلمه الكتابة، والحساب، ويحفظه اشعار العرب العاربة، ويعلمه العوامل في الاعراب، وشئاً في التصريف، ثم يحفظه إذا استقل واشتد في العشر الثاني كتاب الله، وهو أمر وسط، متساو بين أهل المشرق، ثم يحفظ أصول سنن الرسول، وهو نحو من ألفي حديث في الأبواب نظمها البخاري ومسلم هي عماد الدين، وبأخذ هو بعد ذلك نفسه بعلوم القرآن ومعاني كلماته... ولا يفرط في علوم الفرائض فإنها أصل الدين، وأول ما يذهب من المسلمين، فبالسنة يفرضها وبالحساب يقسمها. ولا يخلي نفسه من الأنساب، ولا عن شيء من أصول الطب وليتخذ عبارة الرؤيا أصلاً» (٢).

لكن الظروف السياسية تتدخل لتؤدي دورها في تغيير المنهج الدراسي، وما يجب أن يقدم للطلاب خلال هذه المرحلة، ففي شرقي الأندلس كان اهتمام مجاهد العامري بالقراءات القرآنية، إذ كان هو من أمتها، وبما كان له من العناية بباقي العلوم والقراءات خصوصاً، فظهر لعنه أبو عمرو الداني وبلغ الغاية فيها وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها، واعتمدوا من بينها كتاب «التيسير» له. ثم ظهر من بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم ابن فيرة من أهل شاطبة، فعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمر وتلخيصه، فظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف (أ ب ج د) ترتيباً أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار، وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها، فاستوعب فيها الفن استيعاباً حسناً، وعني الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس (٣).

ويوافق المقرئ على ما ذهب إليه ابن خلدون من تدهور المستوى التعليمي ومن ثم

(١) ابن خلدون، المقدمة: ٤٤٩

(٢) عمار الطالبي، آراء أبي بكر بن العربي الكلاسيكية: ٢٣٥/١

(٣) ابن خلدون، المقدمة: ٣٤٦-٣٤٧

ضعف المنهج التعليمي الذي يدرسه انطلاب فيقول:

«ولقد كان أهل المائة السادسة وصدر السابعة لا يسرغون الفتوى من تبصرة الشيخ أبي الحسن اللخمي لكونه لم يصحح على مؤلفه ولم يأخذ عنه، وأكثر ما يعتمد اليوم ما كان من هذا النمط. ثم انضاف إلى ذلك عدم الاعتبار بالناقلين فصار يؤخذ من كتب المسخوطين كما يؤخذ من كتب المرضيين» (١).

وأدخل المرابطون تغيراً كبيراً على المنهج التعليمي بإيثارهم علم الفروع أي فروع المذهب المالكي، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبت ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله (ﷺ)، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء (٢).

لذلك كان المذهب المالكي وكتبه هو محور الدراسة في المساجد في العهد المرابطي. بجانب العلوم الدينية الأخرى، ففي التفسير كان تفسير الطبري لا شهاده هناك، وفي الحديث موطأ مالك بن أنس، وصحيح مسلم، وشرح أبي الفضل عياض اليحصي، صاحب الشفاء. أما في الفقه والأصول فكانت كتب المذهب المالكي، وكتب أبي الوليد الباجي.

أما النحو واللغة فالمعول منه على كتاب سيويه والايضاح للفراسي وفي اللغة فالمعتمد منها المخصص والمحكم لابن سيده وغير ذلك من الكتب (٣).

كما أنهم ناهضوا علم الكلام والدراسات الفلسفية والمنطقية أو أية دراسات قريبة منها. حتى رسخ في نفوسهم بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبت الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب أمر أمير المؤمنين بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال، إلى من وجد عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك (٤).

(١) المقرئ، نفع الطيب: ٢٧٦/٥

(٢) المراكشي، المعجب: ٢٥٤، ومحمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين.

(٣) المراكشي، المعجب: ٢٥٥

(٤) المصنوع نفسه: ٢٥٥.

وثار الموحدون على المرابطين وتمكنوا من إسقاط دولتهم والسيطرة بدلا منهم على بلاد المغرب والأندلس، وكان لذلك أثره الكبير في المناهج التعليمية، فلم تكن ثورة الموحدين ثورة دينية فحسب بل كانت مع ذلك ثورة فكرية دينية، ومن ثم أخذوا الطلاب والمعلمين بأرائهم التعليمية التي أصبحت تعليما إجباريا على كل من انضوى تحت راية الموحدين من الرجال والنساء والأحرار والعبيد، حتى الذين لا يفهمون اللسان العربي، رخص لهم الدراسة باللسان البربري، بحيث يقرأهم عقيدة ابن تومرت البربرية - التوحيد - أما الذين يفهمون العربية، فكان لزاما عليهم أن يقرأوا عقيدة ابن تومرت المرشدة، وأكد على الجميع في حفظ ذلك وتدبره، وملازمة قراءته وتعهدده.

ويلحق بكتابي المهدي المقررين مجموع أحاديث الجهاد الذي أمر يوسف العلماء بتدوينه ليملي على الموحدين ليدرسوه، فكان يمليه على الناس بنفسه، وكان كل واحد من الموحدين والسادة يجيء بلوح يكتب فيه الاملاء.

وكذلك مجموع أحاديث الصلاة. وما يتعلق بها مما جمعه بأمر يعقوب طائفة من العلماء. وكان يمليه بنفسه على الناس ويأمرهم بحفظه ويجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسا والأموال (١).

وترتب على موقف الموحدين إحداث تغيير شديد في الدراسات الدينية وخاصة في الفقه والأصول، فتعصبوا ضد المذهب المالكي وحاربوا علم الفروع، وينصف المراكشي ذلك التغير عند حديثه عن أبي يوسف يعقوب (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م): «وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يخرجوا منها ما فيها من حديث رسول الله (ﷺ) والقرآن الكريم، ففعل ذلك - فأحرق منها - جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبرادعي. وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها، ولقد شهدت منها، وأنا يومئذ بمدينة فاس فيؤق منها بالأحمال فتوضع، وتطلق فيها النار، وتقدم إلى الناس في ترك الاشغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة» (٢).

وعلى العكس مما كان عليه الأمر على عهد المرابطين من محاربة علم الكلام ومناهضة الفلسفة نجد أن الموحدين يتيحون الفرصة في بعض الأحيان للدراسات الفلسفية، وظهر

(١) المتون، العلوم والآداب والفنون: ٣٧ - ٣٨ نقلا عن المراكشي، المعجب: ٤٠١

(٢) المراكشي، المعجب: ٤٠٠

على عصرهم من كبار فلاسفة الاسلام ابن طفيل وابن رشد، وكان بعض الأمراء الموحدين من المتصلين في هذه العلوم، وان كان ذلك لم يستمر ضويلاً فنكب ابن رشد، وكتب أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب «بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة - أي الفلسفة - وبإحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة الليل والنهار، وأخذ سمت القبلة، فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد وعمل بمقتضاها» (١). وجعل أمر القضاء على هذه الكتب إلى أبي بكر بن زهر الحفيد ضيب الخليفة المنصور الذي تمثل أمر الخليفة في جمع الكتب من عند المكتبيين وغيرهم، وان لا يبقى شيء منها، وإهانة المشتغلين بها (٢).

أما على عهد الأسرة النصرية في مملكة غرناطة فلقد عادت الدراسات إلى ما كانت عليه في القرن الخامس، حيث لم يكن للدولة اتجاه معين سوى العودة بالناس إلى ما كان عليه أهل الأندلس، دوماً من الاهتمام بالمذهب المالكي. مما أنهى ما كان يعانيه الفقهاء المالكية من ضعف للنموذ على عهد الموحدين. وتميز العصر بالاهتمام بالدراسات النظرية فازدهرت الدراسات اللغوية والأدبية ازدهاراً عظيماً، لكن الدراسات العقلية كالطب والفلسفة تناقص الاهتمام بها إلى أن كادت أن تنقرض، ومما يرويه أبو حيان الغرناطي أن مما قوى عزمه على الرحلة عن غرناطة أن بعض العلماء بالمنطق والفلسفة، والرياضي والطبيعي، قال للسلطان: «إني قد كبرت وأخاف أن أموت، فأرى أن ترتب لي طلبه أعلمهم هذه العلوم لينفعوا السلطان من بعدي، قال أبو حيان: فأشير إلي أن أكون من أولئك، ويرتب لي راتب جيد وكسا واحسان، فتمنعت ورحلت مخافة أن أكره على ذلك» (٣).

المعلمون:

كان المعلمون في هذه الحقبة ممن يتمتعون بمستوى علمي متميز، حيث لم يتصدر للتدريس في هذه الحلقات العلمية التي كانت تعقد في المساجد أو المدارس إلا من كان متمكناً في مادته ملماً بما يدور في فلكها من مواد وعلى علم عام بعلوم العصر.

ولقد اختلفت مكانتهم باختلاف أماكن تدريسهم، فلم يكن يسمح بالجلوس في المساجد الجامعة أو المدارس إلا لكبار العلماء والمدرسين.

(١) المراكشي، المعجب: ٤٣٧

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٥٢٣

(٣) أحمد سليم الحمصي: ابن زمرق الغرناطي: ٧٢-٧٣، عن بنية الوعاة للسيوطي: ٢٨١/١.

كما أن التدريس في تلك المرحلة قد عرف التخصص، فكان هناك في كل عصر شيوخ ومعلمون للغة العربية والآداب، وهناك شيوخ ومعلمو القراءات وهناك معلمو الحساب والهندسة، ومعلمو الطب والفلك... الخ.

ولقد منح هؤلاء المعلمون القابا توحى بدرجة تعمقهم في علمهم، فمثلا يقال «كان له حظ» أو «عنده اهتمام ب...» أو «له مشاركة في أشياء من العلم...». ويقال عن معلمين آخرين بأنهم «أفهم الناس...» أو «كان في حفظه آية من آيات الله» أو «كان بحرا من بحور العلم» أو «فقيه».

ولعل لقب الفقيه كان أسمى الألقاب، ولم يكن هينا أن يطلق على أحد، فالشيخ محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى (٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م) كان لا يرى أن يسمى طالب العلم فقيها حتى يكتهل، ويكمل سنه ويقوى نظره، ويرع في حفظ الرأي، ورواية الحديث ويتميز فيه، ويعرف طبقات رجاله، ويحكم عقد الوثائق، ويعرف عللها، ويطالع الاختلاف، ويعرف مذاهب العلماء والتفسير، ومعاني القرآن، فحينئذ يستحق أن يسمى فقيهاً (١).

أما من الناحية الاجتماعية، فلقد تمتع هؤلاء بمستوى طيب سواء بين الناس أو بين الحكام، وساعدهم علمهم على الانتساب إلى طبقة اجتماعية متميزة هي طبقة الفقهاء التي احتلت مكانة طيبة بين أفراد المجتمع.

وليس معنى هذا عدم تعرضهم للنقد بل إنهم يتعرضون لذلك عند الخطأ في مجالس التعليم أو ظهور الضعف في المستوى العلمي، وكذلك الأمر بالنسبة لمن لم تكن أساليبه التدريسية جيدة، فلقد اتهم ابن الفرضي كلا من محمد بن يوسف بن مطروح والفقيه محمد ابن عيسى بن رفاعة الخولاني المعروف بالقلاس بالكذب (٢).

كما تعرض كل من علي بن محمد بن علي بن خروف، وأحمد بن عبد الله بن اطرز للنقد بسبب طرائقهما في التدريس (٣).

الموقف التعليمي في هذه المرحلة :-

كانت الخطايات التي تقام إلى جوار عمود معين من أعمدة المسجد أو في ركن من

(١) ابن فرحون، الديباج المذهب: ٢٥٣

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس: ٨٠/١، ٣٠٦.

(٣) ابن بشكوال، الصلة ٧٨/١، عبد الجليل الطيار، الدراسات اللغوية في الأندلس: ٣٢ - ٣٣.

المدرسة هي المظهر العام للتعليم في الأندلس، وعرفت هذه الحلقات باسم المعلم الذي كان يدرس فيها خاصة إذا ما استمر مدة طويلة، وكان يشغل الحلقة من بعده ابنه أو أحد طلابه النبهاء.

وكان من العادة أن يكون في الحلقة معيد أو قارئ يقوم بشرح ما غمض من كلام الأستاذ، أو يتولى قراءة النص الذي سيتولى الشيخ شرحه وتفسيره، كما يعهد إليه بحفظ النظام في الحلقة وخاصة أثناء غياب الشيخ أو قبل حضوره، وكان للحلقات نظمها وقواعدها الأخلاقية التي يلتزم بها الطلاب التزاما أدبيا كاملا (١).

ولم يكن هناك وقت محدد لانعقاد هذه الحلقات أو انفضاضها حيث ارتبط ذلك بالشيخ في المقام الأول، ومدى تفرغه للتدريس، وغالبا ما يكون الصباح هو أكثر الأوقات ملائمة للتدريس، كما أن بغض المعلمين كان يجعل وقت إقرائه بعد صلاة العصر وحتى صلاة المغرب، ولقد أعطى ذلك الفرصة للطلاب للانتقال من معلم إلى معلم آخر والدراسة في أكثر من مجال في اليوم نفسه.

وكان الإقراء هو أشهر طرق التعليم في هذه المرحلة، ويتلخص في أن يمسك المعلم كتابا يقرأ منه، وينسخ الطلاب نسخهم. أو أن يقرأ أحد الطلاب في حضرة الأستاذ ويقوم الآخرون بالكتابة في الوقت الذي يتولى الأستاذ التصحيح وتعليم النطق السليم للكلمات، والمواضع الصحيحة للوقف والابتداء.

والاملاء أسلوب آخر من الأساليب المستخدمة في الحلقة التعليمية حيث يملئ المعلم من الذاكرة ما يعرفه من علوم ويكتبها عنه طلبته.

واستخدمت المحاوراة والمناظرة، وهي طريقة تبدأ بالقاء مسألة إما أن يطرحها الطالب أو المعلم نفسه، ثم يبدأ الأستاذ في بيان وجوه هذه المسألة، ويشرحها شرحا مستفيضا معتمدا على الحقائق العلمية التي يلم بها (٢).

الإجازة:

تنتهي الدراسة في هذه المرحلة بالحصول على الإجازة من الشيخ المعلم سواء في المادة أو في كتاب معين أو عدد من الكتب، ولقد كان الهدف من إعطاء الإجازة للطلاب هو

(١) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ٣٥٤ - ٣٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ٣٤٧ وما بعدها.

الحرص على ضبط الرواية وضمان نشر الحقائق العلمية سليمة غير مشوهة (١)، وهي ضمان بعلم الطالب وقدرته على رواية هذا العلم، وهي أنواع: اجازة شفوية أو اجازة تحريرية يبين فيها الشيخ ما يجيزه للطالب أو أن يجيزه باطلاق. وهناك اجازات سماع جماعية تعطى لمجموعة من الدارسين عند سماعهم كتاباً معيناً.

ومع تطور السنوات في الأندلس، ولما كانت تمر به البلاد من ظروف غير طبيعية نجد أن الاجازة قد تحولت لتصبح مجرد شهادة باللقاء أو السماع، دون أن تعني إطلاقاً مدى تعمق حامل الشهادة أو معرفته بما حدد له فيها، حتى لقد أعطيت للأصدقاء والمعارف ولجميع المسلمين من أهل السنة، ممن هو موجود في هذه السنة، أو لكل من أحب أن يحمل عن الشيخ من طلاب العلم المسلمين، كما أصبحت الإجازة شيئاً فخرياً قد يمنح للصبيان أو لغيرهم وإن ظل معناها ثابتاً بالنسبة لطلاب العلم الحقيقيين (٢).

النساء في هذه المرحلة:

يتضح أسلوب تعلم النساء في هذه المرحلة بصورة أوضح منه من مرحلة الكتاب حيث نتبين من دراسة التراجم وجود معلمين تخصصوا في تعليم البنات، ونتبين من ترجمة سعيد بن عثمان المقرئ المتوفى ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م الطريقة التي كانت تتعلم بها الفتيات على يد معلميهن، فيقال عنه «أقرأ بالمرية مدة، وكانت ربحانة تقرأ عليه القرآن بها، كانت تقعد خلف ستر فتقرأ، ويشير لها بقضيب بيده إلى المواقف، فأكملت السبع عليه، وطالته بالإجازة، فامتنع، ولكنه كتبها لها فيما بعد» (٣).

ويقال عن الشيخ محمد بن علي بن أحمد الفخار، المتوفى ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م أنه «استوطن مالقة، وتصدر للإقراء بها، فكان يدرس من صلاة الصبح إلى الزوال، ويقرأ القرآن، ويفتي النساء بالمسجد إلى ما بعد صلاة العصر» (٤).

وثابر محمد بن حمد بن أبي القاسم الأنصاري على الاكتاب، وتأديب النساء (٥). ولقد لعب الآباء الدور الأكبر في تعليم البنات في هذه المرحلة فقام القاضي أبو محمد بن

(١) كريم عجيل حسن، الحياة العلمية في مدينة بلنسية: ٣٤٥.

(٢) ريبيرا خوليان، التربية الاسلامية في الأندلس: ١٥٢ - ١٥٣.

(٣) الضبي، بغية الملتبس: ٤١٢.

(٤) السيوطي، بغية الوعاة: ١/ ١٨٧.

(٥) المراكشي، الذيل والتكملة: مج ٥ في ٢ ص ٥٨٩.

عبدالحق بن عطية بتعليم ابنته حتى صارت من أهل العلم والفهم والعقل (١).

كما تعلمت النساء على الأكفياء من الرجال مثل نزهون بنت القلاعي التي قرأت على المخزومي الأعمى (٢).

كما قامت النساء بتعليم النساء، فكانت ولادة بنت المستكفي بالله هي معلمة مهجة بنت التياي القرطبية (٣)، ومريم بنت أبي يعقوب الأنصاري أديبة شاعرة، وكانت تعلم النساء الأدب (٤)، كما أن المرأة في الأندلس قد نقلت علمها أيضا إلى الرجال، فرووا عنهن وقرأوا عليهن، حيث يقول سليمان بن نجاح عن إشراق السويدية العروضية المتوفاة بدانية ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م: «أخذت عنها العروض، وقرأت عليها النوادر لأبي علي القالي والكامل للمبرد، وكانت تحفظ الكتاين ظاهرا وتكلم عنهما» (٥).

ولذلك انتشر التعليم كثيرا بين النساء في الأندلس، وبرز منهن الأديبات والشاعرات والطيبات والعروضيات، والنحويات، واحتلن مكانة طيبة في كتب التراجم والأدب (٦).

المرتبات:

سبق أن تبينا أن المعلمين في الأندلس قد قبلوا الأجر على التعليم منذ عهد باكر، ولم يقفوا عند هذه المسألة طويلا لأن المؤدب كان يرى أن التعليم وسيلة من وسائل العيش ولا يكفيه الاعتماد على بدوات الكرام، أو تقلبات الظروف (٧) لذلك كان كثير من العلماء يحصل على مورد رزقه من التعليم، ولم يكن لبعضهم مورد آخر غيره، واختلف دخلهم حسب مكانتهم، وحسب عادة تخصصهم، فالشيخ أبو علي الشلوين المتوفى ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م قال عنه ابن عبد الملك المراكشي: «وذكر لي غير واحد ممن لقينته، أنه كان يبلغ أحيانا مستفاده من الطلبة أربعة آلاف درهم في الشهر الواحد» (٨). أما أبو الربيع الإشبيلي المتوفى

(١) المقرئ، نفح الطيب: ٢٩٢/٤.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة: ٣٤٤/٣.

(٣) ابن سعيد، المغرب في حل المغرب: ١٤٣/١.

(٤) المقرئ، نفح الطيب: ٢٩١/٤.

(٥) السيوطي، بغية الوعاة: ٤٥٨/١.

(٦) المقرئ، نفح الطيب: ٢٨٣/٤ وما بعدها، ومحمد المتصر (الريوني)، الشعر النسوي في الأندلس.

(٧) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة): ٢٥.

(٨) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الخامس): ٤٦٣/٢.

٦٨٨ هـ. فقد كان يحصل على ما يكفيه من صغار الطلبة الذين يرسلهم إليه شيخه الشوليين فإنه كان لا شيء له (١).

وهناك طائفة أخرى من المعلمين تلقت أجرها من الحكام فيما عرف بنظام الجراية، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ومنها أن يحيى بن بقي أبابكر المعروف بالسلاوي أقام بمرسية أعواماً يعظ الناس ولم يكن يأخذ شيئاً من أحد، وكان الأمير بمرسية محمد بن سعد قد جعل له مرتباً (٢)، كما أجرى المعتمد بن عباد راتباً للفقهاء فرج بن جديدة البطلوسي المتوفى ٤٨٠ هـ (٣). وأجرى الأمير يوسف بن عبد المؤمن المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم (٤)، والشيخ محمد بن محمد النمري توفي بغرناطة عام ٧٣٦ هـ تحت جزاية من أمرائها (٥). والشيخ محمد بن محمد العبدري كان يسكن سبتة، ثم انتقل إلى غرناطة، وجرت عليه جزاية من أحباسها، ووقع له قبول من ناسها (٦).

الفصل الرابع : المرحلة التعليمية الثالثة :

هي مرحلة الانطلاق في مجال التعليم على كبار الشيوخ والفقهاء، وتتميز بأنها لا يقيدتها حدود مكان أو زمان أو مستوى تعليمي معين، وليس لها نقطة توقف أو انتهاء، بل إقبال مستمر على العلم والتعليم حتى يصبح المتعلم من كبار الشيوخ والفقهاء والمعلمين المبرزين في مجال تخصصهم، وأهم أماكن الدراسة فيها هي المساجد والمدارس، ومنازل العلماء، ومجالس الخلفاء والأمراء، كما أنها تتميز عن غيرها بطول المدة وكثرة الرحلة والحصول على الإجازة، وتشبه إلى حد كبير الحلقة التعليمية الثالثة في عصرنا الحاضر وهي مرحلة الدراسات العليا، والحلقة التعليمية أو المجالس العلمية هي سمتها الأساسية في أي مكان من أماكن تدريسها.

الطلاب :

كان طلاب هذه المرحلة من المتقدمين في السن نسبياً، إذ أنهم إنما واصلوا الدراسة والاستماع إلى الشيوخ والعلماء حبا في العلم ورغبة في الاستمرارية وأملًا في الحصول على

(١) السيوطي، بغية الرعاة: ١٢٥/٢.

(٢) الضبي، بغية المنتسب: ٤٩٨.

(٣) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الخامس): ٥٣٨/٢.

(٤) ابن أبي زرع، روض القرطاس: ٢١٧.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة: ٣١/٣ - ٣٣.

(٦) المصدر نفسه: ٢٨ - ٢٧/٣.

مرتبة العلماء المعروفين، ولذلك كانوا جميعاً من أهل العلم والمعرفة ومن سبقهم حضور مجالس العلماء والشيخ والمؤدين في المساجد والمدارس أو غيرها من دور العلم المتاحة في ذلك الوقت، ونستطيع أن نتبين مستوى الطلاب العلمي ونوعيتهم من إلقاء نظرة على بعض تراجم علماء هذه المرحلة، فيقال عن الأديب الراوية أبي عبد الله محمد بن سليمان النفري المعروف «بابن أخت غانم» أن: أصله من مالقة، وبها سكنه، ولكنه لازم قرطبة كثيراً وكان شيخاً مسناً من شيوخ أهل الأدب والنحو والرواية وجمع الكتب. أخذ عنه الناس هذين العلمين كثيراً ودرسهما عمره بغير أجر. وسمع منه كتب الحديث والغريب وحمل عنه جملة من المشايخ والنبلاء، لعلو سنده ومعرفته (١). وإذا كان الطلاب عند هذا العالم هم من المشايخ والنبلاء فإننا نجدهم عند عباس بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدي المتوفى ٨٦٥ هـ / ١٤٦٠ م من نبهاء مدينة قرطبة (٢)، أما الإمام محمد بن محمد الأنصاري السرقسطي الذي كان من أحفظ الناس لمذهب مالك فقد حضر عليه عدد كبير من جلة العلماء منهم ابن الأزرق (٣).

شيوخ هذه المرحلة :-

كان علماء هذه المرحلة ممن يشار إليهم بالبنان علماً وخلقاً ومكانة في فئهم، وكان الحكام وجمهور الناس يحرصون على أن لا يحتل مقعد التدريس في مساجد الجامعة والمدارس إلا من انتهت إليه المهارة في العلم والدين في وقته، وكانت تلك مرتبة تهفو إليها نفوس هؤلاء القوم فلم يدخروا وسعاً في الارتقاء بمعارفهم وعلومهم إلى درجة حملت الناس - على اختلاف طبقاتهم - على احترامهم احتراماً مهيئاً. وإلقاء نظرة على تراجم هؤلاء العلماء تعطينا فكرة واضحة عن مستواهم العلمي، وإلى القارئ الكريم بعض الترجمات من عصور مختلفة :

أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا، المعروف بالإفليلي، من أهل قرطبة المتوفى ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م: كان من أئمة النحو واللغة، وله معرفة بالكلام على معاني الشعر، وشرح ديوان المتنبي شرحاً جيداً، وهو مشهور، وكان متصدراً بالأندلس لإقراء الأدب، وكان حافظاً للأشعار، ذاكرة للأخبار، وأيام الناس (٤).

(١) القاضي عياض، الغنية وفهرست شيوخ القاضي... ١٢٧.

(٢) المراكشي، الذيل والتكملة، (السفر الخامس): ٤٨٦/٢ - ٤٨٧.

(٣) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك: ١٤/١.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣٣/١ - ٣٤.

أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي المتوفى ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م .
«فقيه محدث مشهور ، أديب . نحوي ، شاعر ألف في التفسير كتاباً ضخماً أربى فيه على كل متقدم (١) . أما أبو علي عمر بن محمد بن عبد الله الأزدي المعروف بالشلوبين المتوفى ٦٤٠ هـ فقد كان أسند من بقي في المغرب ، وكان في العربية بحراً لا يجارى ، وحبراً لا يبارى ، تصدر لإقراء النحر نحواً من ستين عاماً (٢) . والأمام أبو محمد الأنصاري السرقسطي المتوفى ٨٦٥ هـ كان عالم غرناطة ومفتيها ، كما كان من أحفظ الناس لمذهب مالك (٣) .

وكان أهل الأندلس حريصين على أن يتصدر مساجدهم الجامعة أمثال هؤلاء العلماء الأجلاء ، ومن ذلك دعوة أهل مالقة لعالم اللغة الكبير أبي علي محمد بن عبد المجيد الأزدي الرندي المتوفى ٦١٦ هـ / ١٢٨٩ م للتدريس في مسجدهم والإقراء به بعد وفاة أبي القاسم السهيلي فأجابهم إلى ذلك ، ولم يفارقهم إلى حين وفاته (٤) . كما أن محمد بن يحيى بن علي بن مفرج الأنصاري المتوفى ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م . قد جلس للناس بالجامع الكبير بعد أبي عبد الله الفنجالي (٥) .

وأما محمد بن إبراهيم الأوسي المتوفى ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م من أهل مرسية فقد أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة ، لما استقدمه السلطان ثاني الملوك من بني نصر ، من مدينة بجاية فانتفع الناس به (٦) . وعلي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكتاني المتوفى ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م كان أواحد أهل زمانه علماً وتخلقاً ، وتواضعاً وتفناً ، ورد إلى غرناطة مستدعى عام ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م . وقعد بمسجدها الأعظم يقرئ فنونا من العلم ، من قراءات وفقه وعربية وأدب (٧) .

وكان العلماء المختارون للتدريس في المدارس من تلك الطبقة الرفيعة ، فمنهم الحسين بن محمد بن منيرة المعروف بأبي علي الصديقي المتوفى ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م صاحب مدرسة مرسية ، كان إمام عصره في علم الحديث ، وآخر أئمة في الأندلس ، كان حافظاً

(١) الضبي ، بغية المنتصر : ٣٨٩ .

(٢) ابن فرحون ، الديباج المذهب : ١٨٥ - ١٨٦ .

(٣) ابن الأزرقي ، بدائع السلك في طبائع الملك : ١٤ .

(٤) رضا عبد الجليل الطيار ، الدراسات اللغوية في الأندلس : ٣٢ .

(٥) السيوطي ، بغية الوعاة : ٢٦٥ / ١ .

(٦) ابن الخطيب ، الإحاطة : ٦٩ / ٣ .

(٧) المقرئ ، نفح الطيب : ٥٠٧ / ٥ .

للحديث، وأسماء رجاله وعلله، وكان إماما في الفقه (١).

والشيخ الفقيه محمد بن أحمد الرقوتي المرسى، الذي بنى له الفونس العاشر مدرسة في مرسية، كان حجة في المعرفة القديمة والمنطق والهندسة والعدد والموسيقا والطب كما كان فيلسوفا، وطيبيا ماهرا، آية الله في المعرفة بالألسن. يقرئ الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون في تعلمها، شديد البأس، مترفعا، متعظما (٢).

ومن علماء المدرسة النصرية نجد محمد بن علي بن أحمد الخولاني المتوفى ٧٥٤ هـ/ ١٣٥٤ م أستاذ الجماعة، وكان رحمه الله، عاكفا على العلم ملازما للتدريس إمام الأئمة من غير مدافع، مبرزاً، إمام أعلام البصريين من النخبة منتشر الذكر، بعيد الصيت، عظيم الشهرة، مستبحر اللفظ، ويتفجر بالعربية تفجر البحر، ويترسل استرسال القطر فقد خالطت دمه ولحمه، لا يشكل عليه منها شكل ولا تشذ منه حجة (٣).

وفرّج بن قاسم بن لب، شيخ شيوخ غرناطة، كان شيخا فاضلا عالما متفتنا، انفرد برئاسة العلم، وإليه كان المفزع في الفتوى، وكان إماما في أصول الدين وأصول الفقه (٤).

نظام الدراسة :

كانت الحلقات التي تعقد هي الوسيلة الشائعة للتدريس حيث يجلس الشيوخ مستندين إلى جوار عمود بالمسجد أو المدرسة، ويلتف حولهم طلابهم يستمعون إليهم.

ويرجع اتساع الحلقة أو ضيقها إلى مكانة الأستاذ نفسه، ويمكن لنا أن نتصور الإقبال الشديد على حلقات هؤلاء الكبار، ويبدأ الدرس بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله. ثم يأخذ المعلم في النقاش حسب المادة التي يدرسها، ولذلك اختلفت طرق التدريس في هذه الحلقات باختلاف المادة العلمية التي يتولى الأستاذ شرحها، فقد كان أحمد بن عثمان من أهل طليطلة، المتوفى ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦ م يبدأ المناظرة بذكر الله، والصلاة على محمد عليه السلام. «ثم يورد الحديث والحديثين والثلاثة والموعظة ثم يبدأ بطرح المسائل من غير الكتاب الذي كانوا يتناظرون عليه فيه» (٥).

(١) ابن فرحون، الديباج المذهب: ١٠٤.

(٢) المقرئ، نفح الطيب: ٣/١٣٠، وابن الخطيب، الإحاطة: ٣/٦٨.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة: ٣/٣٥.

(٤) ابن فرحون، الديباج المذهب: ٢٢٠.

(٥) ابن بشكوال، الصلة: ١/٢٦٢.

ولم يكن للحلقات وقت معين لانتقادها أو فضيها إنما يرتبط ذلك بالأستاذ في المقام الأول، فقد يبدأ من الاستشارة التي لا تستغرق أكثر من لحظات ويمكن أن تمتد إلى ساعات طوال، ولكن العادة أن وقت الدراسة كان يتراوح ما بين الساعة أو الساعتين حتى لا يمل الطلاب، اللهم إلا في ظروف خاصة، فحينما هبط قرطبة أبو اسحق ابراهيم بن جعفر اللواتي، المتوفى عام ٥١٣ هـ/ ١١١٩ م. ولم يستطع التوقف فيها طويلا، فتح حلقة مستمرة بالمسجد الجامع. ولازم الناس سماعه بالجامع ليلا ونهارا، وكانوا يبيتون بالمقصورة لكي ينتهي من تدريس كتاب «جامع الترمذي» في الحديث، حتى كمل في فترة يسيرة لفرط استعجاله (١).

وكان مستوى المناظرة في تلك الحلقات مرتفعا الى درجة عالية، فينقل ابن فرحون وصف مناظرة بين القاضي أبي بكر بن العربي وحمد بن ورد بقوله: «إنهما سهر ليلة وأخذوا في التناظر والتذاكر، فكان عجبا يتكلم أبو بكر فيظن السامع أنه ما ترك شيئا إلا أتى به، ثم يجيبه أبو القاسم بأبدع جواب ينسي السامع ما سمع قبله» (٢).

ورغم ذلك فإن الظروف السياسية وتأثيرها الاقتصادي والاجتماعي وما كانت تحربه بلاد الأندلس، قد أثر أيضا على الحياة العلمية حيث نجد بعض المنازعات بين العلماء في هذه الفترة، «وألّف عدد منهم كتباً ورسائل في الرد على غيرهم، حتى سارت هذه حالة تلفت النظر، وهي ظاهرة ليست بمستغربة في العصور المتأخرة التي يندر فيها الإبداع في التأليف والفكر ويشغل فيها المؤلفون أنفسهم بالرد على بعضهم أو غيرهم» (٣).

كما تعرض بعض العلماء للنقد رغم مكانتهم، فمثلا قيل عن علي بن محمد بن علي ابن خروف المتوفى ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م. أنه «كان شديد الضجر عند تتبع الحديث والمساءلة له فعهدي به مرات إذا ضويق في المجلس يأخذ قرقية (حذاءه) ويقوم من مجلسه» (٤).

ويميز التعليم في هذه المرحلة جانب آخر وهو طول الصلابة للمعلمين إلى درجة مبنفة للنظر، فأحمد بن محرز بن خالد بن مهدي المقرئ، المتوفى ٤٣٢ هـ/ ١٠٤٠ م. روى عن

(١) ريبيرا خوليان، التربية الإسلامية في الأندلس: ١٤٥: وابن الأبار، المعجم: ٥٤

(٢) ابن فرحون، الديباج المذهب: ١٨٥.

(٣) الأمثلة على ذلك كثيرة جدا في كتاب رضا عبد الجليل الطيار، الدراسات اللغوية في الأندلس: ٣٥ وما بعدها.

(٤) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الخامس): ٣٢٢/١.

مكي بن طالب المقرئ، وأكثر عنه واختص به (١)، وعلي بن أحمد بن أبي قوة الأزدي، المتوفى ٦١٨ هـ / ١٢١١ م لازم استاذة أبا القاسم ابن حبيش عشرين سنة (٢)، وعثمان بن محمد ابن عبدالله العبدري المتوفى ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م لازم شيخه عبدالرحمن بن يوسف بن الحسن خمسة عشر عاما (٣).

أما أبرز ما يميز الدراسة في هذه المرحلة العالية فكانت الرحلة في طلب العلم من مكان إلى آخر، والحصول على أكبر قدر ممكن من المعرفة، وكلما طالت مدة الرحلة، وكثر عدد العلماء الذين التقى بهم الدارس زادت مكانته.

وانقسمت الرحلة إلى قسمين رئيسيين، فهناك الرحلات الداخلية أي داخل ممد الأندلس، وكانت تحقق لأهلها مكانة عالية لا تقل عن الرحلات الخارجية، فيقال عن العالم الكبير يوسف بن عبدالبر النمري، المتوفى ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م. إنه: فقيه حافظ مكث، عالم بالقراءات، وبالخلاف في الفقه، ويعلم الحديث والرجال، قديم السماع، كثير الشيوخ، على أنه لم يخرج من الأندلس، لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها، ومن الغرباء القادمين إليها (٤). كما أن (أحمد بن عبدالله بن محمد المعروف بابن الباجي، كان يقول عنه الضبي: «لم أر بقرطبة ولا بغيرها من كور الأندلس رجلا يقاس بـ في علمه بأصول الدين وفروعه... جمع له والده علوم الأرض فلم يحتج إلى أحد، إلا أنه رحل متأخراً للحج» (٥). وكانت الرحلة الداخلية قصيرة نسبياً، وإن فضل بعض العلماء أن تطول ما أمكن، فيرى القاضي أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد أنه قال: «لما رحلت إلى قرطبة قرأت على الحافظ أبي بكر - يقصد أبابكر بن العربي - ولزمته، فسمعت ذات يوم أذكر الانصراف إلى وطني بالمرية، فقال لي: ما هذا القلق؟ - أقم حتى يكون لك في رحلتك عشرة أعوام كما كان لي» (٦).

أما الرحلات الخارجية الأندلسية فقد أخذت طريقها من الأندلس إلى باقي أصقاع العالم الإسلامي، وكان الحج حافزاً آخر إلى جانب الحافز العلمي، مما جعل الرحلة بين

(١) ابن الأبار، الصلة: ٤٨/١.

(٢) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الخامس): ١٥٤/١.

(٣) المصدر نفسه، (السفر الخامس): ١٣٧/١.

(٤) الحميدي، جذوة المتقرب: ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٥) الضبي، بغية الملتبس: ١٨٤.

(٦) المصدر نفسه: ٩٣.

الأندلسيين شبه فرض أكيد لكل من كان يرغب في مواصلة تعليمه العالي، والأمثلة على رحلات الأندلسيين كثيرة جدا. ويكفي للدلالة على رحلات تلك الفترة رحلة القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله (١).

وهناك الكثيرون من الطلاب ممن قاموا بالرحلتين الداخلية والخارجية معا حيث يبدأ بالأولى ثم يثنى عليها بالرحلة إلى خارج الإقليم.

ولم يكن الطالب يرحل إلى مدينة بغرض التعليم على معلم واحد فقط، رغم أن شهرة المعلم تجذب الطلاب إلى مدينته مثلما هو الحال على عهد أبي علي الصدي في مدينة مرسية، بل إن الطلاب كانوا ينتهزون فرصة وجودهم في مدينة ما للاستماع ولقاء أكبر عدد من شيوخها وعلمائها.

مجالس الخلفاء والأمراء :-

كانت مجالس الخلفاء والملوك والأمراء في الأندلس المعين الذي تستقي منه الحركات العلمية والأدبية و الخلقية، وكان لها خطورتها على الحياة العقلية بصفة عامة والتعليمية بصفة خاصة، فلقد كان هؤلاء لا يضمون إلى مجالسهم إلا أساطين الأدباء والعلماء الذين أنجبهم ذلك العصر الزاهر، والذين كانوا قدوة جمهور الأدب والعلم في عصرهم (٢).

ففي هذه المجالس كانت توضع السياسة التعليمية، ويلبس كبار العلماء من الخلفاء أو الأمراء ما يجب أن يهتموا به من علوم. ففي مجالس مجاهد العامري ازدهرت القراءات ازدهارا كبيرا، أما في مجالس بني العباد فكان الشعر والشعراء مجاهدين، وكان مقتصرًا من العلوم على علم الأدب، وما يتعلق وينضم إليه. واهتم المرابطون بالمذهب المالكي اهتماما كبيرا، ولم يكن يقرب من أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين إلا من علم علم الفروع كما سبق أن بيته هذه الدراسة، ويكفي للدلالة على خطورة المجالس العلمية للخلفاء والأمراء وأثرها على السياسة التعليمية ما يرويه أبو بكر بن الجذائلا: «لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي: يا أبا بكر، انظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا، فأني هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر ليس إلا

(١) الضبي، بغية المتمس: ٩٢ وما بعدها.

(٢) مصطفى محمد علي السيوفي، ملامع التجديد: ٤٨.

هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه أو السيف» (١).

وكان لهذه المجالس نظام خاص تبعة، فكان الخليفة يتصدر المجلس فخطيب الجماعة، ثم قاضي الجماعة، فرئيس الأطباء فأكبر علماء الحضرة، فباقي الأعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم (٢).

كما أنها كانت جادة فلا هلو، ولا هزل بل تلاوة لكتاب الله العزيز، ومدارسة الأحاديث الصحيحة النبوية، والاشتغال بالعلوم الشرعية، وإقام الصلوات، فهكذا كان دأب أصحابه (٣).

ولقد كان حضور تلك المجالس فرصة طيبة للعلماء، إما أن تصل بهم إلى مكانة عالية أو أن تسقط مكانتهم إلى الأبد، فكان ممن يحضر مجلس أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف، العالم أبوبكر بن طفيل، وكان الخليفة شديد الشغف به، والحب له حتى أنه كان يقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر.

ولم يزل أبوبكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وينبئ عليهم ويحضه على إكرامهم، والتنويه بهم، وهو الذي نبهه على أبي الوليد بن رشد، فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم (٤).

أما محمد بن عبدالله بن إدريس العبدري المتوفى ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م. فقد كان يحضر مجلس عبدالمؤمن مع أكابر من يحضر من العلماء، فيشرف على أكثرهم بما لديه من التحقيق بالمعارف، إلى أن أنشد أبياتاً غزلية، فهجره عبدالمؤمن ومنعه من الحضور بمجلسه. وصرف بنيه عن القراءة عليه، وسرى ذلك في أكثر من كان يقرأ عليه ويتردد عليه (٥).
والشيخ أحمد بن يحيى بن السعود العبدري ويكنى أبا العباس المتوفى ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م كان يرتدي ملابس غريبة يحضر بها مجلس خواص الطلبة ومجتمعهم بدار الإمارة، ومع ذلك فلم يزل يحاضر طلبة العلم بمجلس المنصور الخاص بهم، يذاكرهم بين يديه، مرعي الجانب ملحوظاً بعين التكرمة، محترماً لشأخته واضطلاعه بالمعارف إلى أن

(١) المراكشي، المعجب: ٤٠١ - ٤٠٢.

(٢) حسن علي حسن. الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ٤١٥.

(٣) المصدر نفسه: ٤٣١.

(٤) المراكشي، المعجب: ٢٤٠ وما بعدها.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة: ٨٦/٣ - ٨٧.

وجد منه يوما في مجلس المنصور ريح مسكر، فاستثبت أمره، فجلد وصرفه إلى منزله واستمر في هجرانه ومنعه من حضور مجلسه إلى أن توفي المنصور وولي الناصر فكره مفضيا عليه (١).

المرتبات :-

كان معظم هؤلاء العلماء الكبار من أصحاب المناصب العليا كالقضاء والشورى وغيرها، ومن ثم لم تكن حاجتهم إلى مرتبات مثل غيرهم من معلمي الصبيان أو مؤدبي الشباب، ومع ذلك فقد خصص لهم مرتبات وجراية، ومن ذلك ما قيل عن الخليفة يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن من إجراء المرتبات على الفقهاء والطلاب على قدر مراتبهم وطبقاتهم (٢).

وما يورده المراكشي عن الفيلسوف الطيب أبي بكر بن طفيل من أنه كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف (٣).

وما يرويه ابن الخطيب عن الشيخ الرئيس أبي جعفر احمد بن إبراهيم المتوفى ٧٦٣ هـ وأنه قام بانتشاله من مهواه، «ودلت على البر مثواه»، وأسنت له الجراية ونشرت من تعظيمه الراية (٤).

ومع ذلك فقد وجد في الأندلس كثير من العلماء ممن علموا احتسابا لوجه الله سبحانه مثل الشيخ أبي علي الغساني الذي حينما دفع له تلميذه محمد بن عبدالرحمن جملة من المال في مقابل إقرائه، أخذه ووضعها على رأسه، وقال لا آخذ على هذا شيئا أبدا، ولو أخذت من أحد لأخذت منك (٥). بل لقد وصل الحال ببعض العلماء الأثرياء أنهم كانوا يستضيفون طلابهم الغرباء لأكثر من ثلاثة أشهر يطعمونهم ويقدمون لهم المأوى، وبالطبع لا يتدنون منهم أجرا. مثل الشيخ احمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري الذي كان يستضيف أكثر من ٤٠ طالبا يقيمون ويأكلون ويتعلمون (٦).

(١) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الأول): ٥٦٦-٥٦٧.

(٢) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب في روض القرطاس: ٢١٧.

(٣) المراكشي، المعجب: ٣٥٠.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة: ٢٢٢/١.

(٥) ابن الأبار، المعجم: ١٣٧.

(٦) ابن بشكوال، النصلة: ٤١.

النساء في هذه المرحلة :

شاركت النساء الأندلسيات ببيع طويل في الحركة العلمية العالمية في الأندلس حتى شهد من حافظ عصره المقرئ حين ذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي هن اليد الطولى في البلاغة، كي يعلم أن البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم، حتى في نسائهم وصبيانهم (١). والأمثلة كثيرة على ذلك ومنها أن ولادة بنت المستكفي بالله المتوفاة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧م كانت أديبة، شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء. وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر (٢).

ومريم بنت أبي يعقوب الأنصاري، كانت أديبة شاعرة جزلة مشهورة وكانت تعلم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها (٣).

وأم المناء بنت القاضي أبي محمد بن عبدالحق بن عطية التي كانت حاضرة النادرة، سريعة التمثل، من أهل العلم والفهم والعقل، ولها تأليف في القبور (٤).

والشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية أستاذة الشواعر في عصرها لكونها تمتلك قوة شعر هائلة، وأداة مطوعة فنية بوائها تلك المكانة الأدبية، ولقد ذكرها ابن الخطيب نقلا عن ابن بشكول بأنها كانت أستاذة وقتها (٥).

ومن نساء المرابطين، كانت الحرة حواء أديبة شاعرة جلييلة ماهرة، وينقل ابن عذاري عن مالك بن وهيب قوله: مرت الحرة حواء اللمتونية بمراكش بمجلس الكتبة والشعراء، وكانت تحاضرهم فيه، وكانت ذات نباهة وخطر فاجتمع يوما في ذلك المجلس جماعة، فلما غص المجلس، أقبلت الحرة تريد هم وهم يتحادثون، ويأخذون الشعر (٦)، ثم يكمل الرواية فيبين مساجلتها لهم الأشعار وتفوقها على الحاضرين.

أما الموحدون فقد أولوا النساء المثقفات على عصرهم التفاتا خاصا، ومن بنات

(١) المقرئ، نفح الطيب: ١٦٦/٤.

(٢) انقصر نفسه: ٢٠٧/٤ - ٢٠٨.

(٣) انقصر نفسه: ٢٩١/٤.

(٤) المقرئ، نفح الطيب: ٢٩١/٤.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة: ٤٩٣/١ - ٤٩٤.

(٦) تمند المنتصر الريوني، الشعر النسوي بالأندلس: ١١٩ وما بعدها.

الخلفاء المثقفات، زينب بنت يوسف بن عبدالمؤمن وكانت عالمة، صائبة الرأي فاضلة معروفة بالتفوق على نساء زمانها (١).

ويرى المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا أن النساء الأندلسيات لم يقف نشاطهن عند حد الدراسة في إسبانيا فحسب، وإنما رحلن إلى الخارج ليدرسن كالرجال سواء بسواء (٢).

تعليم الخاصة :

تعتبر تربية أبناء الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة، إحدى القضايا الأساسية الهامة في التربية الأندلسية.

وتأتي أهمية هذه النقطة للأثر الحاسم الذي يتركه المعلمون في نفوس متعلميهم ودور هؤلاء المعلمين في تشكيل سلوك الأبناء مستقبلاً مما يجعله ينسحب أيضاً على جموع المواطنين والسكان.

ولقد عرف المعلمون الذين يقومون بهذه المهمة باسم المؤدبين، نتيجة ما يتحملونه من عبء التعليم والتأديب في الوقت ذاته، وإن لم يقتصر اسم المؤدب على هؤلاء فقط، وإنما حمله معلمو الكتاب وغيرهم من طبقات المعلمين.

ولخطورة مهمة التأديب اهتم حكام الأندلس وكبراء رجالها اهتماماً كبيراً في التدقيق عند اختيار المؤدبين لأولادهم، واستشاروا في ذلك أهل الثقة من رجالهم واختبروا بأنفسهم علم معلمي أولادهم وأخلاقهم، ومن ذلك أن المنصور الموحدي (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م)، طلب من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولده، وضبط أمره، فعرّفه برجلين، قال في أحدهما: وهو بحر في علمه، وقال في الآخر: هو بر في دينه. ولما خرج المنصور أحضرهما واختبرهما فقصرأ بين يديه، وأكذبا الدعوة. فوقع المنصور على رقعة القاضي: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ظهر الفساد في البر والبحر (٣).

ولقد ترك بعض المؤدبين تأثيراً سيئاً على طلبتهم وصل بهم إلى درجة التمرد على

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٧/٤.

(٢) ريبيرا خوليان، التربية الإسلامية في الأندلس: ١٦٢.

(٣) محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون: ٣٨، حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ٤٩٩.

الوالدين، والتسبب في مأساة عائلية شتى حدث مع معلم الأمير اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر، سلطان غرناطة الذي حكم من (٧٦٠ - ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م). يقول عنه ابن الخطيب: واستدعى له ولأخيه المعلم الذي كان السبب في إفاته أرماعهما، واعداد حياتهما، الشيخ السفلة محمد البطروجي البائس (١).

ولهذا كان الآباء عندما يكتشفون ثغرة في أخلاق معلّمي أولادهم، يعملون على تلافيتها، بل ويمنعونهم من تدريس أبنائهم، ومن ذلك ما حدث لأبي بكر محمد بن عبد الله العبدري المتوفى (٥٦٧ هـ / ١١٨٠ م). فقد كان يحضر مجلس عبد المؤمن بن علي الخليفة الموحد، مع مجموعة من العلماء، ويؤدي ما عنده من المعارف معظمها موقراً، إلى أن أشد يوماً في المجلس أبياتاً ثلاثة قالها تغزلاً في شاب من أهل اغمات، فكان ذلك سبباً لأن هجره عبد المؤمن بن علي، ومنعه من الحضور في مجلسه، بل وصرف بنيه عن القراءة عليه (٢).

تأديب الخاصة في الصغر :-

لم يكن تأديب الصبيان، أولاد الخلفاء والكبراء مختلفاً في محتواه كثيراً عن ما يقدم لأبناء العامة في المكاتب، فالأساس التعليمي في تلك الفترة تحفيظ القرآن، وتعليم القراءة والكتابة، أما الاختلاف فهو تميز هؤلاء بنوع معين من المعلمين أكثر ثقافة وأعمق علماً، وفي سن البداية التعليمية، كما أن هناك بعض الجوانب التعليمية والتربوية الأخرى التي يتم التركيز عليها بغرض الاعداد لمستقبل معين مثل التدريب على بعض أعمال الفروسية والقيادة أو توجيه الملكات نحو فن معين من فنون الحياة، ولذلك يمكن القول، إن المعرفة التي حصل عليها الأولاد المؤدبون تجاوزت كما ونوعاً المعرفة التي حصل عليها الأولاد في المكاتب، وذلك لطول مدة التأديب بشكل عام، وتجاوز عمر المؤدبين عمر المكتبيين. ويمكن القول إن بعض الصبيان المؤدبين تجاوزوا في معرفتهم مستوى بعض طلاب حلقات العلم في المساجد (٣).

ومن الأدلة على حرص الآباء على أن يبدأ أبنائهم تعليمهم مبكراً، ما ذكره أبو بكر ابن العربي عن نفسه قائلاً: «كان من حسن قضاء الله تعالى أن رتب لي أبي حتى حذقت القرآن في العاشر التاسع» (٤).

(١) ابن الخطيب، الاحاطة: ٣٩٨/١

(٢) السيوطي، بغية الرعاة: ١٤٧/١، محمد المنوي، العلوم والآداب والفنون: ٤٠

(٣) كريم عجيل حسن، الحياة العلمية في مدينة بلنسية: ٢٤٢

(٤) المقرئ، نفع الطيب: ٤٣/٢

تعليم الخاصة بعد مرحلة الصبا :-

حينما يبدأ أبناء الأمراء والكبراء مرحلة السماع فإن منهجهم التعليمي كان يعتمد في المقام الأول على الدراسات اللغوية والأدبية، فلقد اختار المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس لتأديب أولاده: ابا عبدالله محمد بن يونس الحجاري المتوفى (٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)، وكان مقدماً في المعرفة والنحو واللغة، وكتب الاشعار والأخبار (١). وكذلك كان أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي، أحد كبار النحاة والأدباء في الأندلس، وكان شاعراً كاتباً بليغاً استدعاه الخليفة عبد المؤمن بن علي ليؤدب أبناءه (٢).

كما أن الدراسات الدينية قد حظيت أيضاً باهتمام بالغ ضمن مناهج التدريس لأبناء الخلفاء وللعظم أهل الأندلس، ومن ذلك حرص المنصور على أن يقوم عبدالله بن محمد الحتمي بن علوش أستاذ التجويد والقرآن والعربية، لتأديب ابنه محمد الناصر، وكذلك كان عبدالله بن سليمان بن حوطة الله، يلقيه حديث رسول الله (ﷺ) (٣).

كما تأثر المنهج التعليمي خلال هذه المرحلة بمستقبل الأبناء المتعلمين ووجهة نظر الآباء، ويقدم لنا الأمير عبدالله بن زيري الغرناطي (٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م)، وصفاً حياً رائعاً لوجهة نظره في إعداد ولي العهد فيقول «وقد كنا معشر أهل بيت المملكة، نرى أن أكبر ما نتأدب به أعمال السياسة في طلب الرئاسة، والسعي لها بكل الوجوه، واحضار الأذهان ما لو أن المقرط في بعض ذلك منا يكون أفقه الناس في سائرها من العلوم، لكان عندنا ناقصاً، لا يلح لهذا الشأن، حتى وقع التنافس عليه» (٤). ثم يمضي الأمير مبيناً كيف قام جده بعد إنهاء عبدالله من المكتب باجرائه بين يديه وتدريبه على هذه المهمة الخطيرة. مكان التأديب:

تعلم أبناء الأمراء والخلفاء والملوك من أهل الأندلس في قصورهم، حيث جعل بهذه القصور أماكن خاصة للتعليم أو في مكتبة القصر، وكذلك الغالبية من كبراء الأندلس حيث ذكر أبو بكر بن العربي عن نفسه أنه بعد أن حفظ القرآن قرن به والده ثلاثة من المعلمين يتعاقبون عليه من صلاة الصبح الى صلاة العصر ثم ينصرفون عنه (٥).

(١) الأمير شكيب أرسلان، الخلل السندية: ٧١/٣

(٢) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ٤٩٩

(٣) المصدر نفسه: ٩٠

(٤) ابن بلتين، مذكرات الأمير عبدالله: ١١ - ١٣

(٥) عماد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ٤٥٠ - ٤٥١.

وكان أبناء الكبراء في الأندلس يذهبون في بعض الأحيان، إلى مجالس معلميهم في المسجد فمن ذلك أن محمد بن خطاب أبا عبد الله النحوي الأزدي كان من الأدباء المشهورين والنحاة المذكورين، وكان يختلف إليه في علم العربية، أولاد الأكابر وفوي الجلالة (١).

تأديب النساء :

تمتعت النساء من بنات الخلفاء وكبار رجال الدولة في الأندلس بفرصة طيبة في مجال التعليم، وكان تعليمهن يتم في المنازل والقصور، وتولى تعليمهن سيدات من أهل البلاط أو بعض المؤدبين المشهود لهم بالصلاح والتقوى، وكان اختيار المعلمين والمعلمات يتم بواسطة الآباء شخصياً، فالخليفة المنصور الموحدي حينما استمع إلى علي بن محمد بن يوسف الفهري وهو يقرأ القرآن، أخذ قلبه طيب نغمته، فقربه واستخلصه، وأمره بتعليم أولاده... ثم خبر أحواله، وعرف صوته وعفافه، فأمره بتعليم بناته، فاستغفاه من ذلك معتذراً بأنه يدرك بعض التفرقة بين الألوان، فأخطأه ذلك عنده، لما تحقق من صدق نصحه، وألزمه تعليمهن، وكان سبب إثرائه وسعة حاله (٢).

كما قامت حفصة بنت الحاج الركونية، المتوفاة (٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م) بالتأديب في قصر المنصور مؤدبة للنساء (٣).

ومن الطريف أننا نجد في التراث الأندلسي معلمين تخصصوا في تعليم الوصفاء بالقصر الخلافي، ومنهم أحمد بن مضا بن عبد الجبار، الذي كان أديبا متفنا في علوم اللسان العربي، أدب طويلاً للخاصة والعامة، ثم قصر على تأديب الوصفاء بالقصر (٤).

أما الدور المهم الذي لعبته النساء فكان في قيامهن بتعليم أبناء الكبراء من أهل الأندلس، حيث يتبين مما أورده عنهن ابن حزم، أنهن كن يتولين مهمة التعليم داخل القصور، يقول ابن حزم: «ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري لأنني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن... ومن علمني القرآن، ورويتني كثيراً من الأشعار، ودربتني في الخط (٥).

(١) الحميدي، جذوة المنقبس: ٥٠، الضبي، بغية الملتبس: ٧٤

(٢) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الخامس) القسم الأول: ٣٩٩

(٣) ابن الخطيب، الاحاطة: ٤٩٣/١، المقرئ، نفع الطيب: ١٧١/٢ وما بعدها.

(٤) المقرئ، نفع الطيب: ١٧١/٤، والمراكشي، الذيل والتكملة (السفر الأول): ٥٤٣

(٥) ابن حزم، طوق الحمامة: ٥، وعبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي: ٦٢

خاتمة :

نتبين من الدراسة السابقة مدى اهتمام الأندلسيين حكاما وعامة بالتعليم . وكيف تدرجوا في مراحلهم منذ الصغر الباكر الى أن وصلوا إلى مراحل متقدمة من السن والعلم . وكان ذلك هو السبب في تميز صقع الأندلس حتى آخر أيامه بالكثرة من العلماء والأدباء والفقهاء وأهل العلم عامة ، الذين لم يقتصر جهدهم على بلاد الأندلس وإنما كانوا الوقود الذي أضاء نور العلم في كثير من بقاع العالم الاسلامي من المغرب إلى مصر إلى الشام والحجاز .

ويمكن أن نشير كذلك الى تميز التعليم في بلاد الأندلس بوجود آراء تربوية نافذة . ووجهة نظر واضحة في تربية أطفالهم ، كما أن نظامهم التعليمي قد شهد قواعد أخلاقية وتربوية واضحة تحكم العلاقة بين العالم والمتعلم ، ففي الوقت الذي تميز الطلاب بالنباهة وحسن المعرفة والسعي والاجتهاد كان العلماء والمعلمون في الأندلس من أصحاب المكانة الخاصة علما وخلقا وتربية .

ومن ناحية أخرى كان حكام الأندلس قدوة دائما في علمهم وأدبهم ، وظهر منهم العلماء والشعراء والأدباء من أمثال المعتمد بن عباد وبني الأفطس ، بالإضافة الى خلفاء الموحدين وسلاطين غرناطة .

ولم تحرم النساء من التعليم أو من العمل في التعليم ، فوجدنهن المعلمات الشهيرات والأديبات المتربعات على عرش الأدب ، والطبيبات المعترف بهن .

ولقد كان لهذه البلاد ونهضتها العلمية الأثر الخالد في نقل المعارف الاسلامية إلى الجانب النصراني من بلاد الأندلس ، ومن هذه إلى باقي أنحاء أوروبا مما لا ينكره منصف ويتزاد وضوحاً مع الأيام .

من التاريخ السياسي لغرب الأندلس

الدكتور محمد عبد الحميد عيسى

غروب الأندلس

مقدمة

يعد إقليم الغرب Al Garbe في الأندلس أحد الاقاليم الاساسية التي شهدت أحداثا جساما طوال العصر الاسلامي وكانت له خاصيته بدءا من الفتح الاسلامي ، وحتى تكرنت في الجزء الأكبر منه دولة البرتغال الحالية .

ولقد ازدهر هذا الاقليم حضاريا بصورة جليلة ، ونمت فيه عدة مدن هامة منها ماردة وبطليوس ، باجة ، وشلب ، ويابرة وشنترية وأشبونة وأكثونية وغيرها من المدن التي انجبت عظماء الأدباء والمفكرين والعلماء .

والى جانب هذا الازدهار الحضارى شهد إقليم الغرب الكثير من الاحداث السياسية والثورات والقتل حتى أنه قد جذب انتباه المؤرخين الاسبان فخصوه بالمؤلفات ، وركزوا عليه الدراسات والابحاث ومن ذلك تلك الدراسة التي أعدها المستشرق الاسباني المعروف فرانثيسكو قوديرة Francisco Codera والتي يسعدني تقديمها إلى قراء العربية ممهدا لها بدراسة مختصرة لعل فيها بعض الفائدة ، والله ولي التوفيق

د. محمد عبد الحميد عيسى

دراسة تمهيدية

معنى غرب الأندلس

يقسم المرقى بلاد الأندلس إلى قسمين أساسيين هما الأندلس الغربى والآخر شرقى * فالغربى منهما ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربى ، وتطر بالرياح الغربية ، ومبتداً هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية * (١) . كما يكرر ذلك نقلاً عن كتابات اندلسية فقدت ولم تصل إلينا حتى الآن ، ويحدد الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بأنه كل ما يلى اشبيلية غرباً إلى المحيط ... وفيه البرتغال كلها ، وقد كان داخلها فى زمام العروبة منذ الفتح إلى أواخر دولة الموحدين * (٢) .

الفتح الإسلامى لغرب الأندلس :

اتجه المسلمون لفتح الأندلس بعد تمكنهم من استكمال الفتح الإسلامى لبلاد المغرب فقام موسى بن نصير رضى الله عنه بارسال بعض الحملات الاستكشافية تمكنت من الاطلاع على عورات البلاد الأندلسية والتأكد من إمكانية القيام بعمل عسكري ناجح ضد هذه البلاد ، ثم ارسل بعد ذلك قائده الفذ طارق بن زياد على رأس جيش صغير لا يتجاوز ما بين سبعة آلاف مقاتل وأثنى عشر ألف مقاتل فقط (٣) .

حقق طارق بن زياد انتصاراً حاسماً على القوط فى معركة " وادى لكه " عام ٩٢ هـ / ٧١١ م تمكن به من تحطيم عماد المقاومة العسكرية لدولة القوط الغربيين فى اسبانيا ، وفتح الباب واسعاً امام المسلمين لفتح باقى أنحاء شبه الجزيرة الايبيرية حتى ان الرازى قد صاغ ذلك فى عبارة جامعة عند تعليقه على هذه المعركة الحاسمة فقال " وفتح للمسلمين الأندلس " (٤)

لكن هذا النصر لم يكن يعنى زوال سلطة القوط كاملة من كل أنحاء شبه الجزيرة بحيث

سارع الزعماء والقادة إلى التجمع مرة ثانية في العاصمة طليطلة " لللملة قواهم وإعادة تكوين جيشهم " (٥) . . ومن ثم كان ضروريا أن يتجه طارق بن زياد إلى طليطلة العاصمة مباشرة دون أن يتجه غربا أو شرقا لكي يحقق الهدف الاساسى الذى نصحه به خوليان حاكم سبته وهو عدم منح الفرصة مرة أخرى للقوط لكي يتجمعوا ويتوحدوا فقال له : " لقد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاقصد لبيضتهم وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة ، ففرق جيوشك معهم فى البلاد ، وأعد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر فى أمرهم " (٦) .

وجه طارق بن زياد بعض فرق جيشه لفتح غرناطة وقرطبة وبعض أجزاء جنوب شرق الأندلس ، لكنه لم يوجه أى جزء من جيوشه لغرب الأندلس .

عبر موسى بن نصير إلى الأندلس فى شهر رمضان من عام ٩٣ هـ يونيه ٧١٢ م فى جيش عظيم يربو عدده على ثمانية عشر ألفا من المقاتلين المسلمين جلبهم من العرب ، وكان فيهم اشراف القوم وعدد من التابعين رضوان الله عليهم وكان موضع عبوره من سبته إلى الجزيرة الخضراء أو قريبا منها فى مكان عرف باسم " مرسى موسى " (٧) . وهناك توافقت إليه الجنود ، وتجمعت لديه القوات براياتها ، وأسس هناك مسجدا لعله أولى مسجد قام المسلمون ببنائه فى الأندلس عرف باسم مسجد الرايات حيث كان مقرا لاجتماعات موسى بن نصير مع أصحاب راياته للتشاور (٨) .

لم يتجه موسى بن نصير إلى الطريق الذى أخذه من قبله قائدة طارق بن زياد ، وإنما سأل عن المداين التى لم يفتحها طارق ، والمناطق التى يمكن له أن يقوم بالجهاد فيها ، فدله الأدلاء على اتجاه غرب الأندلس فأخذ يستعد لفتح هذه المناطق ذات المدن العظيمة ، والتحصينات القوية ، تمكن من استدراج الأدلاء الاسبان من اصحاب يوليان حين قال لهم : ما كنت اسلك طريق طارق ، ولا اقفوا أثره فقال له العلوج الأدلاء : نحن نسلك بك طريقا هو أشرف من طريقه ، وذلك على مداين هى أعظم خطرا ، وأعظم خطبا وأوسع غنما من مغانمه لم تفتح

دراسة تمهيدية

معنى غروب الأندلس

يقسم المرقى بلاد الأندلس إلى قسمين أساسيين هما الأندلس الغربية والآخر شرقي " فالغربي منهما ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي ، وتمطر بالرياح الغربية ، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية " (١) . كما يكرر ذلك نقلا عن كتابات أندلسية فقدت ولم تصل إلينا حتى الآن ، ويحدد الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بأنه كل ما يلي اشبيلية غربا إلى المحيط ... وفيه البرتغال كلها ، وقد كان داخلا في زمام العروبة منذ الفتح إلى أواخر دولة الموحدين " (٢) .

الفتح الإسلامي لغرب الأندلس :

اتجه المسلمون لفتح الأندلس بعد تمكنهم من استكمال الفتح الإسلامي لبلاد المغرب فقام موسى بن نصير رضى الله عنه بإرسال بعض الحملات الاستكشافية تمكنت من الاطلاع على عورات البلاد الأندلسية والتأكد من إمكانية القيام بعمل عسكري ناجح ضد هذه البلاد ، ثم أرسل بعد ذلك قائده القذ طارق بن زياد على رأس جيش صغير لا يتجاوز ما بين سبعة آلاف مقاتل وأثنى عشر ألف مقاتل فقط (٣) .

حقق طارق بن زياد انتصارا حاسما على القوط في معركة " وادي لكة " عام ٩٢ هـ / ٧١١ م تمكن به من تحطيم عماد المقاومة العسكرية لدولة القوط الغربيين في اسبانيا ، وفتح الباب واسعا امام المسلمين لفتح باقى أنحاء شبه الجزيرة الايبيرية حتى ان الرازى قد صاغ ذلك فى عبارة جامعة عند تعليقه على هذه المعركة الحاسمة فقال " وفتح للمسلمين الأندلس " (٤)

لكن هذا النصر لم يكن يعنى زوال سلطة القوط كاملة من كل أنحاء شبه الجزيرة بحيث

سارح الزعماء والقادة إلى التجمع مرة ثانية في العاصمة طليطلة " لللمة قواهم وإعادة تكوين جيشهم " (٥) . ومن ثم كان ضروريا أن يتجه طارق بن زياد إلى طليطلة العاصمة مباشرة دون أن يتجه غربا أو شرقا لكي يحقق الهدف الاساسى الذى نصحه به خوليان حاكم سبته وهو عدم منح الفرصة مرة أخرى للقوط لكي يتجمعوا ويتوحدوا فقال له : " لقد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاقصد لبيضتهم وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة ، ففرق جيوشك معهم في البلاد ، وأعد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر ، فى أمرهم " (٦) .

وجه طارق بن زياد بعض فرق جيشه لفتح غرناطة وقرطبة وبعض أجزاء جنوب شرق الأندلس ، لكنه لم يوجه أى جزء من جيوشه لغرب الأندلس .

عبر موسى بن نصير إلى الأندلس فى شهر رمضان من عام ٩٣ هـ يونيه ٧١٢ م فى جيش عظيم يربو عدده على ثمانية عشر ألفا من المقاتلين المسلمين جلبهم من العرب ، وكان فيهم اشراف القوم وعدد من التابعين رضوان الله عليهم وكان موضع عبوره من سبته إلى الجزيرة الخضراء أو قريبا منها فى مكان عرف باسم " مرسى موسى " (٧) . وهناك توافت إليه الجنود ، وتجمعت لديه القوات براياتها ، وأسس هناك مسجدا لعله أول مسجد قام المسلمون ببنائه فى الأندلس عرف باسم مسجد الرايات حيث كان مقرا لاجتماعات موسى بن نصير مع أصحاب راياته للتشاور (٨) .

لم يتجه موسى بن نصير إلى الطريق الذى أخذه من قبله قائدة طارق بن زياد ، وإنما سأل عن المداين التى لم يفتحها طارق ، والمناطق التى يمكن له أن يقوم بالجهاد فيها ، فدله الأدلاء على اتجاه غرب الأندلس فأخذ يستعد لفتح هذه المناطق ذات المدن العظيمة ، والتحصينات القوية ، تمكن من استدراج الأدلاء الاسبان من اصحاب يوليان حين قال لهم : ما كنت اسلك طريق طارق ، ولا اقفوا أثره فقال له العلوج الأدلاء : نحن نسلك بك طريقا هو أشرف من طريقه ، وذلك على مداين هى أعظم خطرا ، وأعظم خطبا وأوسع غنما من مغانمه لم تفتح

بند : (٩) : "بني يمينه على يمينه" (٩)

موسى بن نصير وفتح الخرب الأندلس :

اتجه موسى بن نصير بجيوشه إلى مدينة شذونة ففتحها عنوة والقوا إليه بأيديهم ، ومنها سار إلى مدينة قرمونة ، وليس بالأندلس أحصن منها ، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال . فعمد موسى بن نصير إلى الحيلة ، حيث سبقه إلى المدينة بعض رجال يليان ، وتمكنوا من دخولها على أساس أنهم فلول منهزمة من الجيش القوطي ، وتمكنت هذه الجماعة من الايقاع بالحرس في الوقت الذي اقترب فيه موسى وجيشه ليلا من المدينة ، وبذلك تمكن من فتحها .

ومن مدينة قرمونة اتجه موسى بن نصير إلى أشبيلية ، وقام بحصارها وكانت هذه المدينة كما يصفها المقرئ " من أعظم مدائن الأندلس شأنا وأعجبها بنيانا ، وأكثرها أثارا ، وكانت دار الملك قبل القوطيين فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس حولوا السلطات إلى طليطلة وبقي رؤساء الدين في أشبيلية " (١٠) .

ظل موسى على حصار مدينة أشبيلية عدة أشهر حتى تمكن المسلمون من فتحها وينقل الدكتور سالم عن المستشرق الأسباني سيمونيت ان ذلك قد تم بمساعدة من أسقف المدينة والجالية اليهودية (١١) ولقد هربت حاميتها الأسبانية إلى مدينة باجة وقام موسى بن نصير بضم يهود المدينة إلى قصبته (١٢) ومعهم بعض المسلمين ثم سار إلى مدينة ماردة أهم مدن إقليم غرب الأندلس في ذلك الحين لأنها كانت أيضاً دار بعض ملوك الأندلس ، ذات آثار وقنطرة وقصور وكنائس تفوق الوصف (١٣) وكذلك كانت ماردة من أمنع معاقل استرامانورا - Extra-ma dura ومن أعظم مدن إسبانيا في العصر الروماني اذ أسسها الامبراطور اغسطس قيصر سنة ٢٥ ق . م ، وجعلها عاصمة لإقليم لشدانية Lusitania ولقد حملت ماردة مشعل الحضارة الرومانية في إسبانيا حتى أصبحت تعرف برومة اسباني La Roma de Espana (١٤) . ولقد قاومت هذه المدينة مقاومة شديدة ، وفقد المسلمون كثيراً من الشهداء وخاصة جماعة

المسلمين الذين تقدموا في حماية احدى الدبابات التي صنعوها لكي يتقبوا سور المدينة واستشهد تحت دباباتهم ، ودام حصار المدينة مدة طويلة حتى اضطر سكانها الى عقد صلح مع موسى بن نصير من شروطه ان تكون للمسلمين اموال القتلى من النصارى ، وأموال الفارين الذين هربوا الى جليقة في الشمال ، وأموال الكنائس وحليها وذلك يوم عيد الفطر ٩٤ هـ وفي تلك الاثناء تجمع في مدينة اشبيلية عدد من الفارين من القوط وامكنهم الاستيلاء على المدينة من حاميتها الاسلامية ، وقتلوا من المسلمين حوالي ثمانين رجلاً وهرب الباقون الى موسى بن نصير الذي ما ان انتهى من فتح مدينة ماردة حتى وجه اليهم ابنه عبد العزيز الذي تمكن من الانتصار على المتمردين القوط وان يعيد المدينة الى حوزة المسلمين ، كما تمكن من فتح لبلة وماجاورها فاستقامت الامور هناك ، وعلا السلام ، واتجه الامير موسى من ماردة في عقب شوال من عام ٩٤ هـ يريد طليطلة (١٥)

يتضح من هذا العرض مدى الجهود التي بذلها المسلمون لفتح غرب الأندلس ، وأنهم ضحوا كثيراً بالأنفس والأموال في هذا الأقليم ربما أكثر من أى أقليم أندلسي آخر .

ذهب موسى بن نصير بعد ذلك للقاء طارق بن زياد في طليطلة ، ومن هناك توجهوا معا لفتح شمال شرق اسبانيا والشمال والشمال الغربي واعتقد أن موسى قد بذل جهداً آخر لاستكمال فتح غرب الأندلس حيث أورد لنا الدكتور حسين مؤنس بعض نماذج التنظيم الإداري لهذا الاقليم ومن ذلك الصلح الذي عقد مع أهل قلمرية Coimbra في أقصى غربي الأندلس ، ومن ذلك النص يشير د مؤنس إلى أن " أهم ما في هذه المعاهدة هو أن يكون لأهل قلمرية الحق في أن يحكموا أنفسهم بقوانينهم التي تعودوا أن ينظموا بها أمورهم قبل مجئ المسلمين ، وأن يكون لهم حاكم منهم يقوم بالقضاء بينهم ، وينفذ الأحكام فيما عدا احكام الاعداء إذ كان لابد من عرضها على الحاكم الاسلامي المقيم . وكان هذا العامل المسلم يقيم في قلمرية ممثلاً لسلطان المسلمين ، ومعه حامية تؤيده وتحميه ، وتمنع النصارى من الانتفاض عليه ، فإذا وقعت

خصومة بين مسلم وواحد من أهل البلاد كان لابد من عرضها على الحاكم المسلم الذي يقضى فى الأمر بمقتضى الشريعة الإسلامية ، وإذا اعتدى نصرانى على مسلمة الزم باعتناق الاسلام والزواج منها ، فإذا كانت متزوجة لم يكن له من الموت بد (١٦).

غروب الاندلس فى ظل الحكم الاسلامى :

حقل تاريخ غرب الاندلس السياسى بالكثير من الفتن والقلقل والثورات السياسية وذلك بحكم الموقع الجغرافى ، وبعدة عن العاصمة ، وسهولة اتصاله بالبحر المحيط من ناحية وممالك الشمال المسيحية من جهة أخرى ومن ثم فلا عجب أن ظهرت شخصيات بارزة مثل ابن مروان الجليقى ، الذى كان أكثر ثوار المنطقة شكيمة وشدة مما حمل امراء بنى أمية على إيفاد الحملات تلوا الحملات لاختضاع هذا الاقليم ، ويسط سيادة الدولة الاندلسية عليه .

كما كان هذا الاقليم مسرحا لهجمات النورمانديين الذى حطوا على سواحله الغربية على عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ثم تواصلت حملاتهم على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، إلى أن عاودوا الظهور على شواطئ الأندلس بعد ذلك فى عصر الخلافة .

كما شهدت مناطق غرب الاندلس ازدهارا حضاريا حقيقيا ، وكانت فيه المدن الزاهرة كمدينة أشبونة عاصمة البرتغال حاليا ومدينة شلب مرتع شباب المعتمد بن عباد ، ومدينة بطليوس خاضرة بنى الأفطس والذين كانت أيامهم فى غرب الأندلس اعيادا ومواسما وكانوا ملجأ لأهل الأدب (١٧) ١٢.

كما برز من أهل المنطقة بعض القضاة الذين ارتقوا إلى مكانة قاضى الجماعة فى الاندلس مثل القاضى سعيد بن سليمان الغافقى والذى كان رجلا صالحا متقشفا مهيبا متمسكا برأيه عندما يكون على حق ، وقد ولاه الأمير محمد الذى تعرف عليه جيدا حينما كان الأمير محمد أميرا على ماردة وسعيد بن سليمان قاضياً عليها (١٨). ومنهم أيضاً كل من قاضى الجماعة معاذ بن عثمان الشعبانى ، والقاضى سعيد بن قاضى الجماعة محمد بن بشير بن شراحيل .

والى جانب هؤلاء القضاة هناك عدد آخر من أبرز الشخصيات العلمية والأدبية التي نعت وتبرعت على أرض غرب الأندلس ، ومنهم الفقيه الجليل أبى الوليد الباجى والذي رحل إلى المشرق ، وعاد إلى الأندلس حاملا العلم كله ، وكم ناظر العلماء وبزهم والأدباء فرعهم ، وأصطدم بالفقيه العظيم ابن حزم الأندلسى والذي ترجع أصوله أيضا إلى قرية فى غرب الأندلس هى " وليه " ولابد من الإشارة إلى شاعر الأندلس الكبير ابو بكر محمد بن عمار ابن مدينة " شلب " وهو الرجل الذى ارتقى به شعره ليجعله نديما للمعتمد بن عباد ، ثم وزيرا ، حتى طمحت نفسه إلى الإمارة ، وكان ذلك الطموح سبب أهلاكه فى ملحمة درامية تجمع بين الصداقة والحب والسلطة والكراهية .

ومن أهل الغرب أيضا الوزير أبا محمد عبد المجيد بن عبدون صاحب المثرية الذائعة الصيت التى تسمى بالقصيدة العبدونية والتى مطلعها

الدهر يفجع بعد العين بالآثر

فما البكاء على الأطلال والصور (١٩)

واختتم هؤلاء بالإشارة إلى ابن بسام الشنترينى الكاتب المؤرخ صاحب كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ولقد ضاعت بلاد غرب الأندلس بعد هزيمة الموحدين فى معركة العقاب التى وقعت فى العشرين من محرم ٦٠٩ هـ / يونية ١٢١٢ م . اجتمع عليها ملوك ممالك النصرى شمال الأندلس حتى اخرجوها من أيدي المسلمين ، هذا هو الاقليم الذى اهتم به المؤرخون الاسبان اهتماما بينا وها أنا أقدم ترجمة لواحد من الأبحاث التى كتبت عن هذه الناحية .

من هو فرانشيسكو قوديرة Francisco Codera Zayad in

ولد فرانشيسكو قوديرة عام ١٨٣٦ ميلادية وانتقل إلى جوارريه عام ١٩١٧ ، وأصبح واحدا

من أهم المستشرقين الأسبان ووصل إلى كرسى استاذية اللغة العربية والإسلام بجامعة مدريد، كما احتل مكانه فى مجمع الخاندن باسبانيا كمضو فى الأكاديمية الملكية الأسبانية للغة La Real Academia Espanola de la lengua * وكذلك الأكاديمية التاريخية (٢٠).

La real Acodemia de Histroi. ولقد اشرب كوديرة حب العرب ، ويقال انه ينحدر من اسرة عربية الأصول شأن كثير من الأسر الأسبانية ، واختار لاسمه صيغة عربية هي " الشيخ فرنسيته كدارة زيدى " .

كان كوديرة يمثل نقطة تحول بارزة فى نظرة المستشرقين الأسبان إلى التراث العربى والإسلامى ، فقد عمل على تحقيق كم ضخم من المخطوطات العربية وأصدر ما أسماه بالمكتبة الأندلسية Bibelioteca Arabigo - Espanola ، ولعل هذا أو تحقيق لتلك المجموعة ومنه نقلت الطباعات التالية لها .

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة بأنه " لعل كوديرا هو المستشرق الوحيد الذى علا صوته بمدح المسلمين ، وتمجيد أعمالهم وإعلان فضلهم على الحضارة الإنسانية ، وحفاظهم على التراث القديم (٢١)* .

أهمية هذه الدراسة :

تكمن أهمية الدراسة فى ذلك المجهود العظيم الذى بذله كوديرة لى يجمع انباء غرب الأندلس فى المصادر العربية ويقدمها لقراء الأسبانية وهناك نقطة أخرى ذات قيمة واضحة وهى مقارنة الروايات الإسلامية بالروايات الواردة فى المصادر الأسبانية القديمة ، ووصوله الى مجموعة من الحقائق أهمها صدق الروايات الإسلامية وتطابقها مع الواقع ودقتها على العكس مما ورد فى المدونات الأسبانية والتى غلب عليها فى بعض الأحيان عدم الدقة واللجوء أحياناً الى قبول بعض الروايات التى يمكن ان تقبل فى الأدب الشعبى ولكن لا يمكن القول بها فى مدونة تاريخية .

ملاحظة أخيرة

تمكنت والحمد لله من العودة الى النصوص الاصلية التي اعتقدت ان المؤرخ اعتمد عليها في ترجمته ، وسجلت في الهوامش اين يمكن للقارئ الكريم الاطلاع على النصوص الاصلية في مصادرها الاسلامية .

والله ولي التوفيق

هوامش الدراسة

- ١ - المقرئ : نفح الطيب ، طبعة يوسف البقاعى ج ١ ص ١٣٢
- ٢ - مؤنس : رحلة الاندلس ، الشركة العربية للطباعة والنشر الطبعة الاولى ١٩٦٣ ، ص ١٣٢ .
- ٣ - : انظر روايات الفتح الاسلامى للاندلس فى نفح الطيب ج ١ ص ٢١٩ وما بعدها ، وكذلك كتابى الفتح الاسلامى ، مطبعة سعيد رأت بالقاهرة عام ١٩٨٥ ص ١٠٨ وما بعدها .
- ٤ - ابن عذارى : البيان المغرب ، طبعة دار الثقافة ببيروت ج ١ ص ٢
- ٥ عبد المجيد تغنى : الاسلام فى طليطلة طبعة دار النهضة العربية . د . ت ص ١٩
- ٦ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩ والمقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٩ وكذلك الفتح الاسلامى للاندلس ص ١٢٤ .
- ٧ - ابن القوطية تاريخ الاندلس ، ص ٣٥
- ٨ - انظر تفاصيل ذلك فى كتابى " الفتح الاسلامى للاندلس ص ١٣٢ وما بعدها .
- ٩ - المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٧ .
- ١٠ - نفس المصدر ج ١ ص ٢٥٧
- ١١ - السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وأثارهم . ص ٩٥ . وليس لذلك أية إشارة فى مصادرنا الاسلامية اللهم الا ان موسى قد ضم اليهود الى حامية المدينة بعد ذلك . انظر اخبار مجموعة ص ٧ ، والنفح ج ١ ص ٢٦٩ .
- ١٢ - اخبار مجموعة ص ٧ نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٩ .

١٣ - اخبار مجموعة ص ١٦ . ويقول المقرئ : وكانت أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الاندلس في
 سالف الدهر ذات عز ومنعة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة
 الوصف ، فحاصرها أيضاً ، وكان من أهلها منعة شديدة وبأس عظيم (النفح ج ١
 ص ٢٧٠)

١٤ - السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص : ٩٥ - ٩٦ .

١٥ - المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧١ ،

١٦ - حسين مؤنس في فجر الاندلس ، طبعة القاهرة ١٩٥٩ م ص ٢٩٩ .

١٧ - محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الاندلس ، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨٢
 ص ١٧٠

١٨ - الخشنى : تاريخ قضاة قرطبة ، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦
 ص ٦١ ، والنباهى : تاريخ قضاة الاندلس ، طبعة بيروت د . ت ص ٥٤

١٩ - حسين مؤنس : رحلة الاندلس ص ٤٠٣

٢٠ - Diccionario ilustrado de la lengua Espanoal Enciclopedia Uni-
 versided Sopina Tomo 2 - P.2054

٢١ - مصطفى الشكعة : المغرب والاندلس ، دار يالكتاب اللبنانى بالقاهرة ، الطبعة الاولى
 ١٩٨٧ ص ٤١ .

بنو مروان في ماردة وبطليوس

دراسة نقدية للتاريخ الاندلسي

Los Benimeruam en Mérida y Badajoz

Estudios Criticos de Historia a' rabe

Espanola .

Madrid 1917

بقلم فرانثيسكو كوديرا

عضو مجمع اللغة والتاريخ باسبانيا

Francisco Codera

De les Reales Academias Espanola

y de la Historia

بنو مروان فى ماردة وبطليوس

مقدمة

بدأت فحوصا متأنيا لأوراقى وملاحظاتى التى سبق أن نوتتها وذلك بناء على رغبة صديق كريم هو الدكتور ادوارد سافدرا ، الذى رجانى أن أقدم لأحد أصدقائه كل ما يتعلق بمنطقة بطليوس وابن مروان الجليقى ، حيث أن صديقه هذا يعمل على إصدار كتاب تاريخى عن مدينة بطليوس .

جمعت كل ما رأيته مناسباً لهذا الكتاب ، وطرحت عدة صفحات رأيت فيها الكفاية للغرض المطلوب ، ونويت إرسال ذلك كله إلى الصديق المشار إليه . لكننى حين قرأت ذلك كله على صديقى الدكتور سافدرا رأى فضيلته أنه سيكون من الصعب على أى شخص غير متخصص فى الدراسات العربية الاستفادة مما أعدته وأرجع ذلك إلى التعقيدات الكثيرة فى هذه المعلومات ، وما بها من معلومات متضاربة وما يحيط بالكثير من المعلومات من شكوك وارتياب ، وقلة الوقائع المؤكدة التى تمكنا من فهم سير الأحداث فى هذه المنطقة ومن ثم دعانى صديقى الدكتور سافدرا إلى كتابة مقالة خاصة ونشرها متضمنة تلك التفاصيل والمعلومات التى أتيت إلى جمعها ، وبالتالي يمكن لصديقه بعد ذلك الاستفادة من هذه المقالة .

وكان على أن أعود مرة ثانية لمراجعة بطاقات بحثى ، وتوسعت فيها ، وقمت بتغيير العنوان أيضاً ليشتمل على أحداث مدينة ماردة . وبعد تعمقى فى العمل وجدت أنه لا مناص من الإشارة إلى كل الأحداث الهامة والمثيرة المتعلقة بغرب الأندلس عامة والتى أشار إليها المؤرخون المسلمون ، ومن هنا كان على تصحيح وزيادة إيضاح ما كان لدى من بيانات مسجلة .

٢١٩

بنو مروان في ماردة وبطليوس

دراسة نقدية للتاريخ الاندلسي

Los Benimeruam en Mérida y Badajoz

Estudios Criticos de Historia a' rabe

Espanola .

Madrid 1917

بقلم فرانثيسكو كوديرا

عضو مجمع اللغة والتاريخ باسبانيا

Francisco Codera

De les Reales Academias Espanola

y de la Historia

بنو مروان فى ماردة وبطليوس

مقدمة

بدأت فحفا متأنيا لأوراقى وملاحظاتى التى سبق أن دونتها وذلك بناء على رغبة صديق كريم هو الدكتور انوار سافدرا ، الذى رجانى أن أقدم لأحد أصدقائه كل ما يتعلق بمنطقة بطليوس وابن مروان الجليقى ، حيث أن صديقه هذا يعمل على إصدار كتاب تاريخى عن مدينة بطليوس .

جمعت كل ما رأيته مناسبا لهذا الكتاب ، وسطرت عدة صفحات رأيت فيها الكفاية للغرض المطلوب ، ونويت ارسال ذلك كله إلى الصديق المشار إليه . لكننى حين قرأت ذلك كله على صديقى الدكتور سافدرا رأى فضيلته أنه سيكون من الصعب على أى شخص غير متخصص فى الدراسات العربية الاستفادة مما أعدته وأرجع ذلك إلى التعقيدات الكثيرة فى هذه المعلومات ، وما بها من معلومات متضاربة وما يحيط بالكثير من المعلومات من شكوك وارتياح ، وقلة الوقائع المؤكدة التى تمكنا من فهم سير الأحداث فى هذه المنطقة ومن ثم دعانى صديقى الدكتور سافدرا إلى كتابة مقالة خاصة ونشرها متضمنة تلك التفاصيل والمعلومات التى أتيج إلى جمعها ، وبالتالي يمكن لصديقه بعد ذلك الاستفادة من هذه المقالة .

وكان على أن أعود مرة ثانية لمراجعة بطاقات بحثى ، وتوسعت فيها ، وقمت بتغيير العنوان أيضا ليشتمل على أحداث مدينة ماردة . وبعد تعمقى فى العمل وجدت أنه لا مناص من الإشارة إلى كل الأحداث الهامة والمثيرة المتعلقة بغرب الأندلس عامة والتى أشار إليها المؤرخون المسلمون ، ومن هنا كان على تصحيح وزيادة ايضاح ما كان لدى من بيانات مسجلة .

ولولا الرغبة الملحة في أن يرى هذا العمل النور سريعا لكان يمكن الاستفادة منه في إعداد تاريخ بطليوس والذي كان السبب الأساسي الذي حركني لكتابة هذا المقال لتأخر ظهوره مدة طويلة ذلك بسبب كثرة التعقيدات والنقاط الغامضة التي كان على أن أوضحها ولم يكن ذلك عملا صعبا فحسب لكنه كان يعني أن هذا المقال لن يرى منشورا قبل مضي وقت طويل جدا لأن مشاغلي واهتماماتي الحالية تضطرنني أن أكون بعيدا عن كتبي ومصادري العربية وأن أظل كذلك لعدة شهور قادمة على الأقل .

فرانثيسكو فوردريز

مأودة :

سجل التاريخ لهذه المدينة إنها صمدت صموداً شديداً في مواجهة قادة الفتح الاسلامي للاندلس ، وإنها وأن استسلمت للأمير موسى بن نصير إلا أن ذلك لمن يكن إلا بعد مقاومة كبيرة وإن لم تصل في مقاومتها إلى ذروة عالية ولقد سجل التاريخ أيضاً أن هذه المدينة هي من أكثر مدن الاندلس تمرداً وعصيانياً وخروجاً على أمراء بنى أمية الاندلسيين ، ولعلها في هذا المضمار تنافس مدينتي طليطلة وسرقسطة وإذا كانت مأودة لا تصل إلى مرتبتهما في مجال الثورة والتمرد إلا أنها ولا شك تشترك معهما في كونهم أكثر مدن الاندلس تمرداً وعناداً وثورة ضد بنى أمية .

لقد مرت بلاد الاندلس بفترة تاريخية عصيبة خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى ، بل وأمتد ذلك حتى نهاية العقد الاول من القرن الرابع الهجرى حفلت خلالها بالثورات وكانت هناك ثورة عمرو بن حفصون وغيرهم من الثوار والخارجين بعضهم ممن تحالف معهم ، وبعضهم تمرد لحاسبه الخاص حتى أصبح سلطان بنى أمية فى الاندلس على شفا الهاوية وكانت ابن قعصف به رياح هذه الثورات تماماً وكان لثوار غرب الاندلس فى هذا المجال دور بارز وإن لم يكن بينهم وبين ابن حفصون أى تحالف أو اتفاق على الوصول بحكم بنى أمية إلى هذه الطامة التتويجية .

خلال هذه الحقبة التتويجية ، وإبان تلك الفترة الزمنية الطويلة كان المحرك الاساسى للأحداث ثغرى مأودة أولاً وفى بطليوس بعد ذلك واحدة من العائلات التى لا نملك الكثير من المعلومات عن أصلها أو نشأتها على الرغم من شهرة بعض أفرادها شهرة كبيرة . حالة واحدة فقط هى التى نملك بيانات تفصيلية نوعاً ما وهى متعلقة بأحد أبناء هذه الاسرة اسمته المصادر العربية د. (ابن مروان الجليقى) ولا شك ان المصادر قد اسمته بذلك الاسم لعلاقته

الحميمة مع الفونسو الثالث المقلب (بالفونسو الكبير) ، مع أنه قد سبق لأحد المؤرخين أن أشار إلى أسم لأحد الافراد (بابن مروان الجليقي) وذلك ضمن فترة تاريخية سابقة لذلك بمدة طويلة ضمن زعماء مدينة ماردة فإننا لكي نتمكن من دراسة تاريخ هذه الاسرة ولكي نستطيع - ما أمكن - ترتيب أمراء بنى مروان والشعوب التي كان لها علاقة بها فإن علينا ان نجمع على بساط واحد كل البيانات والحقائق المتعلقة بغرب الاندلس ليس على مدار القرن الثالث الهجرى كله وحسب ولكن يجب ان يشمل ذلك أيضا السنوات الأولى من القرن الرابع الهجرى أى من عام ٢٠٠ هـ إلى ٣١٧ هـ (١٥٨ - ٩٢٩ م) وسيكون إعتعادنا فى ذلك على ما يمكن الحصول عليه من المصادر والمذونات العربية .

وحتى أكون واضحا ومازلنا فى بداية الحديث ولكي لا يتعلق القارئ بوهم خادع أو لكي لا يتعلق بأمل كاذب فى الحصول على معلومات وافية جدا أو حتى على الأقل فى تسلسل طبيعى متواصل حول احداث منطقة غرب الاندلس خلال هذه الحقبة فإننى أؤكد باننى ساقدم فقط المعلومات المتفرقة التى أمكننى الحصول عليها فقط فإنه ليس من واجبنا هنا التصميم على الربط بين هذه الأحداث بل سنجد انفسنا فى كثير من الاحيان لا نجرؤ على ما هو أكثر من تقديم ترجمة للنصوص العربية التى بين أيدينا وعلينا أن نمضى فى ترتيب هذه الأوراق ترتيبا زمنيا ففى كتاب المؤرخ ابن سعيد معلومة غير مسجلة عند غيره من المؤرخين المسلمين يقول فيها (أنه فى ٢٠١ هـ) (٨١٦ م) نقض أهل ماردة عهدهم مع الحكم وصاروا بزعامه ابن مروان الجليقي (١) .

ويمكننا التشكيك فى هذه المعلومة لحد ما ، حيث لم نجد فى أى مكان آخر أى إشارة إلى ثورة ماردة هذه أو أى معلومة عن هذا الذى يسمى مروان الجليقي ، ويمكننا ان نعتقد ان هذه المعلومة أنما تشير إلى ابن مروان التى سنتحدث عنه فيما بعد . ولكن بما انه واضح ومحدود ، ليس لدينا من المعلومات ما ينقضه ، فانه يمكننا قبول النص ولو كان من باب

الاحتمال والترجيح والقول بان (مروان هذا) ، إن لم يوجد خطأ في الاسم يمكن ان تنتسب إليه اسرة) (بنو مروان) .

كما اتنا وجدنا رواية عند ابن الاثير لم يروها غيره كذلك عند الحديث عن عام ٢٠٢ هـ - ٨١٨ م ، حيث يقول : وفيها ظهر بالاندلس رجل يعرف (بالولد) وخالف على صاحبها فسير إليه جيشا فحاصروه في مدينة باجة وكان قد استولى عليها فضيقوا عليه فملكوها وقيد (٢) . لا نملك بين ايدينا اية معلومات تؤكد أن ثورة ماردة عام ٢٠١ هـ قد قضى عليها الأمير الحكم ابن هشام أو ابنه عبد الرحمن بن الحكم المعروف بعبد الرحمن الثاني والذي خلف والده في سدة الحكم عام ٢٠٦ هـ (٣) .

وفي عام ٢١٠ هـ يقول لنا ابن سعيد رواية أخرى غاية في الأهمية والطرافة إذا ما صدقت كلماته ولعلها كذلك لانه ليس هناك مبرر لدحضها والنص على النحو التالي : وفي سنة عشر ومائتين (٨٢٥ م) أمر عبد الرحمن عامله جابر ابن مالك بان يتخذ من بيته منزلا للولاية ويحرك سفنه إلى حصار طليطلة وماردة وفتح حصون كثيرة من جليقة (٤) .

وحيث أننا لم نجد في أى مصدر آخر أية إشارة إلى أحداث تلك السنة حتى يمكننا القيام بالمقارنة والربط بينها وبين ما يقوله ابن سعيد فإنه لا يسعنا إلا ان نترك للقارئ الكريم فرصة تقييم هذا النص بالطريقة التي تبيح له أكثر ملائمة .

وفي عام ٢١١ هـ فقد أشير إلى رسالة أرسلها Ludvico Pio إلى أهل ماردة يحثهم فيها على الثورة ويعرض عليهم المساعدة والحماية وهناك بعض المؤرخين من يرى ان تلك الرسالة وجهت إلى أهل سرقسطة ولم تكن موجهة بأى حال إلى أهل ماردة ومع أنني سبق لى الحديث عن هذه الرسالة في بحث آخر ناقشت فيه مسألة توجيه الرسالة إلى أهل ماردة لأننى لم أكن قد تبين وجود مقاومة من أهل هذه المدينة ضد أمراء بنى أمية فى قرطبة والآن فأننى

أميل الآن إلى أنه في حدود هذا التاريخ فقد بدأت بعض مظاهر الثورة والتمرد بدأ من عام ٢٠١ هـ وأنها قد أصبحت واضحة جدا وأصبح من الممكن قبول بأن Ludvico Pio قد أقام علاقات مع المتمردين (٤) . والتأثرين لكي ينظموا صفوفهم في وجه عدوهم المشترك .

وفي ٢١٣ هـ بدأت في ماردة بعض الحوادث المتتابعة زمنيا والتي ستتوالى في الأعوام التالية ويفصلها لنا مؤرخون عرب ونصارى فإين الأثير على الرغم من إلتزامه الصارم بالتسلسل الزمني في روايته للأحداث إلا أنه يحدثنا عن ثورة في ماردة عام ٢١٣ هـ ثم يحدثنا عن مجموعة أخرى من الحملات وقعت في أعوام أخرى متتالية فهو يقول (فيها قتل أهل ماردة من الأندلس عاملهم وسارت الفتنة عندهم فسير إليهم عبد الرحمن جيشا فحصرهم وأفسد زرعهم وأشجارهم فعاودوا الطاعة وأخذت رهائنهم وعاد الجيش بعد أن خربوا سور المدينة ثم أرسل عبد الرحمن إليهم بنقل حجارة السور إلى النهر لئلا يطمع أهلها في عمارتهم فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان وأسروا العامل عليهم وجددوا بناء السور وأتقنوه فلما دخلت سنة أربعة عشر سار عبد الرحمن صاحب الاندلس في جيوشه إلى ماردة ومعه رهائن أهلها فلما بارزها راسله أهلها ، وأفتكوا رهائنهم بالعامل الذي أسروه وغيره . وحصرهم وأفسد بلادهم ثم رحل عنهم ثم سير إليها جيشا سنة سبعة عشر ومائتين فحاصروها وضيقوا عليها ودام الحصار ثم رحلوا عنها فلما دخلت سنة ثمان عشرة سير إليها جيشا ففتحها وفارقها أهل الشر والفساد وكان من أهلها أنسان اسمه محمود بن عبد الجبار الماردي فحصره عبد الرحمن بن الحكم في جمع كثير من الجند فصدقه القتال فهزمه وقتلوا كثيرا من رجاله ، وتبعته الخيل في الجبل فافتنهم قتلا وأسرا وتشريداً ومضى محمود بن الجبار الماردي في من سلم معه من أصحابه إلى (منت سالوط Mante Salud) فسير إليه عبد الرحمن جيشا سنة عشرين ومائتين فمضوا هاربين عنه إلى حقل في ربيع الآخر منها فأرسل سرية في طلبهم فقاتلهم محمود فهزمهم وغنم ما معهم ومضوا لوجهتهم فلقبهم جمع من أصحاب عبد الرحمن مصادقة فقاتلهم ثم كف بعضهم عن بعض وساروا

فلقبهم سرية أخرى فقاتلوهم فانهزمت السرية وغنم محمود ما فيها وسار حتى أتى مدينة " مينة " فهجم عليها وملكها وأخذ ما فيها من الدواب والطعام وفارقوها فوصلوا إلى بلاد المشركين فاستولوا على قلعة لهم فاقاموا بها خمسة أعوام وثلاثة أشهر فحصرهم ادفونس ملك الفرنج فملك الحصن وقتل محمود ومن معه وذلك في سنة خمس وعشرون ومائتين في رجب وأنصرف من فيها (١) .

يقدم لنا ابن سعيد معلومة مثيرة حول موت محمود ابن عبد الجبار رغم انه لا يهتم كثيرا بحملاته فيقول عنه (في سنة ٢٢٥ هـ مات محمود بن عبد الجبار البربري الشجاع الثائر في ماردة المقاتل ضد جنود الأمير عبد الرحمن مدة طويلة والذي حاز شهرة كبيرة لشجاعته كان قد هرب إلى أدفونس وطمع في العودة إلى طاعة الأمير عبد الرحمن وكان يقيم في قلعة بقشتالة ودخل في حرب ضد الأدفونش فجمع به حصانه في إحدى المعارك فاصطدم به في شجرة من البلوط فسقط ميتا وظل جسده مسجى على الأرض فترة طويلة يحيط به فرسان النصراني ولا يجرون على الاقتراب منه خشيه وهيبه أن يكون ذلك منه حيلة للإيقاع بهم (٢) يستدل من ذلك النص - إذا كان المؤرخ فيما نقل - أن محمودا حاول العودة إلى طاعة الأمير عبد الرحمن الأموي ، أما اشارته إلى كونه بربريا فلعل مرجعه إلى الاهمية الكبرى التي تمتع بها البربر في مدينة ماردة وإن لم نؤكد لنا المصادر الأخرى تلك الصفة في نسب محمود بن عبد الجبار .

وأقد قدم لنا ابن خلدون والنويري بعض المعلومات عن هذه الأحداث مع اختلافات بسيطة ، وإن أغفلا بعض التفاصيل وأهملا البعض الآخر ، ومما هو جيد بالذكر اغفال ابن خلدون لحملة سنة ثمان عشرة ومائتين حيث خلط بينها وبين حملة مائتين وعشرين من الهجرة .

ولقد أشار ابن عذارى إلى حملة ٢١٧ هـ لكنه خلط بينها وبين حملة العام التالي ، ولم يزد في قوله على أكثر من الإشارة إلى أن ماردة حوصرت ، وأن الحصار قد اشتد عليها ، وهرب

منها كثيرون وقتل منهم كثير .^(٨)

أما صاحب كتاب أخبار مجموعة فقد أشار إلى هذه الأحداث وصاغها على النحو التالي :
 " وغزا ماردة - يقصد الأمير عبد الرحمن الأوسط - سبعة أعوام ولاء ، فلما كان العام السابع ، وأشفى بهم على العطب ، نظر إلى جنده قد تعلقوا بشرفات السور وتغلبوا عليه ، وضعف أهل ماردة عن دفاعهم ، فسمع صراخ النساء وعويل الصبيان ، وعجيج البكاء ، فأمر بالامساك عنهم - وقبض أهل العسكر عن قتالهم ، ثم دعا بوزرائه وقواده - وقال لهم : قد علمتم ما كان من تغلب حشمتنا ورجالنا على هؤلاء الظلمة لأنفسهم ، ولم يكن رفعنا بارفعناه عنهم الا رغبة لله عز وجل فيهم ، وتخوفا من قتل ولدانهم وأطفالهم ، ومن لا ذنب لهم ممن استكره على نفسه منهم ، ونحن نرى استجلاب النصر من حيث عودنا الله وعرفنا من العفو والصفح ، وقد عزمنا على الانتقال عنهم ، فإن أبصروا قدر يدنا في الإبقاء عليهم ، ومراقبة الله فيهم والا كان الله من ورائهم محيطا ، وعلى الانتقام منهم قديرا ، فهو الذي أيدنا وقهرهم ، ونصرنا وكبتهم .

فلم ينتقل إلا محلة حتى آتتهم رسلهم بطاعته والالقاء إليه بأيديهم^(٩).

يلاحظ على هذا النص انه لا يحدد تاريخا ، ولكن بما ان الثورة قد بدأت في عام ٢١٢ هـ - ، وأن المدينة قد استسلمت في عام ٢٢٠ هـ على ما قال ابن خلدون في موضع آخر فإن ذلك قد يعنى ان الأمير كان على رأس قواته بنفسه في حصار المدينة ، ومن المحتمل ترك ماردة الذي اعقب تمردها عام ٢٠١ هـ والذي وصل إلينا بعض الاشارات عنه .

يشير كتاب المدونات النصرانية إلى وصول محمود بن عبد الجبار إلى جليقية Galecia ، وإن افترضوا استقباله بواسطة الملك الأسباني الفونسو القى Alfonso El Casto الذي تمرد عليه فيما بعد متحصنا في قلعة القديسة كريستينا Santa Critina التي قدمها له

الملك الاسباني لكى يقيم فيها (١٠) .

علم الملك الفونسو بتمرد محمود بن عبد الجبار فى قلعة القديسة كريستينا ، وأنه قد أخذ يعيث خرابا فى منطقة جليقية ، فهب يعد العدة لقتاله ، وجمع جيشا قويا ، اتجه به لمواجهة هذا التمرد وحاصره فى القلعة ، وسقط محمود بن عبد الجبار صريعا فى هذا القتال .

وكما ترى فان هؤلاء المؤرخين لا يقدمون تلك المعلومات الا بصورة غامضة وعامة ، وليس من بينهم الا Silense فهو الكاتب الذى يقدم لنا صورة تفصيلية ، فهو يفترض وصول محمود بن عبد الجبار إلى اشتوريس Asturia فى العام الثلاثين من حكم الملك الفونسو التقى أى عام ٨٢١ م الذى يقابل عام ٢٠٥ أو ٢٠٦ هـ ، ولا شك ان فى ذلك التاريخ خطأ لا يقل عن خمسة عشر عاما على الأقل ، ويضيف هذا المؤرخ قائلا ان محمودا ، بعد سبع سنوات ، قد تمرد على حاميه وملكه وأنه قد جمع حوله جيشا كبيرا دمر به كافة انحاء منطقة جليقية ، وعلم بذلك الفونسو التقى فاسرع بجيشه إلى هناك مما أربع محمود ، ورغم ثقته بنفسه وبجيشه ، وحتى لا يقع بين أيد رجال الجيش الملكى فقد لجأ هو ومن معه إلى قلعة عرفت باسم القديسة كريستينا Santa Cristina . حاصر الملك الفونسو القلعة بجيش ضخم قوامه عشرة آلاف وتمكن رجاله من تحطيم الأسوار وتسلقها ، قتل محمود فى لحظات القتال الأولى ، وحملت رأسه إلى الملك الفرنسى ، فى نفس اليوم . وعلى ما يقول المؤلف ، فإنه فى نفس اليوم وقعت مذبحه بشعة ضد هؤلاء المتمردين من الاسرائيلين ، كما قتل فى هذه المعركة خمسون الفا البرابرة* (١١) .

ولا شك ان الرقم مبالغ فيه جدا ، وعلى الرغم من أن نفس الرقم قد أورده المؤرخ سباستيان الشلمنقى Sebastian de Salamanca الا أن القارئ المحنك ، يمكنه - حسب معياره فى الحكم - ان يحذف صفرا أو صفرين أو ثلاثة أصفار من هذا الرقم .

وفى وثيقة نشرها الأب ريسكو El Podre Risco بان الملك الفونسو ذاته قد اشار إلى هذا

الأحداث كهدية إلى كنسية مدينة لوجو عام ٨٧٠ م ، ولقد صححها المحقق إلى عام ٨٢٢ م لكن هذا العام الميلادى يقابل فى التواريخ الهجرية سنة ٢١٦ أو ٢١٧ هـ ، ومن ثم فإن الوثيقة التى تشير إلى وفاة محمود تكون قد كتبت قبل وفاته بسبع أو ثمان سنوات مما يضيف على الأحداث مزيدا من الشك .

ماذا تفعل أمام هذا الطوفان المتناقض فى تحديد التواريخ الخاصة بأحداث ثورة محمود ومقتله ، والتى يتناقض فيها المؤرخون المسلمون والنصارى على حد سواء ؟ وماذا نقبل منهم ؟ من الطبيعى أن القارئ لا يرى هناك أى شك فى ضرورة الأخذ برواية المؤرخين الاسبان المسيحيين حيث لا يكتفى بإيراد نصوص مؤرخ معاصر فحسب بل أنه أيضا رجل قد شارك فى الاحداث بنفسه على ما توحى لنا للوهلة الأولى الوثيقة الخاصة بكنيسة لوجو Iglesia de Lugo ، ولئن إذا ما تمعنا الأمر فى هذه الوثيقة المفترضة من الملك الفونسو إلى هذه الكنيسة ، وقد سبق لنا ان شككنا فى صحتها ، فإننا نتبين مدى وهنها وضعفها إن لم نصل إلى القول المؤكد بزيفها وعدم صحتها .

من ناحية أخرى فإن روايات المؤرخين المسلمين الذين سبقت الإشارة إليهم تتناول بكل تفصيل زمن الاحداث التى ارتبط بها محمود بن عبد الجبار ، وتأتى هذه الاخبار - فى معظمها - منسقة ولا تبو احوالها غير مقبولة بصورة واضحة على ما هو الحال عليه فى روايات المؤرخين اللاتين تأتى الوثائق التى نعتبرها مصادر معرفتنا بتاريخ محمود وعلاقاته بالملك الفونسو فى هجونات المؤرخين :

Sebastion de Salamanca , el Albeldense g el Silense.

ولتوقف أمام مدونة " البلدى " El Albeldense ، أقل هؤلاء الثلاثة عرضا لنحلل بعض ما قاله من أخبار أو معلومات . فنلاحظ أنه لا يسجل تاريخا معينا ، وجاءت روايته مختصرة على النحو التالى ، هرب محمود من ملك قرطبة ، ولجأ إلى الملك الفونسو ملك اشتوريس ،

الذى استقبله استقبالا كريما ، ثم بعد فترة ثار محمود فى منطقة جليقية ، واحتفى فى قلعة القديسة كريستينا S. Cristina حيث حاصره الملك وقتله واستولى على القلعة بكل ما كان فيها .

أما المؤرخ المعروف باسم سبستيان الشلمنقى Sebastian de Salamanca ، فإنه يقدم لنا معلومات أكثر تفصيلا ، فهو يجدد لنا تاريخ وصول محمود إلى أشتوريس ، وإن جاء ذلك بطريقة غير مباشرة ، وإنما ضمن إشارته إلى وقائع وأحداث فى العام الثلاثين من حكم الفونسو (٨٢١ م أو ٢٠٥ أو ٢٠٦ هـ) وإن هذه محمودا ، وقد كان يطلق عليه Mahzemuth وقد وصل إلى أشتوريس بعد الاحداث مباشرة ، وإنه عاش هناك حوالى سبع سنوات ، وفى العام الثامن جمع حوله جيشا من المسلمين ، وقام بسرقة ونهب جيرانه ، وأخيرا لجأ إلى قلعة كريستينا ، حيث حاصره هناك الملك الفونسو قادما بجيشه من مدينة أوفيدو Oviedo . وقتل محمود فى ساعات اللقاء الأولى ، وهوجمت القلعة ، وذبح بهاخمسون الفا من المسلمين الذين هبوا من الاندلس لمساعدة النافرين .

يتبين لنا كيف أخذ هذان المؤرخان المشار إليهما رواياتهما التاريخية من الحكايات الشعبية الشفوية مع شئ من التباين ، فالثانى منهما قد قبل كل شئ حتى ما لا يصدق ، فنجدده يصدق - حتى ولو قال العامه بذلك - أنه تجمع فى قلعة القديسة كريستينا خمسون الف مسلم وأنهم استسلموا بسهولة للذبح أمام جيش الملك الفونسو النقى وهو جيش - كما نعرف قد جمع على عجل ، ومن المؤكد أتع لم يصل أبدا إلى مثل هذا العدد من الاعداء .

أما المؤرخ صاحب المدونة المعروفة باسم " دى سيلوس " La Cronica de Silos ، وهو متأخر عن معاصرة تلك الاحداث بحوالى قرنين من الزمان ، فقد اعطانا تفاصيل أكثر وأوسع من سابقه ، فقد حدد تاريخ وصول محمود إلى بلاط الملك الفونسو فى العام الثلاثين من حكم هذا الملك بأنه - أى محمود - بعد سبع سنوات من إقامته فى جليقية تكبر وعلا

وتنمرّد على ملكه ومملكته ، ثم أخذ لا بسرقة جيرانه فحسب - وأنما بتدمير وتخریب كل اقليم جليقية ، مستخدما فى ذلك قوات قوية من المسلمين امكنه تجميعها ، ومع ثقته الكاملة فى عدته وعتاده وعدده ، فإنه حين علم بوصول الملك إلى اقليم جليقية أخذته الرعدة من الجيش الملكى ، وإنسحب إلى إحدى القلاع حيث لقي مصرعه فى ساعات اللقاء الأولى ، وقتل فى نفس المعركة خمسون ألفا من البربر ، دون أن يحدد إذا ما كان موت هؤلاء داخل القلعة أم خارجها .

من بين هؤلاء المؤرخين المسيحيين الثلاثة نجد أن أحدثهم هو الذى يحدد تاريخا لوصول محمود جليقية ، ومن ثم أيضا هو الذى يحدد لنا تاريخ وفاته ، ويتفق هذا التاريخ مع ما حدده المؤرخون المسلمون لثورة مدينة ماردة والتي استمرت حسب معظم الترجمات من سبع إلى تسع سنوات ، وفى نهايتها لجأ الناصر إلى مملكة اشتوريس .

لم يعرف المؤرخون النصارى أى شئ عن حياة محمود السابقة سوى أنه كان من ماردة ، وأنه هرب من الأمير عبد الرحمن ، أمير قرطبة ، وأن محمودا قد سبق له الثورة بمدينة ماردة . ومن كلمات مدونة Silos فإننا قد نلمح بعض الاشارات الى الهزائم التى أوقعها محمود بقوات الامير عن الجبل المعروف Monte Salud حين انسحابه إلى أراضي النصارى ، كما أننا نلمح أنه كانت لدى المؤرخ فكرة غامضة ومشوشة عن نوع من الاتفاق مع الناصر الذى رغب فى العودة إلى طاعة الامير القرطبي ، ومن هنا نفترض انه قد تلقى بعض المساعدات .

تبين لنا من هذا العرض كيف ان المؤرخين المسلمين قد قدموا معلومات أكثر تفصيلا عن هذه الاحداث ، ومقارنتها لرواياتهم تساعدنا فى توضيح مسلسل الاحداث بصورة طيبة على النحو التالى : لقد شارك محمود بصورة ايجابية فى ثورة ماردة ، وحينما استسلمت هذه المدينة انسحب محمود مع انصاره ، وشقوا لهم طريقا عبر اراضي الامير القرطبي حتى امكنهم الوصول إلى جليقية حيث استقبله الملك الفونسو وعقد معه سلاما وتمكن محمود مع

ذلك من الاستيلاء على إحدى القلاع . وحتى ذلك الحين لا نجد عند المؤرخين النصارى أى علم بتاريخ محمود السابق سوى أنه ثار على الأمير عبد الرحمن ، وهى معلومة إلى حد ما صادقة ، لأنه كان محمود يوره البارز فى ثورة ماردة ، وأنه كان واحداً من قواد هذه المدينة الرئيسيين وأن لم يصل إلى كونه قائد ثورة هذه المدينة .

أما ما أخذ به المؤلف السيلينسى Silanse من تحديد لا يتفق مع ما قال به المؤرخون المسلمون فأننا نرجعه إلى كونه مؤرخاً متأخراً يبعد كثيراً عن زمن الحادث ، أما الآخرون منهما فهما أكثر قدماً بل ربما كانا معاصرين تقريباً ومع ذلك فانهما لم يحددا تاريخاً فان ذلك لا يعنى تعارضاً فيما قال به المؤرخون المسلمون ، لأن قيام سبستيان الشلمنقى ، وصاحب منونة السيلينسى بتصديق الخبر القائل بمقتل خمسين من الف المسلمين فى قلعة القديسة كريستينا لدليل بين على عدم دقتهما ، ويبعث على الشك الكبير فى رواياتها .

لقد اتضح الآن بعد تلك الدراسة ، أن موت محمود قد وقع خلال عام ٢٢٥ هـ - ٨٣٩ / ٨٤٠ م ومن ثم لم يعد هناك مجال للحديث عن تلك الوثيقة التى تجعل موته فى عام ٨٣٢ م والتى زعم مؤلفها أن الفونسو قد قص هذه الاخبار فى كنيسة لوجو Lugo أو على الأقل فلتقل بوجود خطأ فى تحديد التاريخ فى هذه الوثيقة .

ونعد الآن إلى الأحداث التى جرت بعد عام ٢١٣ هـ والتى من خلالها ظهرت شخصية محمود .

يشير ابن الاثير ، وكذلك النويرى الى احداث عام ٢١٤ هـ فيقول " وفيها سار عبد الرحمن الاموى صاحب الاندلس الى مدينة باجة وكانت عاصية عليه من حين فتنة منصور إلى الآن فملكها عنوة " (١١) وحيث أننا لم نجد اسم هذا الثائر الذى أشار اليه ابن الاثير باسم " منصور مسجلاً فى أى منونة تاريخية اخرى غير ابن الاثير فأننا لم نستطع أن نحدد بداية تلك الثورة التى قامت فى باجة والتى اخدها عبد الرحمن عام ٢١٤ هـ .

وتأتى سنة ٢٢٠ هـ ، بعد استسلام مدينة ماردة وهروب محمود منها فمن المؤكد ان بعض

الاحداث الخطيرة قد وقعت فى هذه المدينة لأننا نجد الامير عبد الرحمن الاوسط وقد خرج على رأس جيشه عازماً على طليطلة * ولي أبا الشماخ قلعة رياح ، وأبقى عنده خيلاً كثيراً ورجلاً كثيرة لمناهضة طليطلة ، وتقدم هو إلى كور الغرب ، وكان سليمان بن مرثين ، وقد تحيل عليه يحيى الماردى فأخرجه من ماردة ، فكان فى قنن الجبال حيناً ، فحل عليه الامير فى هذه الغزاة ، وحاصره حتى ضاق سليمان بن مرثين فى الحصن فخرج ليلاً ، فبينما هو يمشى ، إذ وافق صخرة ملساء على وجه الأرض ، فزلق به الفرس ، فسقط ومات ، ووجده رجل ، فاجتز رأسه ، وادعى قتله ، ثم عرف امره^(١٢) وليس فى استطاعتى أيضاً تقديم اية ايضاحات حول هذه الاحداث لعدم وجود اية معلومات عن هذين الشخصين فى المصادر التاريخية الا عند ابن عذارى^(١٣) .

وعن سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م يحدثنا ابن عذارى قائلاً ، وفى سنة ٢٢٣ هـ أغزى الامير عبد الرحمن من الحكم اخاه الوليد من الحكم الى جليقية ، فدخل من باب الغرب مع قطع من العسكر ، ففوخها ، وكانت له فتوحات كثيرة^(١٤) .

ونصل الآن الى العام ٢٥١ هـ (٢ / ٢ / ٨٦٥ - ٢١ / ١ / ٨٦٦ م) دون ان نلتقى بأية معلومات عن هذا الاقليم اللهم الا بعض الترجمات لرجال الادب والتى قد لا تعيننا الآن فى هذا المجال .

يمثل عبد الرحمن بن مروان بن يونس المعروف بابن الجليقى من أهل ماردة وامام الثائرين - كما يسميه ابن حيان - الشخصية البارزة فى ثورات المولدين والبربر ضد سيادة قرطبة فى إقليم غرب الاندلس ، وعنه ، وعن اسرته كتبت كتب كثيرة ، لكنه للأسف الشديد ، فإن هذه الكتب قد فقدت ولم تصل إلينا ، ولم يتبق منها الا فقرات متفرقة مما يجعل من الصعب ان أقدم هنا تحليلاً وافياً عن احداثه وسأكتفى بترجمة مابقى من نصوص حول هذا الرجل .

أورد الصنبي ترجمة ابن مروان تحت رقم ١٠٤٥ دون ان يحدثنا بتفاصيل كثيرة وإنما اكتفى بقوله : عبد الرحمن بن مروان الجليقى ، منسوب الى بلده ، كان من الخوارج فى أيام بنى أمية بالاندلس ، جمعت فى يأخباره كتب هناك ، ذكره ابو محمد على بن احمد^(١٥) .

وجاءت اخبار بن مروان الجليقي عند ابن عذارى عند حديثه عن جملة الثوار ببلاد الأندلس في أيام الامير عبد الله الخارجين عن الجماعة ، المضرمين لنار الفتنة فقال ، ومنهم عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي ، اقتعد مدينتي بطليوس وماردة ، ففارق الجماعة وجاور اهل الشرك ، ووالاهم على اهي القبلة (١٦).

أما بن القوطية فقد تحدث عن ابن مروان حين حديثه عن الأيام الاخيرة للامير محمد عبد الرحمن فقال: فاضطربت الاحوال في آخر أيامه ، فلول فتنة حدثت عليه خروج عبد الرحمن بن مروان المعروف ، بالجليقي من قرطبة إلى الغرب ، وكان في جملة الحشم ، وكان اصله من جهة المغرب ، وكان من المولدين وكان بجانب الغرب ايضاً رجل من المولدين يعرف بسعدون السرنباقي ، وكان المولدين يغفلون فيه فيقولون : إنما هو السرور الباقي .

وكان لابن مروان من العقل والكيد والبصر بالشر بحيث لا متقدم له فيه فاجتمع بالسرنباقي ، وتضافرا على الشرك واحداثا في الاسلام احداثاً عظيمة يطول ذكرها ، وصارا في القفر بين الاسلام والشرك (١٧).

وقال ابن حيان (نقلاً عن ابن القوطية) " اضطربت الاحوال في آخر أيام الامير محمد ، ونشأت الفرقة ، ونجم أهل الشقاق بكل جهة ، فكان أول فتق حدث عليه فتق عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي ، وخروجه عاصياً من مكانه في مصاف السلطان بقرطبة الى جهة بلده بالغرب قاطعاً للسبيل ، خالعاً للطاعة وأصله من مولدى الغرب الغالبين في رأى التغوية ، وكان ذا بأس شديد ، وكيد عظيم الى دهاء ومكر وبصر بالشر لا يلحقه فيهن أحد من نظرائه ، وقد كان في جملة الحشم في ديوان السلطان (١٨) .

ولقد عرض المؤرخ الكبير دوزى بمهارة فائقة لآخبار الفارات والغزوات والحوادث التي قام بها بن مروان ولكن نون ان يكون لديه سند مؤكد من قبل المؤرخين المسلمين ، حتي انه نسب الى الرجل دوراً - على ماأرى شخصياً - ثم يكن يحلم بالقيام به ، يقول دوزى عن ابن مروان الجليقي : لقد جمع ابن مروان جيشه فرقة بعد فرقة من الاوياش والمرتدين وغيرهم ، وأنه بشر بينهم بديانة جديدة هي مزيج وسط بين الاسلام والمسيحية ، وعقد تحالفاً مع الفونسو الثالث

ملك ليون ، الحليف الطبيعي لكل متمرّد وثائر على حكومة قرطبة .

أننى اعتقد ان الكلمات التى استخلص دوزى من ترجمتها ان ابن مروان قد بشر بديانة جديدة تجمع بين الاسلام والنصرانية قد وردت عند بن حيان قال عنه " انه هجر دار التوحيد ، وجاور بلاد الشرك (١٩) . ، وفى ما قبلها يعود بن حيان ايضاً حين حديثه عن الرجل بعد ان تصالح مع الامير بانه ابتعد عن دار الكفر والتحف بالطاعة .

ولقد استخدم ابن عذارى نفس الكلمات تقريباً التى اشرنا اليها وسبق لنا ان بينا ان ابن القوطية لم يكن دقيقاً فى نصنا الذى اشرنا اليه ، ونحن فى النهاية نعتقد بعدم وجود اساس كاف لكى نؤكد ذلك ، على الاقل فيما قال به دوزى بان ابن مروان حاول ان ينشر ديانة جديدة بين اتباعه .

وفى مطالعتنا لتاريخ ابن خلدون فإننا نجد أقدم الروايات عن ابن مروان الجليقى ويرجعها ابن خلدون الى عام ٢٥١ هـ فهو يقول : ثم غزا الامير محمد بنفسه سنة احدى وخمسين بلاد الجلائقة ، فأتخن وخرب ، وانتقض عليه عبد الرحمن بن مروان الجليقى فيمن معه من المولدين ، وساروا إلى التخم ، ووصل يده بأذقونش ملك جليقية " (٢٠) .

واحتراماً لذلك المؤرخ العظيم بن خلدون ، فعلياً ان لا نرجع اليه هذا الخطأ الوارد فى النص المطبوع ، وفى اعتقادى اننا يجب ان نتناوله على انه خطأ مطبعى او خطأ من الناسخ حيث ان المؤرخ من تناوله احداثاً اخرى فى نفس العام لم يكرر كتابة التاريخ كما حدث فى حالتنا هذه ، هذا اذا افترضنا بعدم وجود خطأ فى هذه النسخة .

عام ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م .

يتحدث بن عذارى عن هذا العام قائلاً : وفى سنة ٢٥٤ خرج الامير محمد إلى امارة ماردة وأظهر أن استعداداه لطليطة ، وكان بماردة قوم من المنتزعين ، فلما فصل من قرطبة ، وقدم بالمحلات الى طريق طليطة ، نكب إلى ماردة ، فاحتل بهم ، وهم فى امن وعلى غفلة ، فتحصنوا فى المدينة أياماً ثم ناهض القنطرة ، فوقع القتال ، واشتد الحرب حتى غلبوا عليها

فامر الأمير بتخريب رجل منها ، وكان ذلك سبباً لاذعان أهل ماردة ، فطاعوا على أن يخرج
فرسانهم ، وهم يومئذ عبد الرحمن بن مروان ، وابن شاكر ، ومكحول ، وغير هؤلاء ، وكانوا
أهل بأس ونجدة وبسالة مشهورة . فخرج المذكورون ومن هو مثلهم إلى قرطبة بعيالهم
وذرائعهم وعلى عليها سعيد بن عباس القرشي ، وأمر بهدم سورها ، ولم يتبق إلا قصبتها لمن
يرد من العمال (٢١) .

ولقد أعطانا ابن الأثير مزيداً من التفاصيل عند حديثه عن هذه الحملة وأوردها على النحو
التالي: " وفيها عاود أهل ماردة من بلاد الأندلس الخلاف على محمد بن عبد الرحمن صاحب
الأندلس ، وسبب ذلك أنهم خالفوا قديماً على أبيه ، فظفر بهم وتفرق كثير من أهلها ، فلما
كان الآن تجمع إليها من كان فارقتها ، فعادوا إلى الخلاف والعصيان ، فسار محمد إليهم
وحصرهم ، وضيق عليهم ، فانقادوا إلى التسليم والطاعة ، فنقلهم ومواليهم إلى قرطبة وهدم
سور ماردة ، وحصن بها الموضع الذي كان يسكنه العمال دون غيرهم . (٢١) "

أما الاسقف روديجو الطليطلى Rodrigo de Tolido فقد أشار إلى هذه الأحداث ضمن
حديثه عن حوادث عام ٢٤٨ هـ وهو تاريخ لا يمكننا القبول به (٢٢) .

عام ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م .

إذا طالعنا ابن خلدون وجدنا عنواناً بارزاً يقول : أخبار الثوار وأولهم ابن مروان بطليوس
واشبونه " وتحت هذا العنوان يكرر نفس الكلمات السابق الإشارة إليها تقريباً في ص ١٣١
والتي جعل خروج الأمير محمد إلى ماردة في عام ٢٥١ هـ وقلنا بخطأ هذا التاريخ ، فهنا
يعود ابن خلدون ليبين أن التاريخ هو عام ٢٥٥ هـ ، ثم ينتقل بعد ذلك مباشرة إلى الحديث
عن أحداث وقعت عام ٢٦٣ هـ على ماسنيين فيما يلي من الصفحات (٢٣) .

عام ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م .

يرى لنا ابن الأثير عند حديثه عن هذه السنة " وفيها هرب ابن مروان الجليقي من قرطبة ،
فقصد قلعة الحنش فملكها وامتنع بها ، فسار إليه محمد صاحب الأندلس فحصره ثلاثة

أشهر ، فضاق به الأمر حتى أكل نوابه فطلب الأمان فأمنه محمد فسار به إلى مدينة بطليوس (٢٤).

ولقد أكد بن عذارى هذه الرواية وإن أضاف إليها بعض التفاصيل وروايته جاءت على النحو التالي " وفي سنة ٢٦١ هـ هرب بن مروان الجليقي من قرطبة مع رجال ماردة المنزلين منها ، واستقر بقلعة الحنش فغزاه الأمير محمد ، وحاصره حصاراً قطعاً وضيق عليه مدة من ثلاثة أشهر الجاه فيها إلى أكل النواب ، وقطع عنه الماء ، ورماه بالمجانيق حتى أذعن ، وطلب الأمان وشكى ثقل الظهر ، وضيق الحال ، فأباح له الأمير محمد الرحيل إلى بطليوس والحلول بها ، وهي يومئذ قرية ، فخرج إليها وقفل عنه (٢٥) .

- يقول ابن سعيد نقلاً عن ابن حيان " ذكر بن حيان أن الذي أحدث هذه المدينة (بطليموس) وكان أول بان لها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي ، وكان ابتداء حملاته على سلاطين بني أمية سنة إحدى وستين ومائتين فوارثها ولده (٢٦) .

عام ٢٦٢ هـ / (أكتوبر ٨٧٥ إلى سبتمبر ٨٧٦ هـ) .

وعن هذه السنة يروي ابن الأثير قائلاً : وفيها سير محمد صاحب الاندلس ابنه المنذر في جيش إلى الجليقي ، وكان بمدينة بطليوس ، فلما سمع خبرهم فارقه ودخل حصن كركر فحوصر فيه ، وكثر القتل في أصحابه في شوال (٢٧) .

أما بن عذارى فقد روى أحداث هذه الحملة بتفصيل أوسع فيقول : وفي سنة ٢٦٢ خرج المنذر بن الأمير محمد إلى بن مروان ، وكان القائد هاشم بن عبد العزيز ، وهو الذي كان سبب هروب بن مروان ، لأنه قال له من بين الوزراء " الكلب خير منك " وأمر بصفع قفاه ، واستبلغ في خزيه ، فهرب مع أصحابه ، وذلك في خبر طويل (٢٨) . ، وكان ابن مروان قد ابتنى بطليوس حصناً ، وجعله موطناً ، وأدخل فيه أهل ماردة يوغيرهم من أهل المكانفة له على الشر . فلما انتهى إلى بن مروان تحرك العسكر إليه ، تنقل عن بطليوس وحل بحصن كركر Alburquerque واجتمع أهل ماردة إليه فيه ، فنزل العسكر بمقربة من الحصن ، وكان

هاشم قد بعث إلى منت شلوط Mont salud خيلاً ورجلاً لضبطه ، وكان سعدون الرماري قد دخل إلى بلاد الشرك مستمداً فجاء بعدد من المشركين ، وأظهر أنه في قلة ، فكتب بذلك عامل حصن منت شلوط إلى هاشم فرأى هاشم أن ذلك فرصة في سعدون ، فبادر بالخروج من العسكر على غير تعبئة ولا أهمية في خيل قليل ، وأفحص هاشم وحاوز الوعر ، وأبعد عن العسكر ، فأخذت المضايق عليه ، وناشبهه القتال ، فأخذته جراح ، وقتل من أصحابه جماعة ، وأسر هاشم المذكور ، ولما اتصل خبر هاشم بالامير محمد وقع في جانبه ، قال : " هذا امر جناه على نفسه بطيشه وعجلته " ثم رد ولده عوضاً عنه وحصل هاشم أسيراً بيد بن مروان ثم ساقه في أسره في قرطبة ، فبره بن مروان وأكرمه وأحسن إليه ولم يعاقبه بما فعل معه (٢٩) .

يرى بن الخطيب هذه الاحداث ولكن بتفصيلات أقل ، ومما يلفت النظر في روايته تسميته بن مروان بمحمد بدلاً من عبد الرحمن كما نلاحظ انه يذكر لقب سعدون " السرنباقي " بدلاً من " السرنباقي " على ما جاء عند غيره من المؤرخين .

تناول بن القوطية هذه الاحداث دون ان يحدد لها تاريخاً ، كما اورد مزيداً من التفاصيل مثل قوله : وأسر هاشماً ، وقتل حوله من أشراف الموالى والعرب خمسون رجلاً ، ورفعاه إلى الفنش فاقتدى منه بمائة الف وخمسين ألفاً (٣٠) . وسوف نحدد سنة فداء هاشم من أسره فيما بعد .

وبعد ذلك يواصل ابن القوطية روايته عن الأحداث والتي أرى انه من الصعب علينا التأكيد منها وهي كما يلي : ثم ظهر بن مروان ظهوراً ، صار بذلك رئيس الموالدين في الغرب ، وصار السرنباقي تابعاً له ، وخرج بعد قفول العسكر عنه في جيش عظيم فبلغ إلى كورة اشبيلية ، وتوسط اعمالها ، وغنم حصن طلياطة بمن فيه ، ثم تقدم فشق كورة لبلة ، ثم دخل اكشونية وضبط بها جيلاً يقال له منت شافر فجبل الغرب كله ، وأفسده ، فلما طال غم الامير محمد به وجع إليه أميناً فقال له : يا هذا ، قد طال غمنا بك وغمك بنا ، عرفنا بمذهبك ، فقال له : مذهبى أن يباح لى البشرىل أبتنيها ، وأمدنها ، وأعمرها ، وأقيم الدعوة ، ولا تلزمنى جبابة ،

ولا طاعة في أمر ولا في نهى ، والبشرى هذه تقابل بطليوس وبينهما النهر .

فأجيب إلى أن بينى بطليوس دون النهر ليكون في حزب الاسلام على ما شرطه ففعل وصفت طاعته ، إلى أن طمع هاشم في أخذ الثأر فيه ، وقال للأمير محمد : إنما كان تعاصي امر ابن مروان علينا بأنه كان هو وأصحابه على ظهور خيولهم ينتقلون من موضع إلى موضع ، وقد صار الساعة في مدينة ودير وقصور وبساتين محيطة بها ، فنخرج إليه ، فإني أرجو أن يظفرنا الله به ، ويخرج معي الولد عبد الله ، فقد كان لابن مروان إليه انحراف عند كونه بقرطبة ، فخرج إلى اشبيلية ثم انتقل إلى لبلبة .

فلما بلغ ابن مروان الخبر أدرك الأمر بعقله وذكائه ، فكتب إلى الأمير محمد : بلغني أن هاشماً خرج إلى جهة الغرب ، ولست أشك أنه قد أطمعه في أخذ الثأر مني كوني في حصن وغلق ، وبالله لئن جاز لبلبة إلى لأضرم بطليوس بالنار ، ثم أعود إلى حالي الأول معك فلما قرأ محمد كتابه أمر بصرف الولد ، وصرف هاشماً من الطريق فانصرفا (٢١).

سنة ٢٦٣ هـ (٢٤ / ٩ / ٨٧٦ إلى ١٣ / ٩ / ٨٧٧ م)

يقول ابن عذارى : وفي سنة ٢٦٣ ، خرج المنذر بن الأمير محمد ، وجعل طريقه على ماردة فلما انتهى ذلك إلى بن مروان زال عن بطليوس ، واحتل بها قائد المنذر الوليد بن غانم فخر بديارها ، وتقدم بن مروان إلى بلاد العدو (٢٢) .

ويروى ابن خلدون عن نفس هذه الغزوة التي قام بها الأمير المنذر بن محمد ولكنه أضاف " وفي سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب وجعل طريقه على ماردة وكان بها ابن مروان الجليقي ، ومرت طائفة من عسكر المنذر بماردة فخرج عليهم ابن مروان ومعه جمع من المشركين استظفر بهم فقتل تلك الطائفة عن آخرهم (٢٣) " .

ويضيف ابن الأثير بعض التفاصيل ذات الأهمية " وفيها - أي في سنة ٢٦٣ - سير محمد صاحب الأندلس ابنه المنذر في جيش كثير ، وجعل طريقه على ماردة ، فلما جاز ماردة إلى

أرض العدو تبعه تسعمائة فارس من العسكر فخرج عليهم جمع من المشركين قد استظهر
فاقتتلوا قتالا كثيرا صبروا فيه وقتل من المشركين عدد كثير ، ثم استظهر ابن الجليقي ومن
معه من المشركين على التسعمائة فوضعوا السيف فيهم فقتلوه عن آخرهم و أكرمهم الله
بالشهادة (٣٤) .

سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧/٩/١٣ إلى ٨٧٨/٩/٣ م) .

يشير ابن عذارى إلى أنه في هذه السنة قد انطلق هاشم من الأسر (٣٥) . وأشار إلى ذلك
أيضا ابن الخطيب مع بعض التفاصيل الإدارية وبعض الإشارات إلى سجايا هشام .

وعن أسر هاشم بن عبد العزيز وفديته تحدث أيضا بتفصيل جيد المصادر والمدونات
النصرانية ، ومن هذه المدونات المدونة المعروفة باسم Cronicon de SamPiro

حيث يقول أنه في عهد الملك الفونسو الثالث سقط في الأسر جنرال أندلسي وهو في ذات
الوقت وزير يسمى أبا خالد Abokalit ، ولقد حمل هذا الأسير إلى الملك وظل عنده إلى أن
دفع مبلغ مائة ألف قطعة في مقابل إطلاق سراحه .

مزيد من التفاصيل حول هذا الحادث تقرأه في المدونة المعروفة باسم المدونة البلدية
Cronica Albeldense حيث تقول : أنه قدم إلى الملك في مدينة أوفيد Oviedo ، وأنه
قد تخلص من الأسر بعد أن قدم رهينتين أخوين أحدهما ابنه وآخر ابن شقيقه حتى دفع فدية
إلى الملك مائة ألف قطعة من الذهب .

ويبدو لنا من نص المدونة البلدية أن أسر الوزير هاشم أو أبو خالد ، وليس قداؤه هو الذي
كان في حدود هذا التاريخ ، حيث تنص المدونة على أنه

Era 915 Consul Spaniae et mahomat Regis Consiliarius Abuhalit bello in
fines Galleciae Capitur"

وإن كان من المؤكد أن هذا ليس دقيقا تماما

وفي نفس عام ٢٦٤ هـ توجبت حملة بقيادة البراء من مالك ودخلت إليها من باب قلنبرية إلى جليقية بحشود الغرب وتردد هناك حتى أذهب نعيمهم (١٧).

سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨/٩/٣ إلى ٨٧٩/٨/٢٣ م).

تم فداء هاشم بن عبد العزيز من أسر الملك الفونسو ، أو من أسر ابن مروان على حد قول ابن خلدون (ص ٤ ، ص ١٣٣) وتم توقيع الصلح على شرا عريضة ابن مروان للإقامة في بطليوس ، وهو ما حدث بالفعل في هذا العام ، ولقد قام ابن مروان بإعادة تحصين المدينة وبناء أسوارها ، وعندئذ عاد مرة ثانية إلى العصيان وأعلن استقلاله بالمدينة ، وكان قد سبق أن تغيرت علاقاته مع الفونسو ، وأعلن الحرب عليه ، وغادر ابن مروان دار الحرب إلى مكان يسمى أنطانية Antena من أحواز مدينة ماردة وقام بتحسينها بعد أن كانت ركاما ، واستولى ابن مروان على كل الأراضي التي كانت تابعة لمنطقة "ليون Leon" وكذلك الأراضي التي كانت خاضعة لمملكة جليقية Galicia وضم ذلك كله إلى ملكه في بطليوس حيث ضفط عليه الأمير عبد الله لينتقل إلى هناك .

ولقد كان مع ابن مروان في دار الحرب سعدون السرنبقي ، وهو رجل شجاع ومحارب عنيد وسبق له أن تمرد مع ابن مروان ، حينما استقر عبد الرحمن في باجة Beja ثم تمكن بعد ذلك من الاستيلاء على قلعة وأعلن استقلاله عن كلا الإمبراطوريتين حتى انتهى الأمر بمقتله في إحدى معاركه مع الملك الفونسو .

ولقد أورد ابن خيان بيانات أكثر تفصيلا عن السرنباقي فقال : سعدون بن فتاح السرنباقي ، صاحب عبد الرحمن بن مروان الجليقي ، ونظيره في التمرد واللعنة والاجترار على السلطان ، انتصر في الجماعة بكنة من أبيه ، ثم اقتسم وأولى له والده والرجولة فيهم ، بقلوات أرضه وطرقها دليلا ما هرا داهية ، انتصر على السلطان بحصن فقبروا

وقتل أحدهما الآخر واستقل ببطليوس ، ثم تسور عبد الله منها سنة ست وثمانين فقتله وملاك بطليوس واستفحل أمره والمعجل له الأمير عبد الله عليها . ونازل حصون البرابرة حتى طاعوا له ، وحارب ابن تاكيت صاحب ماردة ، ثم اصطلحوا وأقاموا جميعا طاعة الأمير عبد الله ، ثم تحاربوا واتصلت حروبهم إلى آخر دولته (٢٨).

سنة ٢٧١ هـ (٨٨٤/٦/٢٩ إلى ٨٨٥/٦/١٨)

يذكر ابن خلدون بعد أن روى أحداث عام ٢٧١ هـ أن هاشما قد سار لمحاربة عبد الرحمن بن مروان الجليقي في قلعة مونت مولين Mont Molin ، ولكنه عاد مسرعا إلى قرطبة ، ولقد خرج ابن مروان من قلعة مونت مولين ، وهاجم اشبيلية وبلدة فوينتيس دي كانتوس Fuentes de Cantes ، واستقر بعد ذلك في حصن مونت سالود Mont Salud ، حيث دافع عن نفسه قوات الأمير التي اضطرت إلى عقد الصلح مع ابن مروان الذي ظل ساكنا إلى الطاعة حتى وفاة الأمير محمد (ج ٤ ص ١٣٤) (٢٩).

وفي حوادث هذه السنة عند ابن الأثير يقول : سير محمد صاحب الأندلس جيشا مع ابنه إلى مدينة بطليوس ، فزال عنها ابن مروان الجليقي وكان مخالفا كما ذكرنا ، وقصد حصن أشير غرة فتحصن ، وأحرق المنذر بطليوس (٤٠).

سنة ٢٧٢ هـ (٨٨٥/٦/١٨ إلى ٨٨٦/٦/٨)

يعود ابن الأثير مرة أخرى إلى الإشارة إلى قلعة أشير غرة حين حديثه عن عام ٢٧٢ فيقول : وفيها سير صاحب الأندلس إلى ابن مروان الجليقي ، وهو بحصن أشير غرة ، فحصره ، وضيقوا عليه (٤١).

ويشير ابن عذاري إلى ذات الغزوة ، لكنه يحدد قيادتها فيقول : وفي سنة ٢٧٢ خرج عبد الله بن الأمير محمد ، والقائد هاشم بن عبد العزيز ، وقصد الغرب إلى ابن مروان وهو بجبل

اشبر غزة " فتازله وحاريه " . (٤٢)

سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩/٥/٦ إلى ٨٩٠/٤/٢٥ م)

رغم ان ابن مروان كان قد اعلن طاعته للأمير عبد الله ، وان الامير قد اعترف له بدرجة من السيادة على بطليوس إلا أنه كان مستعدا دائما للخروج عن طاعته ، ونهب الاقاليم المجاورة له ، ومن ثم حينما قام بربر ماردة بالاغارة على مدينة أشبيلية ولم يعترضهم أحد حتى عادوا وقد ملئت حقائبهم بالغنائم ، فرجعوا صائرين عن أشبيلية ، وقد فقدوا خلقا كثيرة من أهلها ، قام عبد الرحمن بن مروان الجليقي ، فأقبل بعسكره من بطليوس حتى نزل قرية مورة من اقليم البر المذكور ، على ثلاثة فراسخ من الحاضرة ، فشن الغارة عليها وعلى ما حولها ، وأقام أياما أيضا فظهر عجز السلطان ، وبان وهنه ، ومقتته الرعية ، وقويت أطماع أهل الشرفى كل جهة (٤٤) .

يشير بان الخطيب إلى ثائر آخر ممن تمردوا فى هذا الوقت فى باجة بأرض الغرب اسمه عبد الملك بن أبى الجوا فيقول : اقتعد مدينة باجة وتحصن بحصن " ماقلة " ، وله حظ من صنعة تشييد وعدة ، وكان قائما بدعوة المولدين معاقدا لابن مروان صاحب بطليوس ، ، وابن بكر صاحب اشكونة ، فكانوا اليا على من خالفهم ، ويذا على من خرج عنهم (٤٥) .

ويشير أيضا إلى ثائر آخر فى مدينة سنت مرية Santa Maria اسمه ابو بكر بن يحيى ، ويسميه ابن عذارى بكر بن يحيى بن بكر ، ويقول عنه وثار بكر بن يحيى بن بكر ، واقتعد مدينة سنت مرية من كورة اكشونية Osonva وبنائها حصنا اتخذ عليه ابواب حديد ، وكان له ترتيب واهمية ، ورجال شجعان وعدة موفرة ، وكان يتشبه - بزعمه - فى سلطانه بابراهيم بن حجاج ، وكان له أصحاب للرأى ، وكتاب للعمل ، وكان له عهد مؤكد إلى جميع من فى طاعته بإضافة ابناء السبيل ، وقراء النزيل ، وحفظ المجتازين ، فكان السالك بناحيته كالسالك بين أهله وأقاربه (٤٦) .

ويزيدنا ابن حيان فى معلوماتنا عن ثورة شنت مرية Santa Maria فى غرب الاندلس ، فلا يقتصر على مجرد اعطائنا المزيد من المعلومات عن ذلك الشخص المسمى بابى بكر ، وإنما يقدم لنا معلومات هامة عن والده وجده فيقول : " اقتعد مدينة شنت مرية من الكورة اشكونية ، وبنها ، واتخذ عليها ابواب حديد ملبسة عجبية الصنع ، وكان ترتيب واهبة ورجال شجعان وعدة موفرة ، وكان يتشبه فى سلطانه بابراهيم ابن حجاج ، وله أصحاب للرأى وكتاب للعمل ، وكان له عهد مؤكد إلى جميع من فى طاعته باضافة ابناء السبيل ، وقرى النزال ، وحفظ المجتازين ، فكان السالك فى ناحيته كالسالك بين أهله وأقاربه .

وقال ابن النظام : يحيى بن بكر بن زلف المنتزى بكورة اشكونية ، القائم بدعوة المولادة ، كان جده زلف أعجيا مولى لبكر بن نجاد الأورى ، سمي ولده باسم موله . فانجبت ولادته وسعت همته ، فثار ابن ابنه يحيى بن بكر أبان ثورة المولدين ، أخريات الامير محمد بيلده وتقلب على مدينة شنت مرية باشكونية ، وجمع الرجال ، واستغلظ أمره إلى أن غلب على جميع كورة أشكونية Osonva .

توفى ابنه يحيى بن بكر فظهر الانحراف إلى الطاعة ولاطف الأمير عبد الله بن محمد فولاه على بلده فاستوطن مدينة شلب Silves وسط الكورة وعمرها ، وقويت شوكته بالرجال ، وهو فى ذلك مقيم على رأيه ورأى أهل بيته فى عصييته للمولدين والعجم وانحرافه عن العرب ، يواصل على ذلك حلفاءه من أهل الجليقى يبشتر واشكالهم ويواليهم ولا يقطعهم إلى أن هلك فى صدر دولة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد (٤٧).

أما ثائر باجة الذى يسميه ابن الخطيب بعيد الملك بن ابى الجوار يسميه ابن عذارى عبد الملك بن أبى الجواد ويقول عنه أنه " اقتعد مدينة باجة وملكها ، وتحصن بحصن مارئلة بوله حظ من المنعة تشييدا وعدة ، وكان معاقدا لابن مروان صاحب بطليوس فى هذا التاريخ ، وابن بكر صاحب اكشونية ، فكانوا متآلبين على من خالفهم (٤٨).

ويؤكد ابن حيان رواية ابن عذارى (٤٩) . وخاصة فيما يتعلق باستقراره في باجة ، ومع اختلاف بسيط في التسمية ، ولم يذكر تاريخاً لهذه الاحداث مثلما هو الحال عند سابقيه .
في حدود هذا التاريخ تقريباً يمكننا الاعتقاد بأنه يشير إلى وفاة عبد الرحمن بن مروان .
في بطليوس ، وإعلان ابنه مروان حاكماً من بعده ، وموت مروان هذا بعد شهرين بعد
الاحداث التي سبقت الإشارة إليها على أنها اعقبت احداث عام ٢٦٥ هـ .

سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ / ٢٨ الى ٨٩٩ / ١ / ١٧)

يقدم كل من ابن عذارى وابن حيان بعض المعلومات بأنه في عام ٢٨٥ هـ خرج عباس بن
عبد العزيز القائد الى كركى وجبل البرانس فوطىء تلك الجهة ، وقتل ابن يامين وابن ماجول
من اعلام المخالفين وأخذ حصونها (٥٠) .

سنة ٢٨٦ هـ (٨٨٩ / ١ / ١٧ الى ٩٠٠ / ١ / ٧)

سبقت الإشارة الى ان مروان بن عبد الرحمن بن مروان الجليقي قد وافته المنية في حدود
عام ٢٧٦ هـ بعد شهرين فقط من وفاة والده ، وأن الأمير عبد الله قد اعطى حكم بطليوس
الى قائدين عربيين ، ولكن ما اسرع ما دب بينهما الخلاف ، وقتل احدهما الآخر ، وبقي في
السلطة وحده ، ومن المحتمل انه أعلن استقلاله ، على الاقل من الناحية الفعلية ، لان المؤلفات
تشير الى انه في حدود عام ٢٨٦ هـ ، قام الأمير بالاستيلاء على المدينة وقتل النثر ييبها .

سنة ٢٨٨ هـ (٩٠٠ / ١٢ / ٢٦ الى ٩٠١ / ١٢ / ١٦)

تسجل المصادر انه في العاشر من شهر رجب من سنة ٢٨٨ هـ او العاشر من يوليه عام
١٩٠١م وقوع معركة بين المسلمين والنصارى بالقرب من مدينة زامورا Zamora ويسمىها ابن
حيان " يوم زامورا " وقد لقي جيش المسلمين في هذه المعركة هزيمة قاسية ولم يكن هذا
الجيش من قوات الحكومة القرطبية بل من جنود متطوعة قام بتحريضها احد الفقهاء المسلمين

والذى قاد الجيش على أمل القضاء نهائياً على المسيحيين^(٥١).

والى هذه المعركة الكبيرة أشارت أيضاً المصادر النصرانية ، لكن ابن حيان هو الذى قدم لها وصفاً دقيقاً ومسهباً استفاد منه بوزى Dozy استفادة كثيرة .

لكن الذى يعنينا حقيقة من هذه المعركة هو ان جموع المتطوعة قد قدمت فى غالبيتها العظمى من مدن بطليوس وماردة وطيطة ، وهى أقاليم يسكن معظمها البربر المسلمون ، ولقد كانوا - علي ما يبدو - أكثر استعداداً وميلاً لقبول الوعظ والارشاد وكلمات الشيوخ والمتنبئين على ما يقول مؤرخنا صاحب كتاب سامبيرون Cranica Sampiron عند تحليله للأسباب التى ادت الى هذه الكارثة .

سنة ٣٠٢هـ (٩١٤ / ٧ / ٢٧ الى ٩١٥ / ٧ / ١٧ م)

بناء على قول بن خلدون فإنه فى اول المائة الرابعة ملك على الجلالة أردون من رزمير بن برمند بن قريولة بن أدفونش بن بيطر ، وخرج فى سنة ثنتين وثلثمائة الى الثغر الجوفى لأول ولاية الناصر ، وعاث فى جهات ماردة واخذ حصن الحنش ، وبعث الناصر وزيره احمد بن عبده فى العساكر الى بلاده فدوخها^(٥٢) .

وفى مدونة سيلوس التاريخية Cronica de silos فإنها تورد التاريخ متأخراً اربع سنوات ومع ذلك يبدو أنها تشير الى هذه الحملة التى قام بها اردونيوس الثانى Ordonez ، ومن ثم فمن المهم جداً لنا ان نعرف أنه قام تدمير كورة ماردة والاستيلاء على حصن Alanje والذى يطلق عليه Castrum Colubri فإنه يعرف هذه الايام باسم حصن الحنش Alhanze ، وأضاف بانه قد قتل كل البرابرة الذين كانوا يدافعون عن الحصن واسرت نساؤهم وسبيت أطفالهم ، وأنه قد استولى المهاجمون على غنائم وافرة من الذهب والفضة وملابس الحرير ، ومع ذلك يضيف فيما بعد ، ان جميع سكان ماردة ، وحاكمها قد خرجوا الى بطليوس بهدايا لا تحصى طالبين السلام ، ولعل فى هذا مبالغة كبيرة جداً مبعثها التعصب الوطنى .

سنة ٣١١ هـ (٢١ / ٤ / ٩٢٣ الى ٩ / ٤ / ٩٢٤ م)

فيما يمكن ان نسميه بحوليات عام ٣١١ نجد ابن عذارى يشير الى قتل عبد الله بن محمد بن مروان الجليقي ، صاحب بطليوس ، دخل عليه بعض اهل الموضع فقتلوه (٥٣) .

ولكن هذا النص رغم وضوحه في ذاته فإنه لا يبدو مفهوماً لعدم علمنا بتطورات الاحداث المؤدية اليه ، ويبدو ذلك اذا ما قارناه بما يقوله ابن حيان : ان عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن كان رهينة في قرطبة ، وأنه قد منح حكم مدينة بطليوس بعد وفاة جده وعمه ، ويؤكد ذلك ما رأيناه من أنه بعد موت عبد الرحمن بن معاوية خلفه ابنه مروان ، ونقول ذلك بناء على الاختلاف في النص في كتاب بن خلدون في نسخته المخطوطة رقم ٥٠١٩ بباريس ، وهو اختلاف وضع لنا بصورة طيبة ما عجز النص المطبوع من الكتاب عن توضيحه .

سنة ٣١٦ هـ (٢٥ / ٢ / ٩٢٨ الى ١٣ / ٢ / ٩٢٩ م)

يقول ابن عذارى وفيها : خرج احمد بن اياس القائد غازياً الى كور الغرب فافتتح مدينة ماردة ومدينة شنترين بلا حرب ونزلوا اليه بالامان ، ووافاهم غاية الاحسان (٥٤) .

سنة ٣١٧ هـ (١٤ / ٢ / ٩٢٩ الى ٣ / ٢ / ٩٣٠ م)

مات عبد الله بن مروان ، ولاندرى الى من انتقل ميراثه في حكم بطليوس ومن المرجح ان احد افراد هذه الاسرة قد نهض بهذه المهمة ، لأن ابن عذارى يشير في حديثه عن هذه السنة ويقول : وفيها كانت غزاة الناصر الى مدينة بطليوس لمحاربة اهلها وابن مروان المنتزى عليه فيها ، فبرز رحمه الله لغزاته هذه يوم الخميس لعشر خلون من ربيع الاول ، وهو اليوم الثالث والعشرون من نيسان ، ووصل من قصر قرطبة يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر ، وهو اليوم الرابع والعشرين من أيار ، وذلك بعد بروزه بأحد وثلاثين يوماً ، وأغزى معه الى عهده الحكم المستنصر بالله وابنه المنذر وكان احتلاله بالجيش على (مدينة) بطليوس

يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر . وواضعهم الحشم القتال فى افنيتهن وعلى ابواب دورهن وتقحموا عليهم داخل ارباضهم ، وقتلوا منهم فى ثانى احتلالهم عليهم جملة بعثت يروؤسهم الى قرطبة وقطعت ثمارهم ، وأحرق ما أخلوه من ديارم خارج سورهم ، وبقوا محدثين فى المدينة ، وأقام عليهم الناصر عشرين يوماً ، ثم أبقى عليهم أحمد بن إسحاق فى قطع من الجند وانتقل الى جهة ماردة ، فأصلح الاحوال بها ، وولاهم محمد بن إسحاق وندب معه عدة من الحشم ، ثم عاد رحمه الله الى مدينة بطليوس ، فاضطربت عساكره عليها من غير الجهة التى كانت اضطربت فيها أولاً ، وتولى من نكايتهم واليم محاصرتهم ، ماأذاقهم به وبال عصيانهم ، وعاقبة غيهم ، وضلالهم ، ثم أرتب عليهم أحمد بن إسحاق قائداً فى جيش كثيف ، ورجال منتقين ، وعدد كاملة وامره بالتشدد فى حصرهم والاستبلاغ فى مضايقتهم ، وانتقل نامضاً الى مدينة باجة ، فنزلها يوم الاحد مستهل جمادى الآخرة واضطربت عساكره عليها ، وتقدم بالاعذار الى عبد الرحمن بن سعيد بن مالك الذى كان بها ودعاه الى الطاعة فلاذ والتوى فنصبت المجانيق عليه وحورب أشد محاربة وقتل من رجاله عدد كثير وانحطت بعض ابراج المدينة بمن كان عليها فضربت رقابهم بين يدى المظل ، فاستأمن عبد الرحمن بن مالك واهله وجميع أهل باجة امير المؤمنين (الناصر) وخضعوا لأمره ونزلوا على حكمه ، فأوسعهم أمانة ، وأخرجوا عن المدينة ونقلوا الى قرطبة ودخلها الناصر وولاهم عبد الله بن عمر بن مسلمة ، وندب معه فيها قوة واكثف له الجمع والعدة وامره بابتناء قصبة فيها ينفرد بها العامل ويسكنها .

وكان مقام الناصر على باجة خمسة عشر يوماً . ثم انتقل منها قاصداً الى مدينة اكشونة بقرب الساحل الغربى من البحر المحيط ، فاحتل بها يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الآخرة ، وكان قد افتتح فى طريقة حصن الوقاع ، وأصاب فيه لخلف بن بكر صاحب اكشونة أموالاً وعدة وسلاحاً ، فغنم ذلك الحشم وأهل العسكر وصار لهم نفلاً ثم تلقى رسل خلف بن بكر امير المؤمنين ، مظهراً للإنبابة وملتزماً للطاعة ، ومتوسلاً ببعد الدار والقاصية ، وأخرج الى

الناصر النزائل ، وأقام له الوظائف والتزام إدار الجباية الكاملة ، وأظهر أهل ذلك الجانب فيه رغبة شديدة ووصفوه بسيرة حميدة ، فأقره الناصر عليهم ، وفرض عليه من الجباية ما التزم إيراده له فى كل عام ، وعهد اليه بحسن السيرة والرفق بالرعية والا يقبل نازعاً ولا يكتنف هارباً ، فالتزم جميع ما أمر به ووقف عند ما حد له وقف الناصر عن مدينة أكشونبة يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة ودخل القصر بقرطبة يوم الاحد لأربع عشرة ليلة خلت من رجب وقد استتم فى غزاته ثلاثة وتسعين يوماً (٥٥) .

لقد اتخذ عبد الرحمن الناصر لقب امير المؤمنين عام ٣١٦ هـ واخضع فى زمن قصير جميع الثائرين والمتمردين الذين زعزعا عرش بنى امية على عهد الحكام السابقين ، يمكن لنا القول الآن ان اسبانيا الاسلامية قد وصلت فى هذه الاعوام الى وحدة تربية لم تتمتع بها أبداً من قبل وان لم تدم هذه الوحدة طويلاً ، حيث لم تعمر الا اقل من قرن من الزمان .

فرانسيسكو قوديرة

هوامشي الترجمة

- ١ - المخطوط العربي في أكاديمية التاريخ بباريس رقم ٨٠ الورقة ٢٦٧ .
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ - طبعة دار الكتاب العربي ببيروت ج ٥ ص ١٩٥
- ٢ - يروي لنا ابن الأثير في ج ٥ ص ١٢٥ عند حديثه عن عام ١٩١ هـ كيف تعرضت مدينة ماردة تحت قيادة أصبغ بن عبد الله وكيف وافقه أهل ماردة وأخرجوا عامله واتصلوا بالحقم فأسار إليها وعاملها ، فبينما هم في المصار أتاه الخبر عن قرطبة أنهم أعلنوا العصيان له فرجع مبادراً ، فوصل قرطبة ولم يزل أهل ماردة تارة يطيعونه ومرة أخرى يعصون إلى سنة اثنتين وتسعين ، فضعف أمر صبغ لأن الحكم تابع إرسال الجيوش إليه واستعمال جماعة من أعيان أهل ماردة وثقاته من أصحابه فمالوا إليه وفارقوا أصبغ حتى أخوه ، فتحير أصبغ وضعفت نفسه ، فأرسل يطلب الأمان فأمنه الحكم ففارق ماردة ، وحضر عند الحكم ، وأقام بقرطبة .
- ٣ - هكذا أورد قزويني النص باللغة العربية ضمن بحثه الأسباني .
- ٤ - مدينة مينة هي مدينة Valencia de Mino في أحوال البرتغال حالياً .
- ٥ - ابن الأثير : الكامل في تاريخ ج ٥ ص ٢١٧
- ٦ - انظر ص ١١ و ص ١٢ من النص الأسباني نقلاً عن مخطوط الأكاديمية الملكية للتاريخ رقم ٨٠ الورقة ٢٧٣ .
- ٧ - ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٨٣ .
- ٨ - مجهول أخبار مجموعة ص ١٢٤ - ١٢٥ .
- ٩ - فتح مكنة المخطوط بالقرب من بلدة مكنة .

إشارة الكاتب إلى مقتل عدد كبير من الأسرائيليين ، ولعله يقصد بعض اليهود من كانوا يناصرون محمود بن عبد الجبار ، أما تعبير " البرابرة " فيقصد بهم هنا كل الذين كانوا يناصرون محمود بن عبد الجبار من المسلمين أو النصارى أو اليهود من سكان المنطقة .

١١ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢١٩ .

١٢ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٨٤

١٣ - لم يشر المؤلف هنا إلى أنه في عام ٢١٧ هجرية حوصرت ماردة ، وضيق عليها حتى فر عنها يخلق كثير ، وقتل منهم كثير (ابن عذارى ج ٢ ص ٨٢)

١٤ - ابن عذارى - البيان المغرب ج ٢ ص ٨٥

١٥ - الصنفي بغية القتبس الترجمة رقم ١٠٥٤

١٦ - ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٢٥ . وأوردت الترجمة الاسبانية هذا النص عند ذكر

ابن مروان في المصادر مشيرة إلى أن النص ورد بدون تحديد تاريخ بينما الواقع أنه

جده بمصر الأمير عبد الله بن محمد أي بعد عام ٢٧٥ هـ (المترجم)

١٧ - ابن القوطية : افتتاح الاندلس ص ١٠٠ - ١٠١ .

١٨ - ابن حيان القتبس ، تحقيق د . محمود على مكي ، طبعة بيروت ١٩٧٣ صفحة ٢٤٣ ،

٢٤٤ ، وتعتبر ترجمة ابن مروان عند ابن حيان من أكثر النصوص التي وردت في

المصادر العربية ولكن هذا المخطوط - يبدو - أنه لم يكن متيسراً أمام قويدرا حين

كتابة هذا المقال .

١٩ - ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥ .

- نقلًا عن الرازي في كتابه المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ٣٧٩ وما بعدها .
- ٢٠ - ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ ولذلك ص ١٣٣ .
- ٢١ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٠ ، وأورد ابن حيان تلك الرواية في المقتبس تحقيق مكى - ص ٣٢٢ مضيفاً الى ذلك بعض التفاصيل
- ٢٢ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣٣٩ .
- ٢٣ - انظر ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣ وقارن بينها وبين روايته الواردة في ص ١٣١ من نفس المجلد (المترجم) .
- ٢٤ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٧ .
- ٢٥ - ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٠٢ ، ويورد ابن حيان رواية أكثر تفصيلاً عن هروب ابن مروان الجليقى واصحابه من سجنهم في قرطبة سنة ٢٦١ هـ فيقول : وكان عبد الرحمن بن مروان قد ظاهر اصحابه المنتزعين معه عند فرارهم من قرطبة على ان يكون اجتماعهم بحصن الثلج وان يكون منه ظهورهم ، فانكمشوا لترحالهم وخرجوا من قرطبة متفرقين في اوقات مختلفة وعلي طرق شتى ، فلما اجتمعوا بالحصن المذكور أظهروا الخلاف عسى يومهم ، وعقدوا موكبهم ، ونشروا علمهم ، وأشاعوا ان الامير محمداً قد مات وان لاطاعة عليهم وخرجوا بجمعهم فشنوا الغارة على كل من لقوه والناس بغرة (انظر المقتبس المشار اليه ص ٣٤٧ وفيه المزيد من التفاصيل) (المترجم)
- ٢٦ - ورد النص عند ابن حيان ضمن شروط اشترطها ابن مروان على الامير محمد ، وشروط ان ينزل بطلييوس - قاطبة الغرب - يبينها لنفسه ومن معه ويدعو فيها للأمير محمد لا يلتزم من طاعته شيئاً غير ذلك ، فأجيب الى ذلك ، وتم له النزول ببطلليوس والاستقرار مديدة (ابن حيان السفر المشار اليه ص ٣٤٥)

- ٢٧ - ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج - ٦ ص ١٤
- ٢٨ - سبق ان اشرت الى هروب ابن مروان من قرطبة نقلاً عن ابن حيان (المترجم)
- ٢٩ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣
- ٣٠ - ابن القوطية : افتتاح الاندلس ص ١٠١
- ٣١ - ابن القوطية : افتتاح الاندلس ص ١٠٢
- ٣٢ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣
- ٣٣ - ابن خلون : تاريخ ابن خلون ج ٤ ص ١٣١
- ٣٤ - ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٧ ص ١٥ - ١٦
- ٣٥ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣
- ٣٦ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ وكذلك وردت هذه الرواية عند ابن حيان فى المقتبس ، النسخة المشار اليها ص ٢٨٥ . (المترجم)
- ٣٧ - نقلت هذا النص الواضح المفصل من أحدث طبقات السفر الثالث من مقتبس ابن حيان تحقيق الدكتور اسماعيل العربى ومن منشورات دار الأفاق الجديدة بالمغرب ، الطبعة الاولى ١٩٩٠ م ص ٣٤ (المترجم)
- ٣٨ - لم يكن النص الاسباني متسقاً فنقلت نص ابن خلون حول ابن تاكيت والمنطقة وهو ما كان يترجمه قوديره ، وأرجعته هنا الى الاصل المنقول منه ، انظر تاريخ ابن خلون ج ٤ ص ١٣٣ (المترجم)
- ٣٩ - لم اجد هذا النص عند ابن خلون لا فى الصفحة المشار اليها ولا فى غيرها .

- ٤٠ - ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٥٩
- ٤١ - ابن الاثير : نفس المصدر ج ٦ ص ٦٠
- ٤٢ - ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ١٠٥ ويلاحظ هنا الاخذ بقراءة اخرى لاسم الحصن ، مع وجود التسمية الاخرى اشير غرة فى واحدة من المخطوطات (المترجم)
- ٤٣ - ابن حيان : المقتبس ، السفر الثالث ، تحقيق د . اسماعيل العربى ، ص ٧٥
- ٤٤ - نفس المصدر ص ٩٢ - ٩٣
- ٤٥ - ابن حيان : المقتبس ، السفر الثالث ، ص ٣٣ : نقلت النص من عند ابن حيان لأننى لم اتعرف على المصدر الذي ينقل منه من مؤلفات ابن الخطيب ، وانظر ايضاً البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٥
- ٤٦ - اثبت النص الذى اورده ابن عذارى فى ج ٢ ص ١٣٧ لأنه النص الذى اقتبسه المؤلف فى ترجمته الاسبانية
- ٤٧ - ابن حيان : المقتبس - السفر الثالث ، ص ٣٤
- ٤٨ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٥
- ٤٩ - من الواضح ان ابن عذارى هو الذى ينقل عن ابن حيان وان كان الاسم عند ابن حيان عبد الملك من أبى الجوا فهو عند ابن عذارى ابن أبى الجواد ٥٠ ابن حيان : المقتبس - السفر الثالث ، ص ١٤٩ .
- ابن حيان : المقتبس - السفر الثالث ، ص ١٤٩
- ٥١ - اورد ابن حيان نصاً مطولاً ومفصلاً عن يوم سامورة وعن الداعي المعروف بابن القط القرشى الذى خرج على الامير عبد الله ودعا الناس للجهاد ومحاولة تحرير مدينة

سمورة من أيد النصارى لخطرهما على بلاد المسلمين ، وكيف استجاب له عشرات الآلاف لكنه لقي الهزيمة لما كان بين أصحابه من خلاف فبعد أن أصبح النصر له قاب قوسين أو أدنى فاذا ببعض القبائل البربرية تحسده على ذلك ، ونفر من المعركة لكي تقع به الهزيمة ، انظر تفضيلات ذلك في السفر الثالث من مقتبس ابن حيان ص ١٥٥ وما بعدها

٥٢ - ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤١

٥٣ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٥

٥٤ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٨

٥٥ - نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٠ - ٢٠١

المصادر

- ١ - ابن الأثير : ابو الحسن على بن أبي الكرم المتوفى ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م .
الكامل في التاريخ ، طبعة دار الكتاب العربي ببيروت الطبعة الرابعة ١٩٨٣ م
- ٢ - ابن حيان : ابو مروان حيان من خلف بن حسين بن حيان المتوفى ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م
المقتبس في تاريخ الاندلس ، السفر الثاني ، تحقيق د. محمود على مكي ،
بيروت ١٩٧٣ .
- السفر الثالث ، تحقيق د . اسماعيل العربي ، دار الافاق بالمغرب ، ١٩٩٠ .
- ٣ - الخشنى : محمد بن الحارث تاريخ قضاة قرطبة - طبعة الدار المصرية للتأليف
والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦ .
- ٤ - ابن خلدون : عبد الرحمن المتوفى ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ هـ
تاريخ ابن خلدون ، طبعة مؤسسة جمال للطباعة والنشر ببيروت د . ت .
- ٥ - سالم : الدكتور السيد عبد العزيز
تاريخ المسلمين وأثارهم في الاندلس
دار النهضة العربية ببيروت ١٩٦١ م
- ٦ - الشكعة : د . مصطفى الشكعة
المغرب والاندلس : افاق اسلامية وحضارة انسانية ومباحث يادبية - دار
الكتاب المصرى والبناني بالقاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٨٧ م
- ٧ - الصنبي : احمد بن عميرة المتوفى ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م -

بغية الملتمس ، طبعة دار الكتاب العربى بالقاهرة ١٩٦٧

٨- ابن عذارى : ابو عبد الله المراكشى المتوفى فى ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م .

البيان المغرب - طبعة دار الثقافة ببيروت د . ت

٩- عيسى : الدكتور محمد عبد الحميد عيسى

تاريخ التعليم فى الاندلس ، ودار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٨٢ م

الفتح الاسلامى للاندلس ، مطبعة سعيد رأفت بالقاهرة ١٩٨٥ م .

١٠- ابن القوطية : ابو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المتوفى ٣٦٧ هـ - / ٩٧٧

تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق الابيارى طبعة دار الكتاب المصرى القا

القاهرة ١٩٨٢

١١- مجهول : كتاب اخبار مجموعة تحقيق ابراهيم الابيارى ، طبعة دار الكتاب المص

بالقاهرة ١٩٨١ م

١٢- النباهى : ابو الحسن - تاريخ قضاة الاندلس ، طبعة بيروت د . ت

١٣- ثمنى : الدكتور عبد الحميد - الاسلام فى طليطلة ، طبعة دار النهضة العربية ببي

د . ت .

١ - Diccionario ilustrado de la lengua Espanola , Enciclopedia
niverssal Sopena - Tomoz madrid 1970 .

مطبوعات قسم العلوم الاجتماعية

بكلية التربية - جامعة عين شمس

القاهرة - ١٩٩٠

childhood. Whereas hypermetropic amblyopia is often difficult to treat past 4 or 5 years of age, probably because high myopia is usually acquired after the critical period of visual development, and the more myopic eye is in focus for near objects (a baby's world is up close). In contrast, patients with hypermetropic anisometropia always use the less hypermetropic eye because it requires less accommodative effort and constantly suppress the more hypermetropic eye (Wright, K., 2006).

Bilateral Blurred Retinal Image

Pattern distortion in its pure form without suppression occurs when there is bilateral symmetrical image blur and no strabismus.

Clinically, the effects of pure image blur are seen in cases of bilateral high hypermetropia or bilateral symmetrical astigmatism, or with bilateral ocular opacities such as bilateral congenital cataracts.

Bilateral pattern distortion causes bilateral poor vision. Depending on the extent of the distortion, some binocular fusion can develop, usually associated with gross stereopsis. If severe image blur occurs during the neonatal period so that essentially no pattern stimulation is provided, extremely poor vision and sensory nystagmus develop. Bilateral amblyopia and nystagmus will occur in cases of dense bilateral congenital opacities unless the image is cleared by 2 months of age. This type of nystagmus is called *sensory nystagmus* and is associated with bilateral severe amblyopia, or other causes of congenital blindness such as macular or optic nerve pathology. Sensory nystagmus does not occur with cortical blindness because extrastriate visual pathways anterior to the occipital cortex supply the fixation reflex. Acquired opacities after 6 months of age usually do not cause sensory nystagmus because the motor component of fixation has already been established. The presence of sensory nystagmus indicates severe amblyopia, usually 20/200 visual acuity or worse.

Ametropic amblyopia (bilateral hypermetropic amblyopia) usually occurs with hypermetropia greater than +5.00D without significant anisometropia. This was reported by Raab as early as 1971. In these cases,